مذكرات عن

رحلة عبر الجزيرة العربية

من القطيف في الخليج (العربي) إلى ينبع على البحر الأحمر

خلال عام ١٨١٩

تأليف

الكابتن ج. فورستر سادلير

قائد الفوج ٤٧

ترجمة

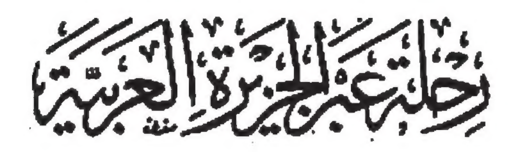
أنس الرفاعي

تقديم

عباس منصور



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٣


رحلة عبر الجزيرة العربية

سادلير، جورج فورستر.

رحلة عبر الجزيرة العربية خلال عام ١٨١٩/

ج. فورستر سادلير؛ ترجمة: أنس الرفاعى؛ تقديم:

عباس منصور. ـ القاهرة : الهيئة المصرية العامة

للكتاب، ٢٠١٣.

٣٠٤ص؛٢٤ سم.

تدمك ٢ ٥٧٣ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ شبه الجزيرة العربية ـ وصف ورحلات.

٢ ـ سادلير، جورج فورستر ـ المذكرات.

٣ ـ شبه الجزيرة العربية ـ تاريخ.

أ ـ الرفاعى، أنس (مترجم)

ب ـ منصور، عباس (مقدم)

ج ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٦٤١/ ٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 573 - 2

ديوى ٩١٥,٣٠٠١



● الكتاب: مذكرات عن

رحلة عبر الجزيرة العربية

● تأليف: الكابتن ج. فورستر سادلير

ترجمة: أنس الرفاعى

تقديم: عباس منصور

الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص.ب: ٢٣٥ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس

سادلير ومذكراته عن جزيرة العرب فى ١٨١٩م
قراءة فى طبائع البدو وتأسيس ممالك الخليج

تقديم : عباس منصور

جغرافيًا وحتى يكتمل التصور التاريخى فإن جزيرة العرب تنقسم إلى ثلاثة قطاعات طولية من الشمال حيث بادية الشام إلى الجنوب حيث اليمن بمحاذاة البحر الأحمر، القطاع الأول المحاذى للبحر غربيًا سهل ساحلى يسمى تهامة ومن أشهر مناطقه ضبا وينبع ورابغ وجدة والقنفذة، يليه قطاع الحجاز وهو سلسلة جبلية أشهر مناطقها الطائف ويثرب ومكة،، يليه قطاع نجد الذى يسلم للحدود العراقية فى السماوة ومنطقة الإحساء والإمارات شرقًا ومن أشهر مناطقه الرياض والرس وذلفى والدرعية وحائل وعنيزة وسكاكا والجوف.

وقراءة ما مضى من أحداث التاريخ من أهم ما يكشف سيرورة الحاضر، والمستقبل، إنها أحد جناحى نظرية المعرفة، فتفاصيل التاريخ وتراكماتها فى مجمل السعى البشرى إذا أمكن تعمقها تكشف عن قانون غاية فى الانضباط والصرامة والتواتر الذى يكاد يقترب من انضباط الضواهر الطبيعية، وجزيرة العرب التى دخلت متن التاريخ الإقليمى لمنطقة الشرق منذ القرن السادس الميلادى بتوحيد قبائل العرب تحت مفاهيم الدعوة الدينية الجديدة التى جاء بها الرسول محمد ليست استثناء من منطق التاريخ الإنسانى، فضوابط سيرورتها من

ضوابطه، التى مكنت قبائلها من السيطرة على المستعمرات الإمبراطورية القديمة فى مصر والشام وشمال إفريقيا واليمن وفارس وما جاورها من هوامش جغرافية، وما هذا الاندفاع والانتشار خارج جزيرة العرب إلا اتساق مع منطق التاريخ الإنسانى.

ولم تكد تتوحد تلك القبائل حتى نقلت عاصمتها خارج جزيرة العرب حيث الموارد الطبيعية والبشرية اللازمة للامبراطورية الجديدة التى انفكت من أسر الفراغ الجاثم فى صحراء الجزيرة إلى رحابة الامتلاء والقوة المتوارثة من طبيعة المكان وتراكمه الحضارى القديم فى دمشق وبغداد والقاهرة.. إلا أن المكان نفسه - جزيرة العرب - ظل على حاله القديم وسيرورته المتواصلة، قبائل متناحرة كل منها يحاول بسط نفوذه وسيادته على مكان ما فى هذه الجزيرة فيما يعرف بمضارب القبيلة، بل إن الحالة الدينية للجزيرة العربية عادت إلى سيرتها القديمة من الوثنية ومظاهر الشرك التى يصفها المؤرخ عثمان بن بشر النجدى فى كتابه عنوان «المجد فى تاريخ نجد» قائلا فى الجبيلة - وادى حنيفة - كان يعبد قبر زيد بن الخطاب و فى الدرعية كانت توجد بعض القبور والقباب تنسب إلى بعض الصحابة وكانت مراكز للتعبد الجاهلى من الدهماء ، وفى وادى غبيرة كانت قبة ضرار بن الأزور سوقا للبدع والأوهام، والقلم قاصر عن بيان ما كان يعمل الشباب والفتيات مع شجرة قديمة فى بليدة الفداء، فقد كانت النساء العاقرات يباشرن مع هذه الشجرة لطلب الأولاد، وكان غار على مقربة من الدرعية ترتكب عنده أكبر الفواحش المخزية.. وهكذا كان حال الاعتقاد الدينى فى جزيرة العرب مع مجيء القرن الثامن عشر الميلادى قبل قيام الحركة الوهابية التى تحالف معها محمد بن سعود وهى لا تختلف كثيرا عن ما كانت عليه فى القرن السادس الميلادى إبان بعثة الرسول العربية.

وما إن خرجت القوة الناشئة من يثرب ونقلت مركز الحكم إلى دمشق فى قلب الشام حتى عادت القبائل للتمركز ثانية فى مواطنها حتى استقر الأمر مع مطلع القرن الثامن عشر الميلادى على النحو التالى: الخوالد فى الإحساء والقطيف، البوسعيد فى عمان، القواسم مقابل خليج هرمز فى الشارقة ورأس الخيمة

العتوب «بنى عتبة» فى ما يعرف بالكويت والبحرين، بنو حنيفة والعنوز فى الرس والدرعية وما جاورهما من نجد شمر فى حائل، بنو تميم فى قطر.

ويحفل تاريخ المنطقة بمعارك وحروب لا تختلف كثيرا عن حرب البسوس وداحس والغبراء فى الجاهلية أو معركة الحرة التى وقعت سنة ٦٣ من الهجرة أو حرب الرضيمة بين العجمان والخوالد سنة ١٢٠٠ من الهجرة أو حتى حرب الصريف فى بداية القرن العشرين بين آل رشيد من شمر وآل سعود وآل الصباح وأتباعهما من قبائل العجمان وغيرها، وفى كل هذه المعارك كان بأسهم بينهم شديد على شاكلة ما يصوره المؤرخ المدائنى فى موقعة الحرة سنة ٦٣ للهجرة حيث يقول: أباح مسلم بن عقبة من بنى مرة - القائد الذى أرسله يزيد الأموى القرشى - المدينة ثلاثة أيام يقتلون ما وجدوا من النساء ويأخذون الأموال ووقعوا على النساء حتى قيل إنه حبلت ألف امرأة من أهل المدينة - يثرب - بعد وقعة الحرة من غير زواج أو كما يقول المدائنى فى سياق آخر عن أبى قرة عن هشام ابن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعت الحرة من غير زواج.

وهذه الجزيرة العربية صار حكمها الآن إلى ملكيات وراثية وقد أخذت مسميات سلطنة. دولة.. مملكة، هى الآن المملكة العربية السعودية، مملكة البحرين، سلطنة عمان دولة الكويت دولة الإمارات العربية المتحدة، دولة قطر وكل ملكية من هؤلاء فرع من قبيلة اختلف النسابون فى أصلها، مع شبه إجماع على أن آل سعود من قبيلة بنى حنيفة وآل الصباح وآل خليفة حكام الكويت والبحرين من بنى عتبة ومعهم فرع ثالث اسمه الجلاهمة وحكام عمان من آل بوسعيد من قبيلة أزد، أما حكام قطر فهم من بنى تميم وحكام الإمارات فهم من نسل القواسم وهم أكثر الأسر الحاكمة التى اشتد الجدل بشأن أصلها، حتى إن بعضهم يرجع أصلهم إلى الفرس.

ومذكرات الكابتن قائد الفوج ٤٧ فى سلاح المشاة البريطانى جورج فورستر سادلير التى نحن بصدد عرضها من الإضاءات الكاشفة عن طبيعة الصراعات والولاءات الداخلية والخارجية لقبائل العرب فى العقدين الأول والثانى من القرن التاسع عشر الميلادى فى فترة ولادة وتشكل وتأسيس الممالك الجديدة فى حضن

الصراعات الإقليمية والدولية التى تجاذبت جزيرة العرب ونعنى بها البريطانيين والعثمانيين ومصر تحت قيادة محمد على والفرس.

وسادلير الذى ذهب فى مهمة خاصة داخل جزيرة العرب عقب تدمير التحالف الوهابى السعودى فى عاصمته الدرعية كان مكلفا من قبل الحاكم العام البريطانى فى الهند لحشد القرى المحلية من آل بوسعيد فى مسقط والإقليمية المتمثلة فى ابراهيم باشا قائد الحملة المصرية على نجد والحجاز وذلك للإطاحة بنفوذ القواسم من حكام الشارقة ورأس الخيمة الذين يهددون الملاحة فى الخليج الفارسى ونسف المصالح التجارية لشركة الهند الشرقية الذراع الاستعمارى الفعال للبريطانيين فى ذلك التوقيت.

وأسفر هذا التحالف البريطانى البوسعيدى - بعد مماطلة وتهرب محمد على من الانضمام إليهم وانحيازه إلى العثمانيين حليفة الإستراتيجى - عن حملة إلى مياه الخليج الفارسى بقيادة وليام جوانت كير فى نوفمبر ١٨١٩ م ولم يكد يمضى شهران من القتال حتى كان أكابر شيوخ المنطقة قد حضروا إلى مقر القائد كير لإعلان خضوعهم والتعبير عن إخلاصهم وولائهم للبريطانيين وكان بينهم سلطان بن صقر شيخ الشارقة وشخبوط بن ذياب والد طحنون بن شخبوط شيخ آل بو فلاح فى أبو ظبى ومحمد بن حزة شيخ دبى وكان لا يزال غلاما فى صحبة عمه الأكبر بالإضافة إلى شيوخ عجمان وأم القوين والجزيرة الحمراء.

ومذكرات سادلير رحلة فى مجتمع البدو بقدر ما هى رحلة ذات طبيعة سياسية ، اهتم فيها الضابط سادلير بسرد طبائع النفوس وتصرفات الناس من سكان صحراء العرب على اختلاف قبائلهم (الخوالد - الهواجر - العجمان - بنو حنيفة - القواسم - سبيع - شمر - العنوز - المطران - وبنى تميم)، وغاص خلالها سادلير فى طبيعة التحالفات القبلية مع القوى الإقليمية المجاورة فى تركيا وفارس ومصر خلال العقود الأولى من القرن التاسع عشر أثناء سيطرة دولة آل سعود الأولى - التى بدأت فى الدرعية بوسط نجد ١١٣٩ للهجرة - على قطاع كبير من جزيرة العرب ما بين القطيف والإحساء فى أقصى الشرق إلى ينبع فى أقصى الغرب وتجاوزت إلى كربلاء فى أقصى الشمال داخل حدود دولة الرافدين مما

كان سببا فى اغتيال عبدالعزيز بن محمد بن سعود ١٨٠٣ م على يد رجل شيعى من خراسان وفى عاصمة دولته الدرعية قبل أن يدمرها جيش ابراهيم باشا بن محمد على فى سبتمبر ١٨١٨ م والقبض على الزعيم السياسى والعسكرى عبدالله بن سعود والزعيم الدينى حفيد محمد بن عبدالوهاب وإرسالهما مع كثير من أقاربهما إلى الإسكندرية حيث تم تجريسهما قبل إرسالهما ليلقيا حتفهما شنقًا فى اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية.

يقول سادلير واصفًا طباع البدو فى معرض تعليقه على ما لاقاه من أبناء عريعر زعيم الخوالد أمراء منطقة الإحساء «إن تسويف البدو ونفاقهم وزيفهم وخداعهم واحتيالهم لا يمكن أن يوصف لأوروبى فى لغة وعبارات تعطى لخياله وصفا للشخصية الحقيقية لهؤلاء اللصوص الرحل، وإنك لتجد من السخف أن تحاول إقناعهم ومناقشتهم بمبادئ العدالة والحق والإنصاف، ومما يوازيه فى العقم محاولة الإصرار عليهم بالتزام الوعود والمواثيق التى عاهدوا عليها ، كل هذا لا جدوى منه إذا لم تكن تملك وسائل الإجبار على المطاوعة والإذعان... والعرف السائد عند هؤلاء أن يظهروا حليمين ومتواضعين عندما يتساومون مع المسافر الذى يصبح من لحظة دخوله الصحراء تحت الرحمة المطلقة للمتسودين على رمالها الذين يتحكمون باستبداد ويلجؤون إلى الخداع من أجل مصالحهم وإذا ما حصل أدنى سوء تفاهم ربما يتوقفون ويهجرون المسافرين الذين يرافقونهم ويتركونهم فى أمس الحاجة إلى الماء.

وعن أسباب غزو محمد على باشا للدولة السعودية الأولى يجمع المؤرخون ومنهم ميخائيل الدمشقى على أن قيام آل سعود وآل الشيخ الوهابيين بمنع قافلة حجاج الشام والأتراك من دخول المدينة لأداء الحج وإعادتهم إلى الشام سنة ١٨٠٧ للميلاد الموافق ١٢٢٢ للهجرة على الرغم من وجود والدة السلطان العثمانى فى تلك القافلة فأصدر السلطان العثمانى مصطفى الرابع تكليفا إلى والى مصر محمد على باشا بغزو دولة آل سعود وإعادة المدينة ومكة إلى النفوذ العثمانى والزحف إلى عاصمتهم الدرعية وتدميرها، وقد تحقق ذلك بالفعل بعد أحد عشر عاما بعد مراوغات من محمد على للحصول على مزيد من الامتيازات

والأموال من الباب العالى العثمانى، فأوفد ابنه طوسون بداية الأمر فى سبتمبر سنة ١٨١١م ولكنه عاد بعد عامين وتولى قيادة الحملة ابنه ابراهيم الذى أتم المهمة وقضى على الدولة السعودية الأولى وأعاد النفوذ العثمانى إلى نجد والحجاز تحت إمرة الوالى الاقليمى محمد على فى سبتمبر ١٩١٨.

إن أهم ما فى مذكرات سادلير فى رأينا يتمثل فى فهم طبيعة الوجود السياسى والإدارى للأنظمة العشائرية التى تحكم جزيرة العرب الآن والتى بدت فى صورة جنينية تكوينية مع بداية القرن الثامن عشر حيث كان الصراع على أشده بين العثمانيين والبريطانيين والذى تم حسمه بهزيمة العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى فى العقد الثانى من القرن العشرين وتأسيس الدولة السعودية الثانية فى الرياض على يد عبد الرحمن بن فيصل بن تركى بن عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود المريدى الحنفى وولده عبدالعزيز الذى مازال ابناؤه يتولون الحكم فى دولة آل سعود الثانية.

ومن اللافت أيضا أن كل المتحالفين مع العثمانيين دولا وقبائل قد تمت هزيمتهم وانسحابهم من المشهد ومنهم أسرة محمد على مصر وآل رشيد من قبيلة شمر وحلفاؤهم من قبائل المطران والخوالد والحروب والظفير وسبيع والذين أغلبهم قحطانيون من قبائل الجنوب، وصار أبناؤهم مواطنين من الدرجة الثانية حتى السابعة فى بلدان الخليج العربى، بينما أصبح حلفاء بريطانيا من قبائل الشمال العدنانية حكاما وملوكا، كما ظل المشهد على هذه الحالة مع تغيير طفيف وهو أن زعامة القوى الاستعمارية انتقلت من بريطانيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية مع هزيمة بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية.

ومن قبل ومن بعد فإن مذكرات سادلير عمل أدبى من الطراز الأول لا تنقصه الحبكة ولا الشخوص ولا تفاصيل الشخصيات والمكان، إنها رواية فنية من أدب السيرة الذاتية صيغ بعيون وذائقة رجل عسكرى يعرف أن مصائر البشر تكمن فى التفاصيل الدقيقة والالتقاطات النادرة.

وأخيرا قد يكون من المفيد أن نذكر بقصيدة أمير الشعراء أحمد شوقى التى استغاث فيها بالسلطان عبدالحميد ليؤدب أمير مكة عون الرفيق الهاشمى الذى

اعتدى وجنوده على موكب الحجيج واغتصب النساء بعد تدمير عاصمة الدرعية عاصمة آل سعود الأولى بسبب أحداث مماثلة سبقتها بقرن تقريبا.

ضَجَّ الحِجازُ وضَجَّ البَيتُ وَالحَرَمُ
وَاستَصرَخَت رَبَّها فى مَكَّةَ الأُمَمُ

قَد مَسَّها فى حِماكَ الضُرُّ فَاقضِ لَها
خَليفَةَ اللَهِ أنتَ السَيِّدُ الحَكَمُ

لَكَ الرُبوعُ التى ريعَ الحَجيجُ بِها
أَلِلشَريفِ عَليها أم لَكَ العَلَمُ

أُهينَ فيها ضُيوفُ اللَهِ وَاضطُهِدوا
إن أنت لَم تَنتَقم فَاللَهُ مُنتَقِمُ

أفى الضُحى وَعُيونُ الجُندِ ناظِرَةٌ
تُسبى النِساءُ وَيُؤذى الأهلُ وَالحَشَمُ

ويَسفِكُ الدَمُ فى أرضٍ مُقَدَّسَةٍ
وَتُستَباحُ بِها الأعراضُ وَالحُرَمُ

يَدُ الشَريفِ عَلى أيدى الوُلاة عَلَت
وَنَعلُهُ دونَ رُكنِ البَيتِ تُستَلَمُ

نيرونُ إن قيسَ فى باب الطُغاة بهِ
مُبالَغٌ فيهِ وَالحَجّاجُ مُتَّهَمُ

أدِّبهُ أدَّب أميرَ المُؤمِنينَ فَما
فى العَفوِ عَن فاسق فضل وَلا كَرَمُ

لاتَــرجُ فــيـهِ وَقــارًا لـلــرســولِ فَــمــا

بَـيـنَ الـبُـغـاةِ وبَـيَـنَ المُـصـطَـفى رَحِمُ

ابِنُ الــرَسـولِ فَـتـىً فـيـهِ شَـمـائِـلُهُ

وَفـيـهِ نَـخـوَتُهُ وَالـعَـهـدُ وَالـشَـمَمُ

مـا كـانَ طَهَ لِـرَهطِ الـفـاسِـقـينَ أَبًـا

آلَ الـنَبِيِّ بـأعلام الـهُـدى خُـتِـمـوا

خَـلـيـفَـةَ الـلَهِ شَـكـوى المُـسـلِـمينَ رَقَت

لِـسُـدَّةِ الـلَهِ هَل تَـرقى لَكَ الـكَـلِمُ

الحَـجُّ رُكنٌ مـنَ الإِسـلامِ نُـكـبِـرُهُ

وَالـيَـومَ يـوشِكُ هَـذا الـرُكنُ يَـنـهَـدِمُ

منَ الـشَـريفِ وَمِن أعـوانِهِ فَـعَـلَت

نُـعـمى الـزِيـادَةِ مـا لاتَـفـعَلُ الـنِـقَمُ

عَـزَّ الـسَـبـيلُ إلى طَهَ وَتُـربَـتِـهِ

فَـمَن أرادَ سَـبـيلاً فَـالـطَـريقُ دَمُ

مُـحَـمَّـدٌ رُوِّعتَ في الـقَـبـرِ أعـظُـمُهُ

وَبـاتَ مُـسـتَـأمَـنًـا في قَـومِهِ الـصَـنَمُ

وَخـانَ عَـونُ الـرَفـيق الـعَـهـدَ في بَـلَـدِ

مِـنهُ الـعُـهـودُ أَتَت لِـلـنـاسِ وَالـذِمَمُ

قَــد ســالَ بِـالـدَمِ مِن ذَبحٍ وَمِن بَـشَـرِ

وَاحـمَـرَّ فـيهِ الحِـمى وَالأَشـهُـرُ الحُـرُمُ

وَفُــزِّعَت فى الخُــدورِ الــســاعــيــاتُ لَهُ

الــداعــيــاتُ وَقُــربُ الــلَــهِ مُــغــتَــنَمُ

آبَت ثُــكــالى أيــامى بَــعــدَ مــا أخَــذَت

من حَــولِــهِنَّ الــنَــوى وَالأيــنُقُ الــرَسُمُ

حُــرِمنَ أنــوارَ خَــيــرِ الخَــلق مِن كَــثَبٍ

فَــدَمــعُــهُنَّ منَ الحِــرمــانِ مُــنــسَــجِمُ

ايُّ الــصَــغــائــر فى الإسلام فــاشــيَــةٌ

تــودى بِــأيــسَــرِهــا الــدَوَلاتُ وَالأُمَمُ

يَــجــيشُ صَــدرى وَلايَــجــرى بِــهــا قَــلَــمى

وَلَــو جَــرى لَــبَــكــى وَاسْــتَــضــحَكَ الــقَــلَمُ

أغــضَــيــتُ ضَــنّــا بــعِــرضى أن ألَمَّ بِهِ

وَقَــد يَــروقُ الــعَــمى لِــلــحُــرِّ والــصَــمَمِ

مَــوِّهْ عَــلى الــنــاسِ أو غــالِــطهُمُ عَــبَــثــا

فَــلَــيسَ تَــكــتُــمُــهُم مــا لَــيسَ يَــنــكَــتِمُ

منَ الــزِيــادَةِ فى الــبَــلــوى وَإن عَــظُــمَت

أن يَــعــلَمَ الــشــامِــتونَ الــيَــومَ مــا عَــلِــمــوا

كُلُّ الجَــراحِ بــآلامٍ فَــمــا لَــمَــسَت

يَــدُ الــعَــدُوِّ فَــثَــمَّ الجُــرحُ وَالألَــمُ

وَالمَــوتُ أهــوَنُ مِــنــهــا وَهىَ دامــيَــةٌ

إذا أســاهــا لِــســانٌ لــلــعِــدى وَفَمُ

رَبَّ الجَـزيـرَةِ أدرِكـهـا فـقـد عَـبَـثَت

بِـهـا الـذئـابُ وَضَلَّ الـراعِيَ الـغَـنَمُ

إنَّ الـدينَ تَـوَلَّـوا أمـرَهـا ظَـلَـمـوا

وَالـظُّـلمُ تَـصـحَـبُهُ الأهـوالُ وَالـظُّـلَمُ

فى كُلِّ يَـومٍ قِـتـالٌ تَـقـشَـعِـرُّ لَهُ

وَفِـتـنَـةٌ فى رُبـوعِ الـلَهِ تَـضـطَـرِمُ

أزرى الـشَـريفَ وَأحـزابُ الـشريفِ بِـهـا

وَقَـسَّـمـوهـا كـإرثِ المَـيتِ وانـقَـسَـمـوا

لاتُـجـزِهِم عَـنكَ حُـلـمًـا وَاجـزِهِم عَـنَـتًـا

فى الحِـلمِ مـا يَـسَمُ الأفـعـالَ أو يَـصِمِ

كَـفى الجَـزيـرَةَ مـا جَـرّوا لَـهـا سَـفَـهًـا

وَمـا يُـحـاوِلُ من أطـرافِـهـا الـعَـجَمُ

تِـلكَ الـثُّـغـورُ عَـلَـيـهـا وَهيَ زينَـتُـهـا

مَـنـاهِـلٌ عَـذُبَت لِـلـقَـومِ فـازدَحَـمـوا

فى كُلِّ لُجٍّ حَـوالَـيـهـا لَـهُم سُـفُـنٌ

وَفَـوقَ كُلِّ مَـكـانٍ يـابِسٍ قَـدَمُ

والاهُمُ أمَـراءُ الـسـوءِ وَاتَّـفَـقـوا

مَعَ الـعُـداةِ عَـلَـيـهـا فـالـعُـداةُ هُمُ

فَـجَـرِّدِ الـسَـيفَ فى وَقتٍ يُـفـيـدُ بِهِ

فَـإنَّ لِـلـسَـيفِ يَـومًـا ثُمَّ يَـنـصَـرِمُ

عباس منصور

ملاحظات

على

الطريق عبر الجزيرة العربية

من

القطيف على الخليج العربي

حتى

ينبع على البحر الأحمر

وضعت نصب عيني طريقاً عبر الجزيرة العربيـة من القطيف إلى ينبع بُغيـة توضيـح الاتجـاه العـام لمسيري بحيث أتمكن من إظهـار المنـاطـق ذات الصلـة بهـذا الطريق ، من المدن والأماكن التي مررت بها في هذه الرحلة أو لأقـدم روايـة عن بطولات سعادة إبراهيم باشا بشكل يسبق في وضوحه كل مارُوي عنه . (٣)

اضطررت في المراحل الأولى من مسيري إلى أن أطرق باب التخمين بالنسبـة للمسافات لأن مداركي لم تكن قد استوعبت بعد مدى خطا الجمال وسرعتهـا بشكل كاف بحيث أتمكن من تشكيل فكرة عن معـدل السرعـة التي كنـا نسير بهـا ، لكن ملاحظـاتي الـدقيقـة وتوقيتي لسير هـذا الحيوان مكنتني خلال أيـام قلائل من أن أشكل رأياً أقرب ما يكون إلى الصحة . ومن هنا استنتجت معدل السرعة العاديـة لسيري بحساب عدد الساعات التي كنا نمشيها بشكل فعلي .

لاحظت أنه عندما كان المسير لا يتجاوز ثماني ساعات كانت السرعة ثلاثة أميال في الساعة ، وعندما كان يتجاوز ذلك العدد من الساعات كانت تنخفض المسافة المحسوبة إلى مابين ميلين ونصف وميلين وثلاثة أرباع الميل في كل ساعة ، وكان هذا الانخفاض في السرعة يتسبب عن الأراضي الجبلية والصخرية .

كنت أحصل على الاتجاه العام لخط السير بين الفينة والفينة عن طريق بوصلة في غاية الجودة ، فأترجل في كل مرة عن جملي ، لأن حركته المتموجة بشكل مستمر لا تسمح باستعمال البوصلة حتى عندما يكون بطيئاً في سيره .

تابعنا رحلتنا من القطيف على مراحل متقطعة حتى أم رُبيعة في الصحراء ، ومن هناك سلكنا طريقاً تقهقرياً وغير مباشر حتى وصلنا الأحساء ، ولسوء طالعنا سلكنا منها طريقاً آخر فعاد بنا إلى أم ربيعة بشكل لم نكن نتوقعه . وعندما وضعنا رحالنا عند تلك النقطة تبين لنا أن خطأ بسيطاً سبَّب تلك المشكلة ، ولم تزد المسافة عن سبعة أو ثمانية أميال .

انطلقنا من هذه المنطقة ثانية عاقدين العزم على المتابعة إلى الدرعية ، لكن حادثاً مؤسفاً منعنا من عبور هذا الطريق فأخذنا نجول في الصحراء للمرة الثانية إلى أن وصلنا إلى منفوحة والرياض الواقعتين جنوبي الدرعية ، حيث كانتا المنطقتين الوحيدتين اللتين مررنا بهما ووجدنا فيهما أثراً لاستيطان أفراد من بني البشر خلال مسيرنا مدة أربعة عشر يوماً أي منذ أن غادرنا الأحساء .

ومن منطقة درعية تابعنا باتجاه عنيزة وهي إحدى المدن الرئيسية في الجزيرة العربية . ولقد كنت خلال الطريق أسأل الأدلاّء والبدو الذين رافقونا عن المسافات ، وعن البلدان التي صادفتنا . وكم كانت دهشتي كبيرة عندما توافق رأيهم جميعاً على أنه لابد لنا من المرور في شقرا قبل أن نصل إلى عنيزة ، لأن مكاني هاتين البلدتين بالنسبة لدرعية مقلوبين على الخريطة المطبوعة .

بعد مغادرتنا لشقرا وصلنا أخيراً إلى عنيزة والرس ومن هناك انطلقنا مكرهين نحو المدينة المنورة التي حددْتُ مكانها على الخرائط الجديدة لعام ١٨١٩ وفقاً لخطي الطول والعرض الجغرافيين المعينين لها . ومع أن حساباتي لم تذهب بي بعيداً نحو الجنوب فإني كنت راضياً عن انحراف البوصلة الضئيل خلال المسير باتجاه الغرب ، لكن هذا الانحراف بدا ذا أهمية بالنسبة لخط عرض ينبع الذي بلغ ما يقرب من درجة كاملة .

وعندما اقتربنا من المدينة المنورة حصل حادث سيئ حال دون قيامي بتدوين أية ملاحظات خلال الالتواءات المذهلة ونحن في طريقنا عبر وديان تفوق ما اعتادت عين الإنسان أن تراه وتألفه ، وهي التي تهيئ طريق العبور والاتصال من خلال سلسلة الجبال التي تفصل الحجاز عن نجد لكن هذا الوادي كان في غاية الضيق ، وكان تعداد قافلتنا كبيراً جداً ، فلم نستطع أن نسير فيه كجسد واحد . ولا أتصور أننا تجاوزنا الميلين في كل ساعة خلال هذا الجزء من الرحلة .

ولقد أضفت أسماء كثيرة لأماكن لا أثر لها على أية خريطة مطبوعة للجزيرة العربية لكني حصرت هذه الإضافة بالأماكن التي مررت بها بنفسي ، والتي ذكرت الكثير منها خلال روايتي عن حملة سعادته ضد الوهابيين .

ولدى مقارنة هذا الطريق مع خرائط الجزيرة العربية التي تحت الطبع تبين أن المواضع التي عينتُها لكثير من الأماكن تختلف عن نظيراتها التي على الخرائط بشكل ملموس ، فموضع شقرا التي سبق لي أن ذكرتها - وهي نموذج لمكان كنت فيه على صلة وثيقة بالخرائط - ينبغي أن يكون بعيداً جداً نحو الشمال عن مسرح بطولات سعادته ، وهذا يختلف عن الرواية التي تضع شقرا في طريقه كعائق لتقدمه نحو درعية وحتى سقوط الرس وعنيزة وغيرهما . ولو كان موقع شقرا عند سفح جبل شمّر ، كما سبق أن وضعها بينكرتون ، لكان على الباشا أن

يزورها عندما قام بحملته إلى ذلك المكان من منطقة الحناكية وقد حدث ذلك قبل معركة جبل مهاوش (مواش Mawuch) . (٤)

يضع السيد بينكرتون المدينة المنورة أبعد إلى الجنوب من وضع أروسميث وليك لها ، كما أن جميع الجغرافيين يختلفون عن بعضهم بعضاً في خطوط العرض بالإضافة إلى خطوط الطول التي يحددونها للأماكن التي يذكرونها داخل هذا الجزء من الجزيرة العربية بشكل خاص .

يدفعني هذا الأمر إلى تصور أن الخرائط قد جمعت وصنفت اعتماداً على روايات البدو وأنه لم يسبق للمواضع الدقيقة لتلك الأماكن أن أكّدت بالمسائل الرياضية الدقيقة ، فهؤلاء البدو تنقصهم خبرات كثيرة في معرفة المواضع النسبية للأماكن وأبعادها ، إذ ليس لديهم مقياس ثابت لحساب المسافات أمثال الميل وغيره ، فطريقتهم المعتادة لتقدير الزمن إنما هي مسيرة اليوم ، حيث يشير بزوغ الشمس إلى الشرق وغروبها يشير إلى الغرب أو إلى اتجاه مكة بينما يكون النجم الشمالي وبعض النجوم الأخرى من معارف العرب الذين يتسمون بنسبة أعلى من الذكاء . لكنهم بشكل عام لا يتحلون بنسبة من الذكاء تعادل ما يشتهر به بعض الهنود . من أجل هذا كله قيدت نفسي في مثالي الحالي الذي ضربته عن شقرا بملاحظاتي الشخصية .

ولا أتوقع وجود الدقة الكاملة عن رحلتي هذه طالما أنها مرت من طريق عبر منطقة لم يسبق أن تعين فيها موضع ولو لبلدة واحدة فيها على وجه الدقة ، وبشكل خاص عندما يؤخذ بعين الاعتبار أنه لا يوجد بين يديّ سوى وسائل محدودة جداً ، هذا بالإضافة إلى حالة الانعزال والوحدة التي كنت أعانيها ولم أكن أتوقعها أبداً .

مذكرات

الرابع عشر من نيسان (أبريل) عام ١٨١٩ :

في صبيحة الرابع عشر من نيسان تلقيت تعليمات للإشراف على هذه المهمة التي تم ترتيبها بأمر من الشريف السيد نيبيان حاكم بومباي وانطلقت على سفينته الحربية ـ ثيتيس ـ بقيادة الكابتن تنّر ، وقد هُيّئ هذا المركب خصيصاً لهذه المهمة . وقد تلقى قائد السفينة تعليمات بالتوجه أولاً نحو مسقط لأتمكن من الاتصال بإمامها ، لذلك هيأنا أنفسنا للإبحار دون أي تأخير ، لكن أملي في إنجاز عبور سريع قد أُحبط بسبب هذا الفصل من السنة الذي جعلنا نضجر من الرحلة من بدايتها .

وعلى الرغم من أن السفينة شراعية بصاريين وتحوي أربع عشرة بندقية فإنها كانت سيئة الترتيب من ناحية بنيتها من أجل الإبحار ، وهي من النوع الصغير جداً ، فلم يبق فيها سوى فراغ صغير من أجل الحقائب والأمتعة . لذلك أذن لي بإرسال الخيام التي صنعت من أجل رحلتي إلى بوشير في مركب لتاجر متوجه إلى نفس المكان ، وهذا بدوره يدل على التوفيق في ترتيب الأمور لأنه لم يكن بإمكان المركب ثيتيس أن يستوعبها ، وقد اضطررنا إلى وضع الهدايا التي كنا مزودين بها على ظهر القارب .

السادس عشر من نيسان (أبريل) :

صادفنا في مساء السادس عشر من نيسان سفينة ـ كونواي ـ الخليجية ،

فدفعتني الرغبة في الحصول على معلومات إلى مرافقة الملازم أول تنر الذي توجه بالسفينة للقيام بزيارة للكابتن برناردو الذي أعلمنا أنه لم تنفذ أية عملية تخريب من قبل الجواسميين في الخليج منذ عدة أشهر ، على الرغم من أن الشكاوى عن أعمالهم الوحشية التي نفذوها في جهات أخرى كانت كثيرة جداً ، وذكر أيضاً أنه صادف يوم أمس زورقاً فارغاً في البحر ، توقع أنه منهوب بأعمال القرصنة ونظراً لكون الدكتور كولكوهاون (المندوب السامي الأخير في البصرة) مسافراً في السفينة فقد ذكرت له الغرض من رحلتي هذه فأعلمني أنه من حوالي ستة أشهر مضت كانت القوافل معتادة على المرور بشكل متواصل بين بصرة والمعسكر التركي ، لكنه حدث مؤخراً أن انقطعت الاتصالات والعلاقات نتيجة لسوء تفاهم حصل بين إبراهيم باشا وبعض القبائل العربية كما أنه بيّن على أية حال أن الاتصال بين بوشير والقطيف كان مفتوحاً على شكله المعتاد ، وأنه لاحظ بأن سلوك هذا الطريق أسهل للوصول إلى الجيش التركي من طريق بصرة . أما بالنسبة للبحرانيين فلم يكن لديه علم عن طُروٌ أي تعديل .

الرابع من أيار (مايو) :

انقطعت رتابة رحلتنا البحرية بعد ظهيرة الرابع من أيار (مايو) باكتشاف بر على مسافة بعيدة ، لكننا لم نستطع أن نميزه بوضوح حتى مساء اليوم الخامس من الشهر ، حيث صار واضحاً بالنسبة للجميع أننا كنا في الخليج . أما ميزان الحرارة الذي لم يرتفع من قبل عن (٨٥°) فهرنهايت (٤٥° مئوية) فقد ارتفع الآن إلى (٩٠°) وبعد قليل صار (٩٢°) ، فلاشك أننا أصبحنا داخل رأس الحد .

السابع من أيار (مايو) :

كنا في صبيحة السابع من أيار في الشمال الغربي من رأس كوريئات حيث

كان الجو شديد الحرارة ، كثيف الرطوبة ، وكانت الرياح خفيفة ومعيقة لسيرنا ، لذلك سار المركب بطيئاً وهو يقترب شيئاً فشيئاً من الجبال المشرفة على مسقط ، وعندما حلّ المساء أتينا على مرسى في الخليج وأرسلنا زورقاً إلى الشاطئ لإعلام الإمام بنبأ وصول الطراد إلى هذه المحطة وعن اعتزام قائده إطلاق النار تحيةً للحصن ، فانتهزت هذه الفرصة وكلفت الملازم الأول نيش الذي انطلق في الزورق بنقل تحياتي لمعاليه . وبينما هو في طريق عودته أطلقت نيران التحية وأجيب عليها بعدد يماثلها من مدافع الحصن الذي اهتز بشكل عنيف من أثر الانفجارات المتعاقبة حتى أن جزءاً من المتراس انفتح وانهال في البحر .

كان اهتمامهم بهذا النمط من مراسم التشريفات مصدر خسارة كبيرة جداً بالنسبة لي ، فقد انكسر ميزان الحرارة الذي كان داخل علبة خشبية مغلفة بالجلد ومعلقاً في الغرفة خلال الرحلة ، وتهشم إلى أجزاء ناعمة جداً ، حتى صار من الصعب فصل الزجاج عن الزئبق الذي تمازج معه في أسفل العلبة ، والحصول على ميزان شبه مستحيل في مسقط ، كما كنت أستبعد إلى حد بعيد إمكانية التزود بميزان في الخليج .

وبما أني سأحتاج إلى أيام عديدة حتى أتمكن من إنجاز هدف زيارتي إلى مسقط ، ولكوني متشوقاً إلى أن أكون في وضع يُمكّنني من الدنو بسهولة إلى أي شخص أستطيع من خلاله اقتباس معلومات . فقد طلبت من الإمام أن يهيئ لي بيتاً على الشاطئ أقيم فيه عدة أيام . وقد كان هذا الإجراء في غاية الأهمية ، لأن التوجه إلى سفينة صغيرة في أوقات غير متوقعة ربما يكون مصدر إزعاج لجميع الأطراف . وعلى الرغم من احتمال كون السكنى على الشاطئ سبباً لنتائج تدعو إلى الاستياء بالنسبة لي شخصياً فإني قد صممت على أن أضحي بمصلحتي الخاصة من أجل البواعث المذكورة آنفاً .

الثامن من أيار (مايو) :

كان من دواعي سروري أني تلقيت زيارة من وزير معاليـه على متن سفينتي صباح الثامن من أيـار ، وقـد تمت الترتيبـات على أن تكون في السـاعـة الحـاديـة عشرة ، حيث سأتمكن من تسليمه رسالة الشريف حـاكم بومبـاي . وعنـدمـا وصل الوزير تبين لي أنـه رجـل يتسم بـالحمـاقـة ويبـدو عليـه النعـاس . وبعـد تبـادل الإطراءات المقيتة المقتضبة ، وفقاً لمراسم التشريفات التي تجري في بلاط معاليـه ، تمّ التعارف بشكل سريع وكان الطلب الوحيد من جانبه ألا أتطرق إلى أية مسألة في المقابلة الأولى .

وصل في الصباح الباكر من هـذا اليوم زورق شراعي وحيـد الصـاري يسمى ـ كيرلو ـ يقوده الكابتن والبول ، مع أنه لم يغادر بومباي إلا بعـد عشرة أيـام من تاريخ انطلاق سفينتنا فقمت بزيارة للكابتن والبول وأنا في طريقي إلى الشاطئ حيث رافقني على متن زورق سفينتنا ومعنـا الملازم الأول تَنَر . وحـالمـا نزلنـا إلى البر استقبلنا الوزير وسار بنا إلى قصر الإمام وقد كان معاليه جالسـاً مع أخيه على شرفـة عنـد نهـايـة قطعـة منبسطـة من البر تحـاذي البحر يستطيع أن يرى منهـا عمليات الشحن التي تجري في الخليج بطريقة تظهر مزاياها .

كانت الغرفـة مكسـوة بـالسجـاد بشكل أنيـق ومفروشــة بـالكراسي ، وكان استقباله أنيساً ، فقد عبر معاليه عن رغباته بدماثةٍ وأنسٍ كبيرين بعد الاطمئنـان عن صحة الجميع ، ثم قدم لنا أخاه (سيد سـالم) والوزير الشيخ علي بن فـازيل ، وأعرب سعادته عن شعوره الصـادق بـالارتيـاح نحو الحلف الودي والتفـاهم الرفيع والمتبادل الذي أنشئ مؤخراً بين الحكومة البريطـانيـة وأسرتـه وتجـاه الـدعم الـذي يتلقاه بشكل مستمر .

وبعد إجابتي على أسئلته التي تتعلق بصحة الشريف حاكم بومباي بدأت أمهد

لتقديم الرسالة التي عُهد بها إليّ ، فإذا بمعاليه يقوم عن كرسيه من أجلها ، ثم استلمها وقد بدت على وجهه جميع مظاهر الرضى .

أما المناقشة التي تلت فكانت من قبيل المجاملة استعلم بها عن النجاحات الأخيرة للقوات المسلحة البريطانية في الهند ، وعبر عن ثقته التامة بنتائج العمليات المقررة في الخليج . وقد أكد على أحد المواضيع بشكل متكرر وهو أن أصدقاء الدولة الواحدة ينبغي أن يكونوا أصدقاء فيما بينهم ، وأن عدو أية منهما لابد أن يعتبر عدواً للأخرى ، وقد كان في هذا الكلام إشارة خفية إلى موضوع لا يزال في طوره الجنيني ، وبما أن الزيارة امتدت أكثر من المعتاد فقد انسحبنا إلى مسكننا المفعم بالدخان والذي عليّ أن أقيم فيه مع جماعتي خلال الفترة التي سأمكثها في مسقط . (٥)

زارني وزير معاليه في المساء وخاض نقاشاً طويلاً يعتبر استهلالاً لمحادثات تتعلق برحلتي إلى درعية وعن تقدم الجيش التركي على ساحل البحر الأحمر ، وكذلك عن اقتراب موعد العمل المعتزم على ساحل الخليج حتى حدود المناطق التي تخضع لسلطان الإمام ، الأمر الذي ينظر إليه الإمام بقسط كبير من اليقظة ولاشك . ولقد احتجت إلى مناظرة طويلة لأستحث الوزير على ألا يغادر البيت إلا وهو في حالة من القناعة الكاملة ؛ ثمّ أظهرت له كل رغبة في أن أفسح للإمام فرصة من الوقت ليتمعن بالرسالة التي قدمتها له للدخول في الترتيبات المناسبة بهدف تجنب العوائق التي قد تنجم عن التأجيل في هذا الفصل المتقدم من السنة ، ولذلك أكدت على رغبتي بزيارة معاليه في اليوم التالي إن أمكن .

التاسع من أيار (مايو) :

توقعت في ضباح اليوم التاسع أن أُدعى لزيارته ، لكن الوزير أتاني وفي جعبته مجموعة من الأخبار تتعلق بسقوط البريمي وتوقع وصول بتال الوهابي وهو

آخر رئيس لتلك المنطقة . وعلى الرغم من أن الأخبار السارة كانت نادراً ماتنتشر في مسقط فإني وجدت نفسي مصغياً لذلك الخبر بشيء من نفاد الصبر ، ولقد أمضيت نهاراً كاملاً وأنا أبحث حتى علمت أن السبب الذي رغّب هذا الشيخ في أن يرمي بنفسه إلى رحمة الإمام إنما هو الخلاف القائم بين بعض زعماء الجواسميين ، إذ هذا أفضل بالنسبة إليه من أن يتنازل عن نفوذه لزعماء الشارقة وعمان الذين يتوقع ، بل ربما يكون على يقين ، أنهم سيفصلون رأسه عن جسده لكي يفسحوا المجال لأحد مواليهم بأن يحل محله .

يوصف حصن بريمي بأنه منيع وذو معقلين حصينين ومحاط بخندق عميق جداً ، وأن المسافة من شقرا والخيمة إلى بريمي تعدل مسير يومين باتجاه الداخل ، وقد حمل هذا القطاع عبء تقديم المساعدات لرأس الخيمة ، وكانت ترسل إليه تعزيزات عسكرية من سلاح الفرسان والجمال من المنطقة المجاورة له عندما كان يتعرض إلى أي تهديد . ولقد أسهب الوزير في وصفه لحالة الحرب التي عانت منها البلاد بهدف أن يضع في ذهني صورة عن شجاعة القوات التي أرسلت ضد بتال الذي كان يتحلى على ما يبدو بدهاء سياسي بالنسبة لمستوى عصره ، وأن ذلك النجاح لا يعود إلى شجاعة جنود معاليه .

تمت المقابلة الثانية في مساء اليوم التاسع ، حيث كان الإمام ووزيره جالسين كعادتهما على الشرفة وقد خيمت على وجهيهما كآبة واضحة فوجدت أنه من الصعب إثارة موضوع أهداف زيارتي لمسقط ، وكان سعادته خلال الجلسة يعبر عما يعتلج في نفسه بغاية العنف كلما مر على لسانه ذكر الباشا ، ولقد فشلت جميع جهودي في أن أنسيه هذا الموضوع بطرق أي موضوع آخر ، فوجدت نفسي مرغماً على أن أناقش الرأي معه بحرارة أشد بكثير مما كنت أتوقع أن يقودني إليه ذلك النقاش . وقد أسهب في حديثه عن عدم إمكانيتي في الوصول إلى درعية أو عودتي منها في الوقت المناسب لإجراء أية ترتيبات يشارك بها الباشا (فيما إذا حالفني

الحظ في الوصول إلى المعسكر) حيث أنه يتمتع بالحرية المطلقة للدخول في وجهة نظرنا دون أخذ رأي باشا مصر . ثم لعن تصرفات الباشا واتهمه بارتكاب أعمال وحشية ضد العرب ، الأمر الذي قد يمنعه من دمج جنوده مع جنود الباشا الأتراك . ونظراً لكوني فسحت لمعاليه فرصة صب جزء من جام غضبه المبجل فقد وجدت نفسي مجبراً على أن أؤكد على نقاط نقاشي حيثما وجدت مجالاً للجواب . وبعد تشاور طويل تمت الموافقة على أنه ما ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن يعمل جنود معاليه جنباً إلى جنب مع الجنود الأتراك ، وهذه في الحقيقة نقطة (مثل غيرها من النقاط التي كانت محل جدال) لا يمكن أن يطالب بها إذا ظهر الجيش التركي على مسرح الأحداث . وكان الاعتراض الرئيسي الذي ساور الإمام يتعلق بالطبع في عملية بدء إدخال الجيش التركي ، لكن نظراً لكونه عاجزاً عن استبداله بقوة تكافئه فإنه لا يمكن قبول هذه الفكرة . ثم إنه بشكل طبيعي حول أفكاره إلى دراسة تشكيل أي عائق أو حصن يحمي من انتهاكات إبراهيم باشا ، وعبَّر عن أمله في أن تكون الحكومة البريطانية مستعدة لدعم قضيته ، وقد طلب مني المرة تلو الأخرى أن أعطيه عهداً من أجل العمل على الوصول إلى هذا الهدف ، فكان جوابي له حاسماً عندما نوهت له بأن التفاهم القائم حتى الآن بين محمد علي باشا والحكومة البريطانية ينبغي أن يعتبر خير عهد يقدم من أجل التفاهم المستقبلي الذي تتوقعه الحكومة البريطانية وتأمل بأن تراه مؤسساً بين إبراهيم باشا ومعاليه ، إذ إنه ليس بإمكاننا أن نعتبر أنَّ إبراهيم باشا قد قام بأية أعمال عدائية ضد معاليه حتى الآن ، وإنه ليْس من اللائق الدخول في معايير تستبق وقوع مثل هذا الحدث الذي لا يتوقع . وبما أن نقاشنا قد أفرط في الطول من غير ضرورة لأننا لم نناقش بعد أية فكرة تشير إلى اكتمال هذه المغامرة الكلامية المملة ، لذلك اضطررت إلى أن أؤكد عليه أن يعلن بكل وضوح عن رغبته وتصميه على دعم آراء الحكومة البريطانية بكل ما لديه من موارد ، لأنه على هذا سيعتمد تحقيق كِلا الأمرين : سلامة مناطق نفوذ معاليه من انتهاكات

الجواسميين ، وتأييدنا إذا ما حدث أي تعديل غير مرغوب فيه أو غير متوقع في الطريق الذي يسلكه إبراهيم باشا ، فرد معاليه على هذه النقطة بتأكيدات رصينة ومهيبة جداً عن اعتزامه مساعدة الحكومة البريطانية في تقليص أعمال قرصنة الجواسميين . ثم أضاف أن الوقت أصبح متأخراً بحيث لا يسمح بالدخول في تفاصيل الترتيبات ، لكنه سيكون في غاية الاستعداد لأن يجيب على أية تساؤلات بصدد قواته والموارد التي يمتلكها شخصياً فيما إذا استطعت أن آتيه في أية ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي . لذلك آن لي أن أنسحب ، وقد أضناني تعب شديد من طول النقاش الذي لم يسفر حتى الآن إلاّ عن اليسير من القناعة .

العاشر من أيار (مايو) :

كان من دواعي سروري في صباح العاشر من أيار أني تلقيت رسالة شفوية من الوزير جواباً على فكرة بحثتها معه ، وأعلمني أن معاليه قد درس ما ناقشناه يوم أمس وأني ربما لاأجد سوى صعوبة بسيطة جداً من أجل الدخول في التنظيمات الضرورية ، لذلك توجهنا إلى قصر معاليه حيث كان جالساً مع أخيه هناك .

كانت أول نقطة درسناها تتعلق بالوضع الراهن لقوة الجواسميين نظراً لتساؤلاتي عن هذا البند بشكل رئيسي ، فشرح لي معاليه عن قواتهم التي كانت تتجه نحو الأفول منذ إسقاط زعماء الوهابيين ، الأمر الذي أدى إلى نزع الثقة بين زعماء الجواسميين أنفسهم ، أو بالأحرى زاد من تصميم كل منهم على انفراد بأن يحاول تطوير كل ما يهمه أمره بشكل خاص على حساب ما يهم جيرانه . وهو يرى أن كون الأوضاع على هذا الحال يبعث على الرضى ، إذ يعني : عدم وجود قائد ذي نفوذ ، وحالة قصورهم وضيقهم منذ إسقاط النفوذ الوهابي ، فكل هذا يمكن أن يولد نزاعات بينهم ، إذ لم ينج من الوهابيين الذين هربوا إلى درعية واندمجوا

مع الجواسميين سوى عدد قليل جداً ، فهؤلاء يقدر عددهم بأكثر من ثلاثمائة .
والتقديرات التالية تبين قوات الجواسميين كاملة ، كما هي عليه الآن ، وقد جمعها معاليه من أوثق مستند على الإطلاق ، وهو يعتبره مرجعاً :

	زوارق كبيرة	زوارق صغيرة	مشاة
[1] ـ المندمجون من بقايا قوة الوهابيين			٣٠٠
١ ـ تحوي بُخا فقط			٢٠
٢ ـ شعم			١٥٠ إلى ٢٠٠
٣ ـ رمس			٢٠٠
٤ ـ رأس الخيمة:	٢٥	٧٥	٣٠٠٠
٥ ـ حمرا : كلهم اندمجوا مع رأس الخيمة.			
٦ ـ أم القيوين	١	٣٠	٤٠٠
٧ ـ عجمان	٤	٣٥	١٠٠٠
٨ ـ فشت مع			
٩ ـ الشارقة	١٢	١٥٠	١٢٨٠
١٠ ـ أبو هايل (مع السابقتين)			
١١ ـ دبي	٤	١٠٠	٨٠٠
المجموع	٤٦	٣٩٠	٧٢٠٠
أبو ظبي ، خيران			
بني ياس	٥	٣٠٠	٣٠٠٠

(١) هناك مبالغة في هذا الجزء من قوة رأس الخيمة في رواية عنها حيث وصلت إلى خمسة عشر ألف رجل . ويبدو أن ليف بن سعدون اصطحب مائتي رجل ، وأحضر وليّه صب عبدول بن مزروع خمسين رجلاً فقط ، وخمسون لابن عبدان ، جاعلاً العدد الإجمالي ٣٠٠/. ولم أسمع أبداً بورود ذكر أية أسماء أخرى . (المؤلف) . (٦)

لكن المرفأ الأخير نادراً ما كان يعتبر مرفأ قرصنة لِكَونه مفصولاً عن رأس الخيمة منذ زمن بعيد .

يوجد إلى الشرق من رأس مسندوم خليج فجيرة الصغير الذي يبدو مركز مراقبة يشرف على هذا الجانب من أجل الزوارق الآتية من فجيرة ودبا والمتجهة إلى داخل الخليج فيستطيع المسافر العربي عن طريق البحر أن يتجاوز جبال رأس الخيمة خلال أربع عشرة ساعة كما يمكن المرور براً عن طريق دُبا وإمرار الخيل ، وحتى المدافع الصغيرة الحجم ، حيث يمكن أن تتم الرحلة خلال يومين .

وإن الترتيبات التي يقوم بها زعيم الشارقة بالإضافة إلى زعيم عجمان ربما تدفعهما إلى أن يبقيا منفصلين عن زعيم رأس الخيمة خلال الخصومات ، لذلك صرح معاليه أنه سيسعى إلى تحقيق هذا الانفصال على الرغم من أنه ينصح الجميع بأن يتلاقوا لمواجهة نفس المصير الذي يحتمل أن تشهده رأس الخيمة .

لذلك اقترحت على معاليه أنه ينبغي علينا أن نضع نصب أعيننا الإجراءات التي يمكن أن تتخذ في العملية الهجومية ، وبعد شيء من الإسهاب في النقاش وافق معاليه على الترتيبات التالية التي طلب مني أن أحولها إلى نص مكتوب ، وأن أنتقل بالتالي إلى المعلومات التي تتعلق بطبيعة ودرجة المساعدات التي بإمكانه أن يتحملها من أجل عملية تدمير موانئ القرصنة .

ينوي معاليه بالنسبة لمنع دخول الجواسيس الهاربين من رأس الخيمة إلى عمان أن يرسل عدداً كافياً من الرجال إلى الممرات الجبلية خلال العمليات الموجهة ضد رأس الخيمة ، هذا في حال عدم الحاجة إلى خدمات هؤلاء الرجال نتيجة لوصول جيش الباشا ، أما إذا لم يصل فإن معاليه سيكون مستعداً لأن يتعاون براً مع قوة تتألف من سبعة آلاف من الجنود المشاة ومائة وثلاثين من الخيالة وألف وخمسمائة

جمل من أجل عبور الممرات التي فوق رأس الخيمة لمحاصرة ذلك المكان ، وإن معاليه بالذات سيرافق الحملة في سفينة حربية ، وسيأخذ معه ألف رجل على الأقل لينزلوا إلى البر ويعملوا مع القوات البريطانية . وسيكون بدهياً أنه إذا ما عملت قوات إبراهيم باشا على البر فإن جميع قوات الإمام ستتقدم عن طريق البحر ، عدا ذلك الجزء من القوات الذي قد يُحتاج من أجل الغرض الذي سبق ذكره ، والذي يهدف إلى حماية الممرات التي تؤدي إلى عمان . وستتخذ ولاشك التدابير الوقائية المسبقة لمنع استخدام الجنود العرب والأتراك منخرطين مع بعضهم ، وأن تبقى معسكراتهم منفصلة عن بعضها في جميع الأوقات . (٧)

وقد بدت المساعدة التي يمكن أن يتحملها معاليه على شكل دعم بالزوارق لتساعد على تفريغ الجنود والأمتعة وغيرها من المعدات . ولسوء الحظ تناقص عدد الزوارق التي تتميز بهذا الوصف عن العدد الذي يُحتاج إليه من أجل هذا الهدف إلى حد كبير خلال هذه السنوات القلائل . وقد ذكر معاليه أنه ليس بمقدوره أن يَعِدَ بتقديم عدد من الزوارق يزيد على السبعين لكن إذا توفرت بعض الإمكانيات ربما زاد العدد إلى المائة ، لدى كل منها إمكانية نقل ما بين ثلاثين وخمسين رجلاً .

أما بصدد الماء وحطب الوقود فقد ذكر معاليه أنه سيؤمن كمية كافية من كل منها على حسابه ، لكن تدبير الماشية والمؤن الضرورية الأخرى التي من هذا القبيل فلابد أنّ تدبيرها سيكون أسهل عن طريق ضابط التموين الإنكليزي ، الذي سيدفع السعر النظامي فقط ، حيث أن معاليه بالذات سيمارس نفوذه لمنع ارتفاع الأسعار .

ثم وافق معاليه على استخدام سفينتين تابعتين له من أجل نقل المؤن ، أو تسهيل أية طريقة أخرى يمكن أن يتأمن من خلالها إنجاز هذا الأمر على أحسن

وجه ، بحيث ينسجم مع رغبات الحكومة البريطانية التي سيوضع تحت تصرفها سفينتان في أي وقت يصرح فيه الشريف الحق ، رئيس المجلس عن رغباته بصدد ذلك الموضوع لمعالي الإمام .

سيستمر معاليه في مراسلة حاكم بومباي لإطلاعه على جميع المواضيع المتعلقة بتقدم عمليات التجهيزات المعدة للحملة ، كما سيقدم جميع المعلومات التي يتمكن من الحصول عليها ويعرف أنها تمس أية تغييرات يمكن أن تطرأ على أعداد قراصنة الجواسميين ، بحيث تكون الحكومة على علم بالوضع الحقيقي لقواتهم في جميع الأوقات .

ختم معاليه كلامه بتأكيد مجمل عن دعمه ومساندته وبيَّن أن أية إجراءات تتخذها الحكومة البريطانية ستلاقي من طرفه أكبر دعم . أي أنه ، بغَض النظر عن الخصوصيات التي عددت هنا ، سيكون مسروراً في تطبيق آراء الحكومة ، حتى أنه سيولي عناية كاملة لأية ترتيبات تدلي بها ولم تكن قد وردت في البنود السابقة .

ومما يبدو واضحاً جداً في ذهن الإمام ما ينتابه من مشاعر الحسد والريبة بسبب تقدم قوات إبراهيم باشا ، وقرب مسرح عملياته من حدود إقليم معاليه ؛ خاصة عندما يتذكر أن تطلعات الباشا نحو فرض سيطرته على البحرين قد أصبحت أمراً شائعاً على ألسنة العامة ، وأنَّ الباشا لم يردَّ على استفسارات الإمام بصدد هذا الموضوع بما يبعث على الاطمئنان . لذلك كان يبدو على الإمام منذ اللحظة الأولى أنه يفكر في إقناعي بالإقلاع عن فكرة متابعة مسيري إلى درعية ، طارقاً أولاً موضوع بُعْد المسافات والتأخير الذي سينجم عنها ، وثانياً احتمال إمكانية إسقاط الجواسميين دون مساعدة الباشا . ونظراً لأني لم أؤيد هذه النقطة فقد حاول بالتالي أن يحصل مني على ميثاق بالنيابة عن الحكومة البريطانية ،

لكن جوابي كان حاسماً بالنسبة لهذه النقطة ، فما كان مني إلاّ أن كررت تلك الفقرة من رسالة الشريف رئيس المجلس عن أنه لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أتجاوز حدود التأكيدات المنقولة إليه في ذلك الخطاب .

كما أني لا أتصور من خلال المعلومات التي جمعتها هنا من مصادر أخرى أن الإمام قد بخس في تقدير قوات الجواسميين ، ولا أستطيع أن أعرف عن طريق أي مستند موثوق كنت أعتبره معتمداً أن عرب الداخل سيتقدمون لمساعدة جواسمي رأس الخيمة . فإذا افترضنا أن لديهم ميلاً إلى مشاركة أصحابهم السابقين فإن عدد الرجال الذين يمكنهم أن يحضروا إلى الساحة لن يتجاوز ثلاثة آلاف . وإذا كان بالإمكان الاعتماد على الزعيم البُريمي وأصحابه ، فإن ذلك العدد بالذات سيتناقص إلى حد كبير . يبدو من الناحية الأخرى أن قوات الإمام تصل إلى عشرين ألفاً من الجنود المشاة ، توزع في جميع القرى وعلى طول ساحل عمان ، لكن مع اعتبار أن كل عربي يعتبر جندياً ، وهو مسلح ، لذلك لا يتوقع أن هذا الجيش يكون جاهزاً عند الحاجة . ومن الممكن جمع عشرة آلاف من المشاة العشرين ألفاً في لحظة واحدة ، ومن سلاح الفرسان مالا يزيد عما بين مائة وثلاثين ومائة وخمسين .

والآن وقد ختمنا جميع المشاورات بالنسبة لموضوع التجهيزات ، وكذلك المساعدات التي يستطيع معاليه أن يرسلها مشياً على الأقدام فقد توقعت أني سأتمكن من مغادرة مسقط في غضون بضعة أيام ، لكن حادثاً كئيباً يتعلق بوفاة أحد أقارب أسرة معاليه جعل تأجيل رحيلي عدة أيام أُخر أمراً لا مفر منه ، ذلك لكي أفسح المجال لمعاليه لتحضير رسالته الجوابية للشريف حاكم بومباي . وبما أن الاعتراض الرئيسي الذي ظهر خلال جدول أعمالنا والذي يتعلق بموضوع الباشا كان حساساً إلى درجة أنه صار من المستحيل إدخاله في وثيقة عامة يتبناها

الإمام ، فقد صار من الضروري الدخول في بعض الترتيبات التي يمكن أن توثق التأكيدات التي أدلى بها معاليه إليّ دون إدخال اسم الطرف الثالث . لذلك دونت مارسخ في ذهني من تلك التأكيدات ، ومن تلك الخصوصيات المنبثقة عنها ، والتي أكدها معاليه ، وصرح ـ أنه سيشير في رسالته إلى المعلومات التي فوضني بأن أصيغها ، ويوثق هذه الوعود بالتنويه إلى أنها مذكورة بالشكل الصحيح ـ وأن فحوى التعليمات التي وجهت إليّ وفحوى الرسالة التي وجهت إلى الإمام لم يفوضاني إلى أن أحتاج إلى جواب انتقادي ورسمي أكثر مما يحويه المرسال الذي عُهد به إليّ من أجل مفاوضاتي .

أرسلت بعد ذلك رسالة[1] إلى الشريف السيد إيفان نيبيان بارت ، رئيس المجلس في بومباي ، فصّلت له فيها جميع النقاط السابقة .

وفي الثالث عشر من أيار (مايو) أعلن الملازم أول تنر بشكل رسمي أن على السفينة ـ ثيتيس ـ أن تكون في حالة استعداد للبدء في متابعة القسم التالي من رحلتها . ونظراً لاحتياجه إلى جواب رسمي فقد وجهت إليه رسالة على الرغم من أنها في الحقيقة لم تكن ضرورية لأن موضوع المباحثات قد أُشبع مناقشة . وكان من البدهيّ أني لن أستطيع أن أسلك سوى طريق القطيف مع العلم أنه لا يمكن دخول هذا الميناء بمركب شراعي عريض دون انتباه مسبق إلى اقتناء بَحّار من أهل المنطقة ، ويفضل أن يدبر مثل هذا الرجل من بوشير ، وهو المكان الذي أُرسلت إليه معدات خيامنا ، لذا لم أتردد في قراري بالتوجه إلى بوشير حيث بإمكاني أن أحصل على جميع المعلومات الضرورية المتعلقة بموقع معسكر الباشا . وكانت مغادرتي معتمدة على رغبة وسرور الإمام الذي كنت أنتظر جوابه .

---

(١) وصلت هذه الرسالة إلى بومباي في أيار (مايو) من عام ١٨١٩ ، ووجهت نسخة إلى كلكوتا . المؤلف .

ثم إني استفدت بُعيد الظهر من الفراغ الذي كان لديَّ للقيام بزيارة للسيد سالم ، شقيق معالي الإمام ، الذي استقبلني بغاية الأدب والحفاوة والتقدير ، وقد اعتبر أنه من الضروري أن يعلمني بأنه كان مسافراً وأنه قضى بضعة أشهر في شيراز ، لذلك قدم فواكه وشرابات على العادة الفارسية . لكن تحريم التدخين على مشايخ وزعماء القبائل والطوائف جعل مراسم التشريفات في الزيارة الفارسية غير متناسقة ، ثم لاحظت إغلاق أبواب القاعة عند تقديم المشروبات المنعشة حيث لاحظت إشارات واضحة توحي بالرغبة في إضفاء السرية التامة على هذا الأمر الذي جعلني أعتقد أن (سيد سالم) لم يكن يرغب في أن يجاهر بأنه يأكل مع كافر على المائدة نفسها . فوضعت الفواكه على طاولة ، ولم ألاحظ أبداً أن أي شخص من المجموعة كان يبدي ترفعاً أو يظهر عليه وسواس من تناوله من صحني نفسه أو من استعمال الآنية نفسها التي سبق لي أن أكلت منها . وفي طريق عودتي من هذه الزيارة مررت بالوزير الذي قدم لي القهوة ، وحتى هنا لا يشكل التدخين جزءاً من مراسيم الزيارة ، حيث تمت ممارسة قواعد التشريفات بين العرب بجفاء أكثر مما كانت عليه بين الفرس بشكل عام .

وبعد ظهيرة الرابع عشر صرح لي معاليه عن رغبته في تشريفي بزيارة رسمية ، وعلى الرغم من أن مسكني المفعم بالدخان لم يكن لائقاً لاستقبال معاليه فإني أجبرت على أن أتقبل إشارة التعاطف هذه في أفضل شقة ، لكنها كانت متداعية ومليئة بالسخام . كان أسلوب الإمام خلال الزيارة متواضعاً وتصرفه مَرِحاً ومجامِلاً ، فقد بدا متحلياً بمزاج طيب مع شيء من الحزم ، ونادراً ما تبدو عليه الشراسة ، باستثناء التوتر المعتاد الذي يتعلق بأمور العمل والذي كان يتعرض إليه بشكل متكرر لأنه معتاد على معالجة الأمور بنفسه حتى التافهة منها . لكنه يبدو في هذه الجلسة في راحته الكاملة التي كنت أحرص على عدم قطعها بِطرْقِ مواضيع عمل ، أو على الأقل بالتعبير عن قلقي بصدد التأخير الذي أجبرت على تحمله . وقد أعرب معاليه أثناء انصرافه عن أسفه تجاه تَرَدّي أسباب

الراحة والتسلية التي هيأتها لي مسقط ، ووعدني بأن يسمح لي بالرحيل يوم الأحد القادم إذا كان بالإمكان . كان هذا الأمر ساراً بالنسبة لي لأن خدمي كانوا يعانون من انحراف شديد في صحتهم ناتج عن عدم ملائمة المناخ لطبيعة أجسامهم ، بالإضافة إلى الإزعاجات التي تعرضوا إليها ، لذلك أرسلت أولئك المصابين بالحمى إلى السفينة وهيأت نفسي للصعود إليها في اليوم التالي .

الخامس عشر من أيار (مايو) :

هيأ لي وصول سفينة (إيدت) صباح الخامس عشر التي يقودها (الكابتن لوك) فرصة الاتصال بذلك الضابط . ونظراً لأنه سمع بعض التقارير التي كانت شائعة بين الناس في (بوشير) عن إعاقة البدو لأموال إبراهيم باشا بالإضافة إلى القوات التي تقوم بحمايته ، ولتوقع نجاح الكتائب البحرية التي أرسلت لملاحقتهم في القضاء عليهم ، فقد وجدت أنه من الحكمة بالنسبة لي ألاّ أرافق الكابتن لوك في زيارته للإمام الذي كان ممسكاً عن الإدلاء بأية تعليقات ذات صلة بموضوع مهمتي إلى مسقط .

ولقد سررت كثيراً عندما استشرت الكابتن لوك في موضوع ملائمة توجُّهي إلى (بوشير) في أقرب فرصة ممكنة ، ووجدت أن رأيه يؤيد قراري الذي اتخذته في الثالث عشر من الشهر الحالي .

أعلمني (سكرتير) معاليه أن الرسائل ستكون جاهزة بعد الظهر ، فقمت بزيارة وداع لمعاليه في المساء حيث سلمني رسالتين وضعت إحداهما في حقيبة مغلقة لائقة بها ومناسبة لقواعد التشريف ، أما الثانية فكانت مفتوحة لأنها كانت تعتبر كوثيقة تخولني مشروعية متابعة رحلتي داخل مسقط . وفي هذه المناسبة كرر معاليه تأكيده على دعمه ومساندته ، فانتهزت هذه الفرصة وطرقت الموضوع الذي كنت أتصور أنه يمكن أن يهون الطريق أمام إعطاء الميثاق صورته

الكاملة ، وهو تشكيل محطة للجنود في إحدى الجزر التي يعتبر موقعها حساساً لانطلاق جنود جميع الأطراف منها للتوجه إلى نقطة الهجوم ، فأكد لي معاليه أن مثل هذا الإجراء سينال استحسانه حتى أنه سيزيد دعمه لهذا الامتياز الذي سيمنحه للحكومة البريطانية بجعل هذه المحطة تشمل أية مجموعة من الجنود المساهمين في الحملة والذين يفضل استبقاؤهم في الخليج بسبب الظروف التي يمكن أن تطرأ من الآن فصاعداً .

فسحت المحاورة السابقة المجال أمام مناقشة مسألة الولاية القانونية أو الحق الذي يمكن أن تُحدد الأراضي أو الأقاليم اعتماداً عليه بحيث تعتبر ذات استقلال متوارث أو وُلاية إقطاعية تابعة لسلطان دون آخر بحدود معينة ، وقد انتهينا إلى اعتماد الخواتيم التالية بصدد الموضوع .

نظف سيد سلطان جزيرة قشم من قبيلة ابن مهيني في ظل حكومة مُلا حسن وعهد الآغا (محمد خان قد جار) ، وقد نزل على الإمام الحالي حاملاً شعار حقه في غزو هذه الأراضي التي يمد معاليه حمايته عليها ، مع العلم أنه لا يرتد أي جزء من الريع العام لجزيرة قشم إلى أي عاهل آخر في الوقت الحاضر ، ولم يرتد كذلك أو يدفع أي جزء من الريع العام إلى أي متنفذ آخر خلال عهد سيد سلطان ، ومنذ ذلك العهد حتى الآن .

تمت السيطرة على ـ غومبروم ميانا وخمير ـ استناداً إلى قرار من ملك الفرس الحالي من أجل دفع المبلغ السنوي الذي يبلغ ثلاثة آلاف تيومة ، وعندما ظهرت لدى وزير المالية رغبة في زيادة الريع الداخل على الملك طلب من الإمام أن يزيد ألفاً آخر معلناً أنه (إذا لم يُعطِ إمام مسقط هذا المبلغ فإنه سيضطر إلى استخدام القوة) . أما قشم فلم تُطالَب بشيء ، ولم يظهر كذلك اسم هذا المكان في ذلك القرار .

صعدت متن سفينتي(ثيتيس) بعد ظهر الخامس عشر من أيار (مايو) وفي ظهيرة اليوم التالي زارني وزير معاليه وبرفقته تاجر للسلع القديمة ليقدم لي ثلاثة شالات من صناعة ترمه ذاكراً لي أن معاليه يطلب مني أن أقبلها مع أعمق أمنياته لي بنجاح رحلتي ، ومؤكداً أنه سيكون في غاية السعادة إذا ماتمكن من رؤيتي في طريق العودة . فقبلت هذه الهدية ورددت له بالمقابل رسالة مجاملة وإطراء متمنياً لمعاليه كل نجاح خلال مااعتزمه من تطواف في بارجته الحربية بحثاً عن السفن العدوة . وقدمت أُعْطية مناسبة للخدم الذين كانوا يحملون الشالات التي ألحقتها بالهدايا العامة المختزنة .

انتقلت إلى سفينة ميركوري كإجراء ينسجم مع اتفاق جديد أجريته مع الكابتن لوك الذي أبحر باتجاه بومباي عند المغيب ، بينما أبحر معالي الإمام ببارجته الجديدة ليطوف حول رأس الجبل بحثاً عن السفن العدوة . ولقد أجبرت على البقاء في خليج مسقط كسجين مكره حتى صباح اليوم الثامن عشر عندما أصبحت السفينة ميركوري جاهزة للشروع في مواصلة رحلتها إلى بوشير بينما أُنهِيَت مهمة السفينتين ثيتيس وتيماوث نتيجة للتقارير المخيفة التي تحدثت عن مهاجمة قراصنة رأس الحد لزورق شراعي عريض جداً .

أرسلت الرسالة التالية :

« إلى الشريف السيد (إيفان نيبيان ، بارت) رئيس المجلس ، بومباي .

سيدي الشريف بحق :

لي الشرف أن أُطلع مجلسكم الموقر على مقابلة جرت بعدما ختمت آخر رسالة وجهتها إليكم ، حيث استطعت أن أنتهز فرصة سنحت لي خلال النقاش لأحصل على أقصى التأكيدات من معالي الإمام على إقراره لأية مجموعة من الجنود المستخدمة من أجل الحملة المزمعة بالنزول في أي جزء من الجزر والأقاليم التي

تخضع لسيادته . وإني لسعيد بإعلام مجلسكم الموقر أن مثل هذا الإجراء سيلقى استحسان وتأييد الإمام الذي أعلمني أنه يشعر بالسرور في منح مثل هذا الامتياز لأية مجموعة من الجند التي ستشارك في الحملة التي ربما نرى في المستقبل أن من الحكمة الاحتفاظ بها في الخليج نتيجة للظروف التي يمكن أن تطرأ من الآن فصاعداً . لذلك أرجو أن يدرس مجلسكم الموقر هذا العرض بالسرعة الممكنة من أجل اختيار مكان مرغوب واستراتيجي في خليج مسقط .

فسحت المحاورة السابقة المجال أمام مناقشة الولاية القانونية أو الحق الذي يمكن أن تحدد الأراضي والأقاليم اعتماداً عليه بحيث تعتبر ذات استقلال متوارث أو ولاية إقطاعية تابعة لسلطان دون آخر بحدود معينة ، وقد انتهينا إلى اعتماد الخواتيم التالية بصدد الموضوع :

نظف سيد سلطان جزيرة قشم من قبيلة ابن مهيني في ظل حكومة ملا حسن وعهد الآغا محمد خان قد جار ، وقد نزل على الإمام الحالي حاملاً شعار حقه في غزو هذه الأراضي التي يمد معاليه حمايته عليها . مع العلم أنه لا يرتد أي جزء من الريع العام لجزيرة قشم إلى أي عاهل آخر في الوقت الحاضر . ولم يرتد كذلك أو يدفع أي جزء منه إلى أي متنفذ آخر خلال عهد سيد سلطان ، ومنذ ذلك العهد حتى الآن .

تعتبر ولاية غومبروم وخمير ولاية خاضعة ومضمومة بشكل شرعي لسلطان ملك فارس استناداً إلى قرار صدر عن الملك ، حيث يحوّل مبلغ ثلاثة آلاف تيومة إلى جلالته سنوياً وعندما ظهرت لدى وزير المالية رغبة في زيادة الريع الداخل على الملك طلب من الإمام أن يزيد ألفاً آخر معلناً أنه إذا لم يُعْطِ إمام مسقط هذا المبلغ فإنه سيضطر إلى استخدام القوة . أما قشم فلم تطالب بشيء ، ولم يظهر كذلك اسم هذا المكان في ذلك القرار .

يسرني أن أطلع مجلسكم الموقر أن العلاقات التي تم تبادلها بين فجيرة ورأس الخيمة قد أصبحت مهلهلة في الآونة الأخيرة ، أي منذ سقوط بُرَيْمي ، الأمر الذي أسفر عن إخراج الجواسميين من ميناء فجيرة . وإني أنصح في أن يحتل هذا المكان وتقام فيه حامية نظراً لكونه البقعة الوحيدة من هذا الرأس التي يمكن أن تهيئ مَكْمَناً وجُحْراً لأولئك البائسين .

ولقد وضعت بين يدي الكابتن لوك قائد سلاح البحرية في الخليج نسخة عن إنجازاتي ، وعن جميع المعلومات الأخرى التي كُتب لعيني أن تطلع عليها منذ وصولي إلى هذا المكان بشكل ينسجم مع التعليمات التي أسير على ضوئها . وعندها تبين للكابتن لوك أنه صار من الضروري بالنسبة لي أن أنتقل إلى السفينة ميركوري تعزيزاً للمصلحة العامة ، وإذعاناً لرأيه صعدت متن هذا المركب ، وإن هذا الترتيب ليبشر بسرعة الوصول إلى بوشير وإني لأشعر بأني سجين فضل ضابط البحرية هذا خلال إقامته في هذا الميناء نتيجة لسهولة الاتصالات التي شرفني بها » .

« لي الشرف أن أكون ... »

« خليج مسقط ، سفينة ميركوري

١٧ أيار (مايو) ١٨١٩ »

السابع من حزيران (يونيو) :

كانت رحلتنا في البحر مضنية جداً حتى في هذا الفصل من السنة ، فقد صادفنا ريحاً هوجاء من جهة الشمال الغربي جعلت البحر أمامنا ثقيلاً جداً ، ولم نتخط المنطقة الإبشق الأنفس حيث وصلنا إلى الطرق المؤدية إلى بوشير بعد ظهر السابع من حزيران . ولقد كنت في غاية الشوق إلى أن أسرع في سفري ، لذلك نزلت إلى البر فوراً وأعطيت السفينة حرية التوجه إلى حلّيلة لتكمل مخزونها من الماء ، حيث لم يبق لدينا منه سوى ما يكفي يوماً واحداً فقط .

أرسلت الرسالة التالية :

« إلى الشريف السيد (إيفان نيبيان ، بارت) رئيس المجلس ، بومباي .

سيدي ، لي الشرف أن أخبركم بنبأ وصولي إلى بوشير بعد ظهيرة اليوم السابع من حزيران (يونيو) ، ولأعلم الشريف بحق أن إقامتي في هذا المكان لن تزيد عن الوقت الذي سأضطر إليه من أجل تجهيز السفينة بعد رحلة شاقة جداً بسبب غلبة الرياح الشمالية الغربية الهائجة في الخليج في هذا الفصل من السنة ، ولقد علمت من لحظة وصولي أن سعادة إبراهيم باشا ينوي أداء فريضة الحج في مكة بعد شهر رمضان مباشرة . وأنه يُتوقع أن يعود إلى مصر من هناك ، وقد عيَّن ضابطاً أوكل إليه القيام بإدارة الأعمال الحكومية خلال غيابه . وإني أرى الآن أن وصولي قبل هذا التوقيت وهذا التحول كان أمراً في غاية الأهمية ، وعلى الرغم من أن الفصل الحالي من السنة يسبب مصاعب كثيرة فإني مع ذلك واثق من قدرتي على إتمام هذا الجزء من المهمة الموكلة إليّ . وبما أننا كنا متردّدين في كون أي المرفأين أنسب للرّسوّ ، مرفأ العجير أم مرفأ القطيف فقد أشرنا على الكابتن والبول أن يتخذ القرار المناسب .

أُرغم سعادته مؤخراً على القيام برحلة من درعية لملاحقة بعض قبائل البدو الذين وصلت بهم الجرأة إلى مهاجمة القوة العسكرية المرافقة للتموين المنقول . وإن إنقاذ المؤن المُعاقة قد فسح له فرصة طيبة لتوجيه درس تأديبي للمجرمين يَفي بالغرض بحيث يؤمل من جرائه منع حصول مثل هذه الإهانات ، على الرغم من أنه يستبعد أن يكون جيشه خالياً تماماً من أمثال هذه الإزعاجات وهو في وضعه الحالي ، ولأنه لم يمض بعدُ وقت كافٍ من أجل تأمين الهدوء والاستقرار لهذه المقاطعات التي حيزت مؤخراً ، وسيفسح تكرار مثل هذه المحاولات الجريئة المجال أمام إزعاجات أكثر وأكثر ، كما سيمنع الباشا من ناحية أخرى من الدخول معنا في مخططاتنا لأنه سيضطر إلى استخدام قسم كبير من جنده للقيام بالمهمة المرهقة

المتعلقة بملاحقة البدو الذين يلوذون بالصحراء مع الغنائم التي نهبوها والتي لا يبلغ أمل إنقاذها من بين أيديهم ثانية نسبة الواحد إلى عشرة .

شَوَّشت ثورات الكثير من قبائل البدو أفكار إبراهيم باشا إلى حد كبير ، ولابد أنها تعيق تحركاته ، لكني سررت عندما علمت أن أسباب هذه الثورات لم تُعْزَ إلى أيّ سيما قسوة أو وحشية من قبل الباشا . بل على العكس من ذلك فقد اتبع سياسة حكيمة في التلاحم مع القبيلة الرئيسية في المنطقة ، وهي قبيلة بني خالد ، فانقلبت فوائدها إليه . وكان الوهابيون قد أُعفَوا رئيسها الشيخ عريعر بن سعدون من منصبه ، لكن المتحدرين عن هذه القبيلة عادوا للتمركز في أملاك أسرهم بزعامة محمد بن عريعر وماجد بن عريعر ورُدَّت إليهم أملاكهم وثروات آبائهم . ولقد سبَّب تذكر هذه القبيلة للإهانات التي تعرضوا لها من قبل الوهابيين بالإضافة إلى اختلافهم في المذهب معهم أنهم تصوروا أفرادها كأحقد وأشرس عدو ، يضاف إليهم جميع الذين كانوا موالين لسعود . ويتمركز ماجد بن عريعر في الأحساء ، ويقيم أخوه إلى جواره مع قبيلته البدوية ، وربما لهذا السبب يُعزى الهدوء الحالي في هذه المنطقة التي تحميها قوة صغيرة من الأتراك لا يتجاوز عددها الخمسمائة رجل .

وبما أن إعلام الحكومة عن طبيعة استقبالي في المعسكر التركي سيكون أمراً بالغ الأهمية بلاشك ، وكذلك إطلاعها على الوسائل التي في حوزة الباشا من أجل المضيّ في العمليات الموحدة ، فإني قد صممت على أن آخذ معي زورقاً سريعاً من أجل إرسال معلومات عن هذا الموضوع في أبكر وقت ممكن . ونظراً لعدم تمكني في الوقت الحاضر من التنبؤ عن التاريخ المحتمل لعودتي إلى مقر الرئاسة ، إذ إن ظرف عودتي لابد أن يعتمد على أحداث كثيرة خارجة عن إرادتي ، فإني أرى أنه من الأفضل أن أقوم بكل ما بوسعي من أجل أن أمكن الحكومة من دراسة إمكانية ما إذا كان سعادته يوافق على التعاون في أقرب وقت ممكن ، كما يتوقع مني

الشريف بحق حاكم بومباي ، وكذلك الاحتلال الذي أعاني منه شخصياً شكوكاً كثيرة ، إذ يبدو أن سعادته نادراً ما يوافق على الدخول في مثل هذا العهد دون تعاون مع سلطة ذات نفوذ أعلى . وإن رغبة شديدة تحثني على كشف حقيقة هامة وهي أن الحكومة التركية في الوقت الحاضر شبه عاجزة عن تسيير أمور الإقليم الذي احتلته مؤخراً لذلك ربما لا يتمكنون من تعهد أية عمليات يحتمل أن تحتاج إلى سحب قسم كبير من الجند مسافة بعيدة جداً ، كالذي تحتاجه مثل هذه المغامرة .

ونظراً لأن الكابتن بروس قد سنحت له فرصة إرسال رسالة إلى حاكم بومباي عن الموانئ التي على الساحل الفارسي والتي يتلقى منها قراصنة رأس الخيمة دعمهم ، فإني لاأرى أن هناك ضرورة بالنسبة لي أن أدخل في تفصيل هذه النقطة التي تفضي إلى نتيجة ختامية واحدة وهي أنهم قد اعتبروا أنفسهم جسداً واحداً مع قراصنة رأس الخيمة وجاهروا بعداوتهم للحكومة البريطانية » .

« لي الشرف أن أكون ... »

(بوشير ، ١٩ نيسان ١٨١٩)

وأرسلت الرسالة التالية :

« إلى الشريف السيد (نيبيان ، بارت) ، رئيس المجلس ، بومباي .

سيدي الشريف :

لي الشرف أن أعلم مجلسكم الموقر أنه نتيجة للصعوبات التي أتوقع أن أواجهها إذا دفعت التكاليف الباهظة ثمناً للذخيرة التي سأحتاجها من أجل مواصلة رحلتي عبر الجزيرة العربية فإني قد اضطررت إلى أن أسحب مبلغاً كبيراً من الكابتن بروس الذي يقطن في بوشير بالعملات التي لها الأولوية في التداول هنا ، كما أفكر في إيداع مبلغ مماثل في الأحساء عن طريق أوثق موظف يمكن أن أختاره .

ولي الشرف أن أعلمكم أني قد قدمت كمية من الأسلحة على حساب مجلسكم الموقر لصالح الكابتن بروس لكي أعوض مبلغ الثلاثة عشر ألف روبية لمواجهة نفقات مهمتي ، وإني لأجد نفسي مضطراً الآن لأن أطلب من مجلسكم الموقر أن يحول مبلغاً مساوياً لهذا الدَّين » .

(لي الشرف أن أكون ...)

بوشير ١٦ حزيران ١٨١٩ .

السادس عشر من حزيران (يونيو) :

لدى وصول المركب إلى مكان تعبئة الماء حصل حادث سيئ ، فقد هبت رياح شمالية غربية هائجة للمرة الثانية فَتَفَلَّت المركب من مرساتيه ، مما أجْبرنا على الدخول إلى بوشير بغرض الحصول على زوارق تساعدنا في حملها ، ومع أني لم أحتج إلى زمن طويل للتجهيز فقد احتُجزت حتى الظهر ، حيث صعدت متن السفينة الحربية فيستال .

عُينت فيستال لتحل محل ميركوري على الساحل العربي ، لذلك زدت في سرعتي لكي أتجنب زيادة العوائق ، فأبحرنا من طريق بوشير بعد ظهيرة السادس عشر من حزيران ونزلنا البر على الساحل العربي في ظهيرة الثامن عشر منه متوقعين مواجهة شيء من الصعوبة عند دخول مرفأ القطيف . لكن خيبة أملنا كانت عظيمة عندما اكتشفنا أن القبطان الأحمق المنن كان يجهل منطقة المرفأ جهلاً تاماً ، فتوقفنا فجأة والأشرعة لاتزال منشورة عند حافة ضفة رملية حيث أمضينا الليل عاجزين عن أن ننتقي موقعاً خيراً من موقعنا الذي سكنت سفينتنا عنده ، فأرسلت رسالة مع الشيخ خميس إلى الحاكم التركي في القطيف أطلب منه فيها قبطاناً ليأخذنا إلى العجير ، وهو المكان الذي نصحوني بالتوجه

إليه لكونه أقرب ما يكون من الأحساء كما يعتبر أفضل نقطة من أجل الاتصال . ولهذا الغرض استأجرت زورقاً سريعاً من بوشير ليرافق السفينة الحربية لتكون جميع تسهيلات الاتصال متوفرة لدي . وقد عرض هذا الشيخ خدماته كدليل لأنه سبق له أن سكن فترة طويلة على هذا الجانب من الخليج وقام برحلتين إلى درعية ، ففكرت أنه من الحكمة أن يكون معي شخص معروف بذاته لدى مشايخ البدو ، كهذا الشيخ .

لم يعد الشيخ في صباح اليوم التالي كما كنت أتصور بسبب عدم تمكنه من تدبير قبطان ، فقد بذل كل ما لديه من جهد لاكتشاف قناةٍ في أعلى الجانب الجنوبي من الخليج ، لكن دون جدوى ، وبعد ظهيرة اليوم التاسع عشر أرسل (رحمة بن جابر) زورقاً ليهنئنا بالوصول . ولقد كنت متشوقاً لاكتشاف مكان تَرَدُّدِ هذا الزورق الأجنبي الذي كان في الطرف الجنوبي من الخليج ، فلم أفلح في ذلك إلا قبل ساعات قليلة من وصول زورقه إلى فيستال وعاد الرجل الذي أرسله رحمة بن جابر بعد أن وعد بأن قبطاناً سيرسل بالقارب الذي أرسلته ، وأنه لن يكون هنالك أي تأخير . وقد أنجز الشيخ رحمة وعده بالفعل فأرسل قارباً عليه قبطانان ماهران فقادا المركب مع المد الصباحي للبحر عبر قناة مُعَدَّةٍ للسفن ، لكنها على الجانب الشمالي ، حيث توجد قناة جميلة عميقة تمتد إلى جوار أرض رملية صغيرة وضيقة موازية لها ينشأ عنها هذا الطرف من الخليج الصغير ، أو تشكل حاجزاً يفصله عن المحيط . وقد رسونا في هذا المكان بعد ظهيرة العشرين من حزيران (يونيو) بعد أن خسرنا يومين كاملين نتيجة لجهل قبطان بوشير الذي لا يستحق بكل تأكيد أيَّ وزن من الثقة . أما بالنسبة لتساؤلنا عن ميناء عجير فقد أخبرنا الشيخ رحمة أنه ربما يستحيل الاقتراب منه بمركب كبير ، أما المركب الصغير فربما يتمكن من الوقوف على مسافة معقولة منه ، لكنه لم يأخذ على عاتقه حمل مسؤولية المسير حول البحرين إلاّ خلال النهار لأن الممر معقد

وصخري ، كما أن الشيخ خميس أدلى بنفس المعلومات عندما عاد من القطيف . أما الحاكم التركي فقد أصرَّ في إرشاده لنا على أن نتقدم عن طريق القطيف فقررت أن أقلع عن فكرة الوصول إلى (عجير) بالمسير حول الضفة الجنوبية للبحرين التي ربما تحتاج إلى يومين . لذلك نزلت إلى البر في صباح يوم الإثنين الحادي والعشرين من حزيران عند قرية سيهات الواقعة على الجانب الجنوبي من الخليج ، وعلى بعد ثلاثة أميال عن القطيف تقريباً . وقد أرسل خليل أغا جندياً تركياً ذكياً اسمه يوسف آغا ، كان موظفاً في جباية ضرائب الجمارك ، ويعتبر تالياً له في الشرف والمنصب ، وذلك ليرافقني من السفينة . وقد ابتعد بي إلى بقعة متطرفة من أجل سكني بسبب ما ذكر من أن البلدة أو المدينة كانت غير صحية أبداً إلى درجة أن اتخاذ سكن لي فيها يعتبر ضرباً من ضروب المخاطرة ، ولو لَيْلَةً واحدة . وقد كانت المسافة بين مكان الرسو ومكان النزول بالقرب من القرية تصل بالتأكيد إلى اثني عشر ميلاً ، وقد كانت المنطقة التي نزلنا فيها ، بالإضافة إلى طول شاطئ الخليج بكامله رقيقة الماء إلى حد كبير حتى أن الجمال والخيل تستعمل لنقل الأشخاص من الزوارق ، وقد نُقلت جميع أمتعتنا وتجهيزاتنا بواسطة جمال أو حمير .

الحادي والعشرون من حزيران (يونيو) -

وصلتني أخبار بعد ظهيرة هذا اليوم تتوقع أني قد أتشرف بتلقي زيارة من قبل خليل آغا وقد جعلني دُويُّ بعض المدافع أعتقد بأنه على وشك أن يغادر حصن القطيف ، لكني عرفت عندما وصلني عربي يحمل رسالة من الآغا أن طلقات المدافع إنما قُصد بها الردُّ على التحية التي أطلقتها فيستال في الصباح ، وأن صحة الآغا لا تسمح له بالقيام بزيارة هذا المساء ، وأنه سيكون سعيداً في قيامه بهذه الزيارة في صباح اليوم التالي ، كما طلب منا إرسال الطبيب الذي على متن سفينتنا لعله يتقدم إليه بنصيحة طبية . وقد تم تنفيذ هذا الطلب بإرسال زورق لنقل الطبيب إلى الشاطئ .

الثاني والعشرون من حزيران (يونيو) :

لم يشرفنا خليل آغا بزيارته في صباح اليوم التالي ، الثاني والعشرين ، فأسرعت لزيارته بزورقي الصغير (ميرزا) لأني كنت قلقاً ومتلهفاً للسؤال عن صحته . وخلال وجودي عنده كان يعوده مشرف آل عريعر ، وهو ابن شقيق محمد بن عريعر زعيم قبيلة بني خالد ، وقد جرى هذا اللقاء بشيء من الحدة لما أذاعه العرب بين عموم الناس من أن التركي الذي نُصّب هنا من قبل محمد آغا قاشف (الحاكم التركي للأحساء) احتفظ بالسلطة لنفسه خلافاً لأوامر الباشا ، وأنه أبقى الأوامر التي وجهت إليه شخصياً طيَّ الكتمان ، وهي تنص على تسليم السلطة لمشرف . ثم إن التركي ردَّ على التهمة ورفض الإذعان لطلبات مشرف وأمره بأن يكتب إلى عمه يطلب منه جمالاً وخيلاً وتوابعها ، بالإضافة إلى حماية لترافقني إلى الأحساء ، وهي المنطقة التي جهز مبعوثاً لإرساله إليها لإعلام قائده عن الخطوات التي يهدف إلى اتخاذها . وقد أبدى خليل آغا عدم رضاه عن متابعة سيري إلى الأحساء إلى أن يتلقى التعليمات ، كما أنه يرى عدم الحكمة في وضع الثقة المطلقة بالبدو .

قام مشرف بزيارتي في المساء . وقد كانت لديَّ رغبة في إجراء تعارف ، حيث قبلت عرضه اللطيف في أن يزودني بالدواب ، وقد وعدته بأن أحقق رغباته باستئجار هذه الدواب عند الضرورة . وعندما عاد المبعوث شرع في إقناعي بأن قبيلته هي القبيلة الوحيدة التي بإمكانها أن تؤمن لي الحماية التي أحتاج إليها ، فأجبته على هذه الفكرة بتأكيدي له عن ثقتي التامة بصداقته ، ثم كتبت رسالة إلى عمه أخبره بها عن وصولي وعن هدفي في تجديد علاقات الصداقة التي لاتزال قائمة منذ زمن بعيد بين قبيلته وبين رجال الحكومة البريطانية الذين لا يزالون يُستخدَمون في هذا الجزء من العالم حتى الآن .

وبما أني طلبت من الآغا أن يرسل خيلاً في الصباح الباكر من هذا اليوم ،

الثالث والعشرين من حزيران ليتمكن الطبيب (بلاي) من زيارته فقد انتظرت وصول رسوله حتى الساعة الحادية عشرة ظهراً ، دون أن يظهر له أي أثر ، لذلك اضطر الطبيب إلى العودة إلى السفينة دون أن يصف دواء لشكوى الآغا ، وقد فهمت فيا بعد أن أسبابها كانت تُعزى بشكل أساسي إلى النَّهم الشديد في الطعام .

الرابع والعشرون من حزيران (يونيو) :

في صباح الرابع والعشرين من حزيران أرسلت الشيخ ليقوم بزيارة لخليل آغا وفي نفس الوقت كتبت له رسالة إطرائية ذكَّرته فيها برغبتي في التوجه إلى الأحساء في اللحظة التي يمكنه أن يؤمن لي فيها الحماية الضرورية ، فنصح الشيخ بالنسبة لهذه النقطة بأن يقوم ببعض التحقيقات الخاصة .

وقد زادت حدة مزاج الآغا ، الذي يتسم بالنكد في الأحوال العادية ، عندما شاعت أنباء عزله ، وكان مشرف بن عريعر قد تلقى أوامر بأن يؤمن الدواب لنقل متاع الحاكم ومندوبيه إلى الأحساء ، وأن يتولى مهمة إدارة أعمال الحكومة بنفسه . ونظراً لأنه كان متشوقاً إلى تعيينه في منصبه الجديد دون أي تأجيل فقد ظهر عند بوابة المدينة مع حاشيته من الخدم . لكن الآغا رفض أن يسمح له بالدخول مالم يختر اثنين منهم فقط للدخول معه ، لكنه رفض هذا الطلب . ومن خلال المشاورات التي تمت عن طريق بعض الرسل سلح التركي نفسه وهو في مجلسه الذي ضج من كثرة الصياح . وإذ بمشرف ينسحب بلباقة فطلب منه التركي أن يستعد لتنظيم حساباته . إذ يبدو عليه أنه حاذق في هذه المصلحة فتراه يحوّل العشرات إلى مئات والمئات إلى عشرات ببراعة فائقة .

وعلى الرغم من أن خليلاً كان قد أرسل رجلاً برسالة على جمل سريع إلى الأحساء فإني أدركت أني إذا أرسلت رسالة إلى محمود آغا كاشف على وجه السرعة

فلربما أحثه على تهيء الظروف من أجل الإسراع برحلتي إلى الأحساء ومغادرتي لها ، لذلك كتبت رسالة إلى ذلك الضابط وأرسلتها على الفور مساء الخامس والعشرين من الشهر الجاري .

سأحاول أن أضع وصفاً صحيحاً للقطيف وللمنطقة التي تجاورها بقدر ماستساعدني فيه ذاكرتي المعيبة :

يبلغ عرض خليج القطيف عشرين ميلاً عند مدخله آخذاً شكله الحالي بتأثير عنق رملي ضيق وطويل جداً من جهة الشمال ، وبتأثير سهل رملي منبسط من جهة الجنوب ، حيث يُدعى البروز الشمالي رأس تنورة ويدعى الجنوبي الظهران . أما جزيرة (تاروت) فتقع في الوسط متجهة نحو قمة الخليج ، يبلغ طولها عشرة أميال ، ممتدة بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي ، غرست فيها أشجار النخيل بشكل كثيف ولديها زاد كاف من الماء . تبرز ضفة من هذه الجزيرة باتجاه فتحة الخليج على شكل صَدَفَةٍ مَحارِيَّةٍ ذات سلسلة من النتوءات المتخذة شكلاً دائرياً تقسم الخليج إلى قناتين : الشمالية وقد سبق وصفها ، عميقة وآمنة تسير بشكل مواز ومجاور للعنق الرملي . والجنوبية ، وهي رقيقة الماء ووعرة ، تبتعد كثيراً عن الشاطئ الذي يمتد منبسطاً إلى مسافات بعيدة ، وما بين القناة والشاطئ ماء رقيق جداً . ويمتاز هذا الجانب بعلامة خاصة ـ تلة مخروطية على البر الرئيسي تسمى الظهران . وفي الميناء إلى الداخل يوجد برج أو حصن محاط بالماء يسمى الدّمام وقد رممه مؤخراً رحمة بن جابر ، تجثم ورائه قرية سيهات قائمة على البر الرئيسي ، وتبعد مايقارب أربعة أميال عن حصن القطيف الذي يحاذي في امتداده جزيرة تاروت . (٨)

تعتبر القناة الشمالية أكثر القنوات سلامة وأمناً ، لكنها تقع على مسافة بعيدة عن القطيف . فمن أجل الخروج من هذا المرسى إلى القطيف يجب على الزوارق

أن تدور حول ضفة تاروت . والدخول في هذه القناة سهل جداً ، فهو يحتاج إلى تعديل الاتجاه نحو بروز العنق الرملي الضيق بحيث تبقى السفينة على بعد يعدل طول كَبلِ السفينة عن الشاطئ لتمشي جنباً إلى جنب مع تاروت وهنا يلفت الانتباه في الوقت المناسب جزيرتان رمليتان صغيرتان عند آخر الخليج ، بالإضافة إلى نقص الماء ، ففي هذا المكان يصبح المركب آمناً من الرياح الشمالية الغربية الهوجاء ، لكن القاع رملي .

يوجد لحصن القطيف ثلاث بوابات ، وهو على شكل مستطيل ، ولأطول وجه فيه ـ وهو المتجه إلى البحر ـ قلعة عند أقصى زاوية باتجاه الشمال ، وهي مزودة بنبع مائي جيد ويعتقد أن البرتغاليين هم الذين شيدوه . توجد بعض البيوت الجميلة داخل الحصن . أما بالنسبة لعمق الماء في مكان النزول هنا فيزيد عن عمقه في سيهات ، وقد سبق الحديث عنه ، ومع ذلك كان مزعجاً تماماً .

يُعقد عادة سوق خارج بوابة الحصن الجنوبي كل خميس تتوفر فيه كميات كبيرة من لحم الضأن والرز والتمر والسمك والبطيخ ذي الحجم الكبير (تزن البطيخة الواحدة ما بين أحد عشر وثلاثة عشر كيلو غراماً) ، بينما لا ينتج القمح والشعير بالوفرة التي ينتج فيها الرز . ويُعزى سوء هواء القطيف صحياً إلى العناية بزراعة الرز ، أما التين فمتوفر بكثرة وذو نوعية جيدة . كما يزرعون بعض المشمش والمنجا والرمان والعنب والبرتقال والليمون . بينما يُرى الباذنجان والبصل والفاصولياء واللوبياء والفول في الحدائق التي تمتد إلى مسافة طويلة ، وهي مطوقة بالصحراء من أحد جانبيها وبساحل البحر من الجانب الآخر ، وتُسقى كل هذه المزروعات من مياه الآبار ، وعلى الرغم من أن التربة رملية فإنها صالحة لإنتاج كميات كبيرة من المحاصيل .

• أما التجارة في القطيف فهي زهيدة في هذه الفترة لأنها ترتبط مع البحرين فقط ، حيث تستورد البضائع من صُراط ، أما التوابل والسكر وتوابعها فهي

تـؤمن من الهنـد . وتُعتبر البحرين في الحقيقـة المفتـاح إلى بحران[1] والقطيف وعنجير وهاتان الأخيرتان كلاهما تُموّلان من تلك الجزيرة . أما الأحسـاء ومـدن الداخل فتعتمد على المؤن التي تصل إلى البدو عن طريق القنـاة ، لكن الاستهلاك ضئيـل حتى الآن بسبب عـدم الاستقرار في المنطقـة ولأن البـدو رَحلوا بـاتجـاه الشمال ، فتُمول الأحساء بشكل رئيسي عن طريق عنجير مما يسبب وجود اتصال مبـاشر معهـا أكثر من غيرهـا ، وهـذا بـالطبع يقلص تجـارة القطيف . وسأعـدد البلدان والقرى الخاضعة لحكومة القطيف :

المــــدن	عدد السكان
مدينة القطيف	٤٠٠٠ نسمة
ضواحي المدينة	٢٠٠٠ =
تاروت	٢٤٠٠ =
صفوا	٢٤٠٠ =
العوامية	٢٤٠٠ =
ليام	٨٠٠ =
الجش	٥٦٠ =
أم لقمان	١٦٠٠ =
الجرودية ـ الجارودية	١٢٠٠ =
سيهات	٢٠٠٠ =

جميع المدن التي ذكرت مسورة .

أما القرى التالية فغير مسورة :

(١) البحرين جزيرة ، أما البر الأصلي المقابل لها فيدعى بحران . المؤلف .

بـل البر المقـابـل يـدعى في القـديم البحرين والجـزيرة أرال ، وصرّاط هي سـورات بـالهند . المحقق .

المــــــدن	عدد السكان
الملاّحية	٤٠٠ نسمة
لغُوّة	٤٠٠ =
الحُويلدية	١٦٠٠ =
شيزيل التوبي	٤٨٠ =
شيزيل باري	٥٦٠ =
حيلة محيش	١٢٠٠ =
الدبيبية	١٢٠٠ =

الدخل العام	بالكراون الألماني
ضريبة حرب يدفعها القرويون وأبناء المدن الذين يعتبرون غير خاضعين قانونياً للاستدعاء إلى ساحة القتال. وهذا يدفع نقداً كمبلغ ثابت لا يتغير.	٢٠٠٠٠
عشر الإنتاج الإجمالي، يجمع كل نوع بنوعه كالرز والبلح وغيرهما.	٥٠٠٠٠ إلى ٦٠٠٠٠
جمارك بحرية	٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠
الصيد بأنواعه	ضريبة زهيدة
أجور رسو السفن	ضريبة زهيدة

لا يسكن القطيف هندوس ولا مسيحيون في الوقت الحاضر ، فلم أستطع أن أدبر شخصاً يستطيع أن يعمل كسمسار ، حيث الأوضاع العامة غير مستقرة في هذه الأيام ، فقد أخفقت أيضاً في إتمام ما كنت أرغب في الحصول عليه ومعرفته من القطيف ، إذ لاشك أن الكارثة الحالية التي تحل بها غير مواتية مطلقاً ، فقد قَصر الأتراك جهودهم وانهمكوا في جباية التبرعات ، بينما رجال الأموال في لهفة لأن يحجبوا أنفسهم عن الأنظار .

الثامن والعشرون من حزيران (يونيو) :

أتاني الشيخ مشرف آل عريعر في صباح الثامن والعشرين ليعرض علي دعمه لي بالدواب التي سأحتاجها لنقلي إلى الأحساء وفقاً للوعد الذي أبرمه في الثاني والعشرين من الشهر الجاري . ونظراً لكوني لا أستطيع أن أعتمد على قوة الرجل التركي الذي استدعي إلى الأحساء الآن ، والذي توصم حكومته بالحماقة التامة ، فإني قبلت هذا العرض بكل سرور ، فأرسل رسولاً يطلب الدواب من مخيمه البدوي الذي يبعد عدة أميال عن القطيف إذ إنه قام بتجميعها خلال اليوم أو اليومين الماضيين . ثم تلقيت رسالة من عمه محمد يَعِدُ فيها بكل مساعدة يطيقها ، وبما أن مشرف اقترح أن يمر بمخيم عمه وهو في طريقه إلى الأحساء فقد اقترحت عليه أن يصطحبني . ثم أُحضِرت الدواب المتفق عليها بالإضافة إلى ستة رؤوس من الخيل المسرجة كدعم إضافي قدمه الشيخ . وعندما انتهينا من وجبة المساء السريعة التي شارك فيها الشيخ أُعلن عن وصول يوسف آغا الذي قَدِمَ من عند الحاكم خليل آغا ليطلب مني تأجيل رحيلي إلى يوم رحيله الذي يتوقع أنه سيكون بعد أيام معدودة ، مؤكداً لي ضرورة مرافقتي له . وقد أوعز إلى يوسف آغا أن يقنعني بأي أسلوب ألا أعتمد على البدو ولا أثق بهم أبداً . وهكذا كان يبدو على خليل آغا شيء من الاهتمام بي . كان عنده مندوبان تركيان فقط وحوالي ستين عربياً من القرى المجاورة في خدمته ، وكلهم سيُعفون من وظائفهم ، فقد استدعي هو وموظفوه كلهم ، مما أدى إلى تعطيل نفوذه ، لذلك لم أعد أُحبذ أن يزعجني مرافق لا فائدة منه ولا نفع ، فانتقيت الشيخ المشار إليه واخترت الاعتماد على حماية البدو الذين يتوقع أن يَستدعيَ ذلك التركيُّ بعضهم لحمايته هو بالذات بالإضافة إليّ . فأرسلت جواباً إلى الآغا أنه نظراً لمرافقة الشيخ لي إلى مخيم عمه ولكوني دفعت لبدو هذه القبيلة أجور جمالهم فإني أرى نفسي في غاية الأمان ، خاصة وأني مدعو من قبل الشيخ محمد بالذات لزيارته إن استطعت إلى ذلك

سبيلاً ، وما أظن أن الباشا سيرضى عن زيادة في التأجيل . من أجل ذلك حوّلت هذا الكلام إلى نصّ مكتوب آملاً أن أحظى بالسعادة عندما ألتقي مع خليل آغا في معسكر سيده لأودعه هناك . ثم إني قدمت ليوسف آغا هدية رمزية رداً على الاهتمام الذي أبداه عندما نزلنا إلى البر ، وكان متلهفاً لمعرفة ما إذا كانت هنالك هدية لخليل آغا فأجبته بأن الهدية ستقدم للشيخ الذي أمّن الدواب وستكون قيمتها متناسبة مع سرعته في تحقيق رغباتي . فانطلق وقد بدت عليه سمات الرضا الكامل عن نفسه وعني وعن طبيعة الجواب الموجه لسيده .

الطريق ـ سرنا في الساعة السادسة مساءً من قرية سيهات مسافة ميلين نحو الغرب فوصلنا مخيم بدو (مشرف) خلال ساعة ونصف . وهو مخيم متطرف في خيام مجاورة لآبار في الصحراء على أطراف مزروعات النخيل التي كنا نسير حولها . وهنا خيمنا عند العرب واضطجعنا في السهل المترامي الأطراف (كان القمر يسطع ببريق جميل على الزمال البيض التي بدت كمحيط ممتد المياه ، وكان مشابهاً في مظهره لسطح الأرض في أماكن كثيرة . ولقد تزودنا بمؤونة وفيرة من الماء من تلك الآبار التي تسمى ماء البدراني وهي قريبة من قرية الجارودية والمسافة من هذا المكان إلى القطيف تقارب الميلين .

التاسع والعشرون من حزيران (يونيو) :

سرنا مساء الثلاثاء التاسع والعشرين من حزيران ، بعد أن واجهنا صعوبة كبيرة في حمل الأمتعة ، على الرغم من أن جميع الأحمال كانت خفيفة ، لكن الضيق كان ناجماً عن حمل لحم العجل الذي اعتدنا على استعماله في الهند ، كما أن العرب صمموا على توفير جمالهم قدر الإمكان ، فما كانوا يسمحون لأحد بالركوب حتى يتدخل الشيخ . ثم خضنا في الصحراء كطاقم متعدد الألوان فسرنا ثلاثة أميال باتجاه الغرب حيث اجتزنا جدول ماء ، وبعد ميلين صادفنا بئراً صغيراً

استقينا منه ، ثم سرنا سبعة أميال غرباً ثم جنوباً ، وكانت الساعة الثالثة عندما توقفنا واضطجعنا في الصحراء للانتعاش ولأن العرب يسرون من الإقامة في معسكر مؤقت حيث لا ماء ولا علف ولا نار . فاضطررت إلى استخدام لغة الاستعطاف لأحث الشيخ على مواصلة السير من هذا المكان المقفر ، فقد علمت أنه لم يبق أمامنا سوى خمسة أميال لنصل إلى محطّنا التالي حيث لا يتوقع أيضاً وجود ماء عذب على الرغم من أن استهلاكنا لهذه المادة الضرورية كان سريعاً جداً . لكن العرب لم يكترثوا بنصيحتي فقد أطلقوا لأنفسهم العنان إلى كل قِربَة ماء طالتها أيديهم . وسرنا في الخامسة صباحاً من اليوم الثلاثين حيث وصلنا خلال فترة قصيرة إلى آبار مالحة عند عزومية ، وقد سلكنا خلال هذا الطريق اتجاه الغرب ثم الجنوب فنزلنا ولم يكن لدينا من الماء سوى زِقٌّ واحد للمجموعة بكاملها ، فأمرت بحفر بئر عسى أن نحصل على ماء أفضل ، لكننا لم نفلح . كان كل هذا المسير فوق صحراء من التلال والسهول الرملية الممتدة ، وكانت الطبقات العليا من هذه الرمال مغطاة بقشرة سميكة من ملح متكتل تغوص فيه أقدام الدواب إلى عمق كبير في كل خطوة من خطاها ، ولم يكن في هذه الأصقاع أي أثر للخضرة إلا ما كان على التلال من باقات معدودات من الأعشاب وأشجار السمّار وبعض الشجيرات البنية المتوقفة عن النمو مبعثرة هنا وهناك ، وكانت تكثر شجيرات تنمو على هيئة حزم مستديرة شديدة الخضرة يخرج منها سائل مالح يميل إلى الحموضة ، ولها أوراق سميكة بيضوية متطاولة ومشبعة بهذا السائل . تأكل الجمال أحياناً من هذا الشجر لكن دون أن يظهر عليها رغبة فيه ولا تفضله عن غيره . ومن رماد هذه الشجيرات يُحصل على البوتاس الأصلي الذي يدعى الأشنان ، ويبدو أنه الاسم العربي (للقِلي) أو أنهم يطلقون عليه اسم النبات الذي يحصل منه على القلي . أما الحرارة فكانت لا تطاق في النهار ورياح الصحراء الحارة تهب على شكل تيارات هوائية قوية تجعل التنفس في غاية الصعوبة .

أعلمني عربي خبير أن الصحراء خالية من القرى باستثناء الشمال والشمال الغربي منها حيث توجد سبع قرى صغيرة يتراوح سكانها بين خمسين ومائة وخمسين أسرة تسكن كلها في أكواخ . وتعتاش كل واحدة منها على أشجار معدودات من النخيل وزراعة ضئيلة . أما في اتجاهَيّ الغرب والجنوب الغربي فكل المنطقة صحراوية .

الثلاثون من حزيران (يونيو) :

سرنا في السادسة مساء وتوقفنا في التاسعة والربع طلباً للراحة ، كما فعلنا مساء أمس حيث استطعنا أن نحصل على القليل من الماء الآسن الفاسد . كان الهواء رطباً فإذا بساعات قليلة من النوم تنعشنا بعد حرارة النهار الملهبة . كان مسيرنا فوق تلال رملية حيث لم يصادفنا سهل ملحي آخر . بل زادت باقات الأعشاب وأشجار السَمّار في تبعثرها ، ولا يضاف إلى نباتات الأمس سوى شجيرات من نبات الألبان .

الأول من تموز :

تابعنا السير في الساعة الخامسة وخمس دقائق من صبيحة اليوم الأول من تموز لنكمل مرحلتنا وتوقفنا في الثامنة إلاّ ربعاً عند بئر يسمى المولحة ، ورأينا (تل الدم) إلى الجنوب الغربي ، حيث أخبرت أن الأحساء تقع وراءه مباشرة ، وأنه لا يمكن تدبير ماء إلى الغرب منا فيما بين ماءي المولحة و (أم ربيعة) مع العلم أنه لا يزال أمامنا مرحلتان طويلتان لذلك تخلّوا عن فكرة التوقف في هذه الليلة وقرروا أن يتابعوا السير إلى أبعد مسافة ممكنة مع حمل مؤونة يوم واحد من الماء ، وعندما استقينا من البئر قبل أن نسير لاحظنا أن ماءه قد تناقص كثيراً نتيجة لاستهلاكنا في هذا اليوم . وهو بئر يموّل العرب الرُحل الذين يقيمون في الصحراء ويرعون الغنم والمعز التي يمتلكون منها ما يقارب المائتين ، ولم يكن أفراد

المجموعة التي نزلت عندهم من هـذه الجماعـات راضين عن زيـارتنـا لهم ، ولم يكن الشيخ كريماً معهم ككرمه مع رجاله الذين تزودوا جميعاً باللحم من قطعان هؤلاء البدو .

الأول من تموز أيضاً :

انطلقنا في السادسة والنصف مساء وتوقفنا بعد هبوط القمر خلافاً لما كنت أتوقع فإذا بنا نرى أننا عاجزون عن تأمين ماء أو أية مستلزمات أساسيـة أخرى ، ولم أكن على علم بأن الشيخ مصمم على البقاء هنا حتى الصباح فاستسلمت للنوم بلا غطاء ، وقد جعلتني هذه التصرفات أتأكد بشكل جازم أن البـدو أكثر المسـافرين إزعاجاً في الكون كلـه ، فهم عشوائيون لا يفكرون بتحضير أي شيء قبل المسير ، ولا يضعـون أيـة خطـة لمسيرهم . ولقـد تغير عليّ مظهر الصحراء كثيراً في المسير الأخير ، إذ تركنا تلـك التلال الرمليـة الغريبـة التي كانت تشبـه في شكلهـا كتلاً متـدحرجـة من أمواج المحيـط ترتفع الواحـدة تلو الأخرى ويتغير اتجـاههـا بشكل ملحوظ ، وقـد لاحظت أن التغيير كان عمومـاً بـاتجـاه الجنوب . وكانت السـاعـة تقارب التاسعة عندما صعـدنـا تلاً مرتفعاً لم تكن الرمـال فيـه عميقـة ، كما مررنـا بعده بعدة تلال أخرى لها المواصفات نفسها قبل توقفنا في السـاعـة الثـانيـة عشرة والنصف ليلاً .

الثاني من تموز :

انطلقنا في الخامسـة والنصف صبـاحـاً لنكمل نفس المرحلـة حيث وصلنـا في الثامنة والنصف صباحاً فرأينا قطيعـاً كبيراً من الظبـاء ـ قـد يصل إلى مـائتين ـ وهي أول طرائد رأيناها منذ انطلاقنا . وتوقفنا في هذا المكان من الصحراء طيلـة النهار واضعين نصب أعيننا تخطي مسافات طويلة قبل أن نتمكن من تـدبير مـاء فقد كان التوقف في الليل يسبب استهلاكاً غير ضروري مما تزودناه منه .

الثاني من تموز أيضاً :

كان الشيخ مشرف يُلحُّ عليّ كثيراً من أجل الحصول على هدية ، وقد سبق لي أن أفهمته أني مصمم على تقديم هدية له عربوناً لصداقتنا على أن يتم ذلك لدى وصولي إلى معسكر عمه الذي يُتوقع أن نصله في صباح اليوم التالي ، لكنه ألح بإصرار على أخذها هذا المساء زاعماً أنه مصمم على متابعة المسير ويرغب في أن يحصل على بيِّنةٍ يستدل بها على رضاي بارتدائه لها قبل وصوله ، فما كان مني إلا أن هيأت له ماأعتبره لنفسي هدية في غاية الأناقة وأرسلتها إليه ، فاستلمها وقد بدت عليه علامات الرضى التام . وإذا به يأتيني بعد قليل ليفتح نقاشاً يتعلق بأجرة الخيل التي كنت لاأزال أعتقد حتى ذلك الوقت أنهم أعاروني إياها من قبيل المجاملة واعتبرت الهدية التي أرسلتها له مقابل ماأبداه من اهتمام بالمجموعة لكنه أصرّ على أن أدفع عشرة دولارات عن كل رأس من الخيل . وكما أني دفعت لجميع الناس الذين استأجرت منهم عليّ أن أدفع له أجر خيله وهددني بأن يتركني في مكاني إذا لم أفعل . وعندما وصلت به الأمور إلى هذا الحد وجدت أنه لم يعد أمامي أي خيار فاضطررت إلى الموافقة وأتيت إلى متاعي لأفتحه وأخرج المال طالما أنه لن يؤجل تلبية طلبه إلى الغد . كان تصرفه تصرف إنسان همجي توصَّل إلى حصر فريسته ضمن جبروته ، وصمم على ألا يضيع الفرصة خشية ألا يجد شخصاً آخر غيري يستطيع أن يسلبه . وفي ذلك الوقت بالذات لم يكن لدينا ماء ونعرف أننا لانستطيع أن ندبر شيئاً منه ، لذلك كنت سعيداً عندما وضعت حداً لهذا الصخب بدفع ستين دولاراً .

ونُشرت إشاعة في ذلك الوقت عن رؤية لصوص ، لكني أجبت على ذلك بأن اللصوص الوحيدين في الصحراء إنما هم من قبيلته بالذات وأنه ليس بإمكانه أن يُدبَّ الرعب في قلبي إلى تلك الدرجة ، فلن أذعن لأي طلب ربما يطلبه مني مقابل دفاعه عني لأنه يُعتبر مسؤولاً عن سلامتي . ولقد لاحظ أني عازم على عدم

الإذعان لطلبه وحازم في أمري ، إذ كنت وثلاثة أو أربعة من رجالي مدججين بالسلاح ، فرأى أن خطورة كبيرة تنطوي وراء قيامه بأمثال تلك الخدع . وقد ازداد حزني إلى حد كبير عندما تذكرت أن جزءاً من الهدية التي أرسلتها لذلك الهمجي يتألف من شالين أنيقين من صناعة كشمير مما أهدانيه إمام مسقط عندما ودعت بلده ، ولقد نجحت هذه الظروف الغريبة في أن تقدم لخيالي هدية تكشف عن الاختلاف الصارخ بيني وبينهم إذا ماقورِنَت هذه الهدية مع الهدية التي قدمتها لهم ، الأمر الذي أظهر أن البدو لا يزالون يشكلون ضرراً كبيراً في المنطقة .

سرنا في السابعة مساء بعد تأخر زاد عن الساعة والنصف بسبب تلك الخلافات ، فوصلنا مخيم بدوٍ عند ـ الأبواب ـ يتكون من ثلاثمائة خيمة من خيام قبيلته (العمور) فتوقفنا وترطبنا ببعض الماء الآسن واضطجعنا تلك الليلة كعادتنا ثم انطلقنا في الخامسة والثلث من صباح الثالث من تموز . كان هذا المعسكر يقع على حدود سهل ملحي محاط ببعض الهضاب المتبددة ، وفي الثامنة والربع صباحاً وصلنا معسكراً كبيراً ، لبدو قبيلة بني خالد التي يحكمها الشيخ محمد والشيخ ماجد اللذان تطرفا في هذا السهل المسمى أم ربيعة . وقد زارني الشيخ محمد ، وهو رجل مسن شديد الصمم ، مثقل بالثياب إلى درجة أني استغربت كيف استطاع أن يتحمل هذا الحمل ، ولم يكن منتعلاً على الرغم من أن الرمال كانت تلتهب من شدة الحرارة ، فلم أكن أطيق أن تمسها قدمي . وإنه ليبدو من السخف أن ترى رجلاً يرتدي شالاً يمنياً يغطي به رأسه وثوباً سميكاً من القماش القرمزي وقميصاً من نسيج ذهبي وفي نفس الوقت لا يلتمس الراحة بارتداء نعلين في صحراء ملتهبة . لم يكن النقاش الذي تبادلناه ذا أهمية كبيرة ، إذ لم أر أنه من الأدب أو من حسن الوفادة أن أحتجزه نظراً لأنه متمسك بصيام رمضان تحت الشمس المحرقة في الصحراء المخيفة ، وقد أمضينا فترة طويلة من تلك المقابلة من

أجل الإطراءات وتأكيدات الصداقة ، انطلق الرجل بعدها حافي القدمين .

سنحت لي الآن فرصة لإعطاء تقرير عن تصرفات مشرف في الصحراء ، فقد صار الآن رهين قوتي ، تماماً مثلما ظن أني كنت بين يديه بعد ظهيرة الثاني من هذا الشهر فكتبت رسالة رسمية للشيخ محمد مفصلاً فيها جميع الجزئيات ، ومن حسن حظي أن اجتماعاً كبيراً كان معقوداً عندما وصلته حيث قُرئت عليه بصوت عال لما هو مصاب به من صمم ، وكانت نتيجة بدهية أن سمعها جميع جلسائه الذي سبق لمعظمهم أن سمع من مشرف أني لم أكن كريماً معه ولا مع رجاله ، لكن سرعان ماأصبح هذا الزيف واضحاً وجلياً نظراً لأنه أهمل تقسيم جزء من أجور الماشية مما أحدث الصخب بين رجاله . فإذا بأوداج الرجل المسن تنتفخ غضباً نتيجة لما سمع ، وأتاني عمه ماجد بعد المغرب ليعرض علي أي تعويض لما بدر عن ابن أخيه الذي وصم نفسه وقبيلته بالعار ، كما رغب في أن تُعاد الهدية والدولارات الستون . لكني رفضت اقتراحه هذا موضحاً له أنه ليست قيمة الهدية ولا المبلغ دفعاني إلى أن أذكر الموضوع ، بل لأني شعرت بأني أُهِنت إهانة كبيرة من جراء تصرف مشرف الذي كنت معه في غاية الكرم آملاً في أن يبرهن لعمّيْه إلى أي مدى قد قدّرت صداقتها التي لا يمكن أن تلتئم بعد هذا الصدع الذي هلهل الثقة والإخلاص ، وأنه لا يمنعني من أن أشير بهذا الموضوع إلى الباشا سوى ذلك الدافع الوحيد الناشئ عن احترامي لمشايخ البدو . فأجاب قائلاً إنه ليست هنالك حاجة للإشارة بهذا الموضوع إلى الباشا لأنه قرر بأن يبرز مشرف صباح غد أمام الناس ويعاقبه عقاباً يكون عبرة له ولغيره . وعندما سمعت بهذا الوعد رغبت في تغيير الموضوع وفسحت له المجال لدراسة النتائج التي قد تظهر من جراء تكرار مثل هذه الإهانة . وبعد القهوة والتدخين استأذن للذهاب وأويت إلى فراشي ، ثم أتاني مشرف مع اثنين أو ثلاثة من العرب الذين تحلّوا بالوقار ، وقد بدت عليه أمارات الندم العميق لما بدر منه فأسهب في الاعتراف بالخدعة بكاملها ثم ظهر

عليه الخوف من عواقب صباح الغد إذ رمى بنفسه على قدميَّ وتوسل إلي بأن أفسح له فرصة تجنب العار الذي ينتظره من جراء تصرفه السابق فرأيت أنه من اللائق أن آخذ بعين الاعتبار منصبه بين أفراد قبيلته وأن أستغل فرصة استمالة قبيلته ، مفضلاً ذلك على التمسك بفكرة قد يكون تطبيقها موضع شك ، ولذلك منحته مسامحتي .

وفي صباح اليوم التالي قمت برد زيارة الشيخ محمد والشيخ ماجد لأذكرهم بشكل خاص بشأن الإسراع في رحيلي الذي كان محدداً مساء هذا اليوم ، وكم كانوا أكثر سخاء في تقديم أجمل الوعود وأقوى الانطباعات عن الصداقة في هذه المناسبة مما كانوا عليه في المقابلة السابقة وقد بدا كلا الشيخين ضليعين في فن الخداع ، حتى رأيت من الصعب إدراك الحافز الذي دفعهم إلى تأخير تزويدي بالدواب . تحدثا عن رؤية مجموعات من لصوص قبيلة (العجمان) بالقرب من الأحساء ، كما حاولا أن يُبرزا إشاعات عديدة عن المخاطر التي يتوقع أن تواجه خلال المسير . ولم يُقصد من ذلك كله إلا وضع ذريعة لرفع أجور الدواب والحضّ على أن أعدهما بهدية ثمينة ، إذ يعتبر هذان الشيخان من الأشخاص الذين يتوجب على المسافر أن يتقدم إليهم بطلب من أجل دابة تنقله وتنقل أمتعته ومن أجل حرس يحمونه ، هذا مابدا لي من خلال العلاقة التي يقيمانها مع قبيلتهما . أما إذا تمكن المسافر من تدبير دواب بأية وسيلة أخرى فإن الشيخ غير مسؤول عن سلامته ، وربما يكون أول من ينبهه ويهرب بالغنيمة . وقد سبق لي أن سمعت كلمات مدح وإطراء لهذين الشيخين عندما كنت في الطريق فدخلت مخيمهما متوقعاً أن أجدهما أهلاً لما سمعت . وإن مظهرهما وخطابها بالإضافة إلى جزمهما بالنسبة للتأكيدات التي أدليا بها في السابق قد قادتني إلى أن أضع في نفسي ثقة كاملة بهما وكان يحتمل أن يكتب لهذه الثقة الاستمرار لو لم يغير ما حدث في الصحراء شخصية البدوي بشكل كامل في قالب ابن أخيهما ، الذي أعطى أرق وألطف انطباع عندما تعرفنا عليه لأول مرة .

ونظراً لأني سمعت أن الشيخ محمد يهدف إلى إرسال مبعوث للبحث عن معسكر الباشا فقد طلبت إذنا بأن أوجه رسالة في هذه الفرصة إلى وزير الباشا فوعدني الشيخ بإرسالها .

جاء الخامس من تموز يوم الوعد بالمسير وبدأت المراوغات والانشغالات واختتم النهار بقيام الشيخ محمد بزيارة سريعة لي وضع خلالها جميع المخاطر والصعوبات والمستحيلات أمام انطلاقنا ، فختمت هذه المقابلة وأنا مصر على ضرورة سيري إلى الأحساء لأن وصولي إلى هناك ربما يريحه من عثرة ويخلصه من أية مسؤولية أخرى . وبعد مغادرته بساعة وصل الشيخ ماجد وأكد لي أننا سننطلق في مساء اليوم التالي .

عانيت الكثير من الإزعاجات لأني لم أكن مزوداً بحصان ، ولم آلُ جهداً لتدبير جواد منذ وصولي إلى هذا المخيم ، لكن الخيل أصبحت نادرة جداً بسبب الاضطرابات الأخيرة وحالة عدم الاستقرار في المنطقة ، فيُحتفظ بإناث الخيل المعدودة في المخيمات العربية من أجل الإنجاب ، أما المهور الذكور فنادراً ماتعتبر ذات قيمة لأنها لاتفي بالغرض إذا ماقورنت مع الفائدة التي ترتجى من الإناث ، لذلك لا يهتمون بتربيتها ، ونظراً لاحتمال أن يُحرَم صاحبها من مخزون المياه عدة أشهر فإنه عادة ماتربى الذكور على حليب الجمال ، وأما ماعرض علي من أيٍّ منهما للبيع فكان من المهور الرديئة أو الإناث المُسنة ، وطُلب السعر بالروبيات الهندية بشكل يتناسب مع الكراونات الألمانية بحسب الاستعمال الذي اعتاده زعماؤهم .

السادس من تموز (يوليو) :

أمضيت هذا اليوم مكتئباً ، فقد كان لكمية الماء التي احتسيتها خلال مسيري ولنوعيته الرديئة أثر لا يطاق ، إذ كان مصحوباً بالحمى والعطش الذي يَعْسُر إرواؤه ، كما هبت رياح حارة منذ الظهيرة واستمرت حتى المساء الذي ختم بخيبة

أمل جعلتني أردِّدَ بأن تسويف البدو ونفاقهم وزيفهم وخداعهم واحتيالهم لا يمكن أن توصف لأوربي في لغة وعبارات تعطي لخياله وصفاً للشخصية الحقيقية لهؤلاء اللصوص الرُّحل . وإنك لتجد من السُّخف أن تُحاول إقناعهم ومناقشتهم بمبادئ العدالة ، والحق ، والإنصاف ، ومما يوازيه في العُقم محاولة الإصرار عليهم بالتزام الوعود والمواثيق التي عاهدوا عليها . كل هذا لاجدوى منه إذ لم تكن تملك وسائل الإجبار على المطاوعة والإذعان . وكانت الاتفاقية التي أبرمتها مع الشيخ مشرف توجب عليه تأمين عدد معين من الجمال لنقل مجموعتي إلى الأحساء مقابل دفعي أربعة كراونات ألمانية عن كل رأس بحيث ينبغي أن نصل خلال أربعة أيام لأن مخيم عمه يقع على بعد ثلاث مراحل عن القطيف وعلى بعد مرحلة واحدة عن الأحساء ، وقد وافقت على تقديم ثلاثة كراونات عن كل رأس ، وقال أنه سيزودني بخيله الخاصة به بلا أجر بل يعتبر هذه هدية رمزية يقدمها لي . ولدى وصولي إلى مخيم الشيخ محمد توقعت أني سأتمكن من خلال المقابلة الأولى أن أقود الشيخ مشرف إلى الإحساس بعدم لباقة تصرفه خلال المسير وإلى منعه من العودة إلى مثل تلك الحيل ، لكن البدوي ذا اللحية البيضاء كان خبيراً متمرساً في الخداع فقد قال إنه ليس لمشرف أية سلطة في أن يستأجر جمال الناس من أجلي إلى مابعد حدود هذا المخيم ، فكيف يتعدى على حقوق غيره فيتفق معي على أن أستأجرهم منه إلى الأحساء بكراونين عن كل رأس ؟ .. وكان قد وعدني بأن يعيد إليَّ ستين الكراون الألمانية لكنه لم ينجز وعده ، بل أضاف خدعة أخرى بالإضافة إلى ماما رسه ابن أخيه .

وفي صباح اليوم السابع بدأت خيام البدوِ السوداء تختفي تدريجياً ، فانكشف المعسكر عن بعض البقع الجرداء . جرت دراسة عميقة لأمر المسير إلى الأحساء ، ووجد الشيخ المُسنُّ نفسه مجبراً على أن يذعن لأوامر الضابط التركي في الأحساء مع أنه تذمر كثيراً بسبب ماعاناه من جراء إجباره على التحرك فقد كان يشعر أن

ذلك كان على حساب تنظيفه مع مجموعته لبئرين أو ثلاثة بما يتلاءم مع حاجات المخيم إذ كلفهم ذلك العمل الشاق ما يقرب من خمسة دولارات . وفي المساء وصلت الدواب المخصصة لمجموعتي ، لكننا لم ننطلق حتى الساعة الثامنة فسِرنا في طريق تراجعي تابعنا فيه حتى الساعة الثالثة من اليوم الثامن حيث توقفنا . ولقد واجهت صعوبة كبيرة في حث القائد البدوي على مواصلة السير حتى تمام المرحلة ، إذ كان من جهته يحاول أن يقنعني بالتوقف في مكان يتعذر فيه الحصول على الماء وَوِفْقاً لِعاداتهم المتوارثة في الانطلاق في صباح اليوم التالي . ولقد استعنت بعناد شديد لتنفيذ فكرتي ، فوصلنا في الساعة الثالثة إلى بئر يحوي كمية كبيرة من الماء في بقعة تسمى الحفيرة .

ثم انطلقا من بئر حفيرة في الساعة السابعة والثلث من مساء اليوم الثامن وخضنا في الصحراء باتجاه الشرق ثم الجنوب ثم الشرق حتى الساعة السادسة من صباح اليوم التاسع . حيث توقفنا عند بئرٍ ذي ماء طيب يدعى دُميزي وعند بزوغ الفجر مررنا على مخيم للبدو عند آبار عين دار لكن البدو لم يسمحوا لنا بالنزول هناك ، وأعتقد أن ذلك ناجمٌ عن عدم رغبتهم في أن تحرجهم مجموعتنا بسحبها كمية كبيرة من الماء ، لذلك أبعدونا عنهم مسيرة ساعتين على الرغم من أننا كنا في حالة إعياء شديد . وكان سلوك الرجلين اللذين أُرسلا معنا كأدلاء سيئاً جداً في الليلتين السابقتين ، فكانا يتركاننا في الصحراء ويضطجعان للنوم ، ولا جدوى من الكلام معهما في هذا الموضوع ولا في غيره إذ كانت إجاباتها تَنُمُّ عن وقاحتهما القذرة حتى أنه كان من الأفضل تجنب تبادل أي حديث معهما . والعرف السائد عند هؤلاء البدو أن يَظهَروا حليمين ومتواضعين عندما يتساومون مع المُسافر الذي يصبح من لحظة دخوله الصحراء تحت الرحمة المطلقة للمتسودين على رمالها الذين يحكمون باستبداد ويلجؤون إلى الخداع من أجل مصالحهم ، وإذا ما حصل أدنى سوء تفاهم ربما يتوقفون ويهجرون المسافرين الذين يرافقونهم ويتركونهم في أمسّ الحاجة إلى الماء .

خيم الشيخ محمد إلى الشمال الشرقي من آبار تدعى صلاصل .

وفي مساء التاسع رغب سائقو الجمال البدو في أن يحذوا حذوَ حراس المجموعة فيندمجوا في معسكر الشيخ محمد ، وهم يتظاهرون أنهم إنما يبغون الحصول على مؤن من الماء ، ونظراً لاحتمال أن يسبب هذا الأمر تأخر يوم فقد أمرتهم أن يتموّلوا بالرز الذي يعتبر المادة الوحيدة التي قد نتمكن من توفير كمية منها . وبما أننا أشبعنا نَهمَ هؤلاء الهمجيين المزعجين للمرة الثانية فقد سرنا في الساعة التاسعة والربع مساء . وفي الحادية عشرة مررنا بقرية حودية التي كانت عن يسارنا ، وكانت أولَ منطقةٍ سكنٍ مسوَّرة ومستقرة صادفنا فيها مستوطنين من بني البشر ، فالأرض التي تجاورها محروثة ، وترى بالقرب من سورها عدة قطعان من الغنم . وفي الساعة السابعة صباحاً من اليوم العاشر مررنا بنبع رقراق ذي ماء لذيذ في مزرعة صغيرة للنخيل . وفي الثامنة والربع نزلنا عند قرية جَمِيَّة ، تتوفر فيها كميات كبيرة من الماء والحدائق المُثمرة ، وإلى جانب هذه القرية توجد بحيرة واسعة تُغني السهل بالأشجار المثمرة ، لكن سرعان ماتقيد الصحراء المالحة مفعولها ، كما تُرى بعض شجيرات القطن في إحدى الحدائق . ثم انطلقنا في العاشرة والنصف من مساء اليوم العاشر فتجاوزنا عدة تلال رملية مرتفعة لنكسب طريقاً مباشراً ولنتمكن من الدوران حول رأس البحيرة ، ثم عبرنا سهلاً ملحياً واسعاً محتفظين باتجاه الجنوب حتى وصلنا الأحساء في السادسة صباحاً من اليوم الحادي عشر . وقد مررنا بقريتين كبيرتين كانت عن يسارنا وتبعدان خمسة أميال عن الأحساء ، توجد بالقرب منها بحيرة أيضاً .

اخترت بقعة بالقرب من حصن هفوف حيث كان يسكن الكاشف وطرّفت بخيامي حتى صارت على مقربة من بئرِ حديقةٍ وافر المياه ، فوصل رجل ريفي ونحن نحط الرحال ليعلمني أنَّ تحية الترحاب ستطلق وهي مراسم تشريف

لوصولي لذلك ردّيت للقشيف امتناني وشكري ، فقد دلّ بهذا على احترامه المطلق .

وفي مساء الثاني عشر منه زارني القشيف . وفي صباح الثالث عشر زارني خليل آغا حاكم القطيف ، الذي سبق أن وصل الأحساء مع رجليهِ التركيين . حصلت فيا بيننا زيارات متعددة حتى السابع عشر من الشهر ، وقد مكنتني هذه المقابلات التي كنت أشجعها من أن أصيغ آرائي التي تنبثق عن المعلومات التي تمكنت من جمعها في تلك الفترة ، والتي حصل لي الشرف في أن أضعها بين يدي الشريف حاكم المجلس .

أرسلت الرسالة التالية :

إلى الشريف السيد إيفان نيبيان ، بارت .

رئيس وحاكم المجلس ، بومباي .

السيد الشريف

« إني لأتشرف في إعلام رئيس المجلس أني وصلت إلى القطيف في الحادي والعشرين من حزيران ، حيث رغبت في النزول على برّها ، مفضلاً هذا عن تطويل رحلتي البحرية بالمواصلة إلى مرفأ العنجير الذي وصف بأن الاقتراب منه صعب المنال ، كما أن الاتصال مع الأحساء من هناك محفوف بالمخاطر والمجازفات . لم يسكن القطيف من الأتراك سوى الحاكم ومساعدوه وكان في خدمة الحاكم ستون رجلاً عربياً من القرى المجاورة يأخذون أجراً للقيام بحراسة هذا المكان . وقد قادني عند الشاطئ ملازم أول بدا كأنه يشغل مركزاً تافهاً » .

« وبعد تأجيلي عدة أيام تبيّن لي أن الآغا التركي لم يكن يملك وسائل نقلي وحمايتي في طريق الأحساء ، وأنه هو بالذات يعتمد على مشايخ البدو في حماية المنقولات على هذا الطريق ، لذلك صممت على أن أضع نفسي في حماية شيخ من

قبيلة بني خالد وأنطلق إلى الأحساء لأتجنب الزيادة في التأخر . وبعد مسير متعب ومرهق عبر الصحراء ـ زاد في إزعاجه تصرفات البدو وخداع مشايخهم ـ وصلت الأحساء في الحادي عشر من الشهر الجاري » .

« استُقبلت لدى وصولي إلى الأحساء بالود والترحيب وبكل سلاح كان يُسمح لقوات القشيف التي على الحدود أن تستعمله . ثم إنه زارني ورددت له الزيارة وكان الموضوع العام خلال النقاش تأكيدات متبادلة عن الرغبة في استمرار علاقات الصداقة القائمة بين الحكومتين الموقرتين . وقد بدا الضباط الأتراك الذين سنحت لي فرصة مناقشتهم أنهم في جهل تام لأفكار الباشا لأنهم انفصلوا عنه منذ زمن بعيد ، وقد أضناهم تعب خدمة ثلاث سنوات شاقة في هذه المنطقة الغريبة المجدبة وكانت أفكارهم وآمالهم متجهة نحو توقع استدعائهم إذ يبدو أن التاريخ المعين لرحيلهم قد قرب » .

« أما الوضع السياسي لهذه المنطقة فيختلف بشكل ملموس عن التقارير التي كانت متداولة في الهند في الفترة التي غادرت فيها » .

« ويبدو أن الباشا قد وجد أن جنوده كانت ممتدة على نطاق واسع جداً إلى درجة صعوبة تحقيق اتصالات على مسافات بعيدة في بلد تُكوّن الصحراء المساحة العظمى من أراضيه فربما تحيجه إلى قوات كبيرة نظراً لعجزه عن مواجهة التكاليف التي لا يعوضها الدخل الإجمالي من ريع البلاد ، ولأنه لا يعتمد على ولاء قبائل البدو إلا اعتماداً ضئيلاً فقد هوجمت جنود الحماية بين الأحساء ودرعية على مقربة من السلمية التي تبعد مسيرة ستة أيام عن هذه المنطقة . وكان من وراء ارتكاب هذا الهجوم الوقح بدوُ قبيلة بني سعدة » . (٩)

« وقد قام بدو قبيلة (العجمان)[1] الذين يستعرضون الصحراء حتى جنوب

---

(١) زوّدت هذه القبيلة جواسيس رأس الخيمة بعدد ضخم من المتطوعين الذين ركبوا متن زوارقهم في رحلة أو رحلتين حسب حصتهم من السلب الذي يوزع عليهم . « سادلير »

الأحساء بغارة على عنجير فنهبوا الحصن الصغير والأكواخ المعدودة التي تحيط بـه ، ثم هاجموا قافلة كانت على وشك الوصول إلى الأحساء وولوا هاربين بأحمالها ، لـذلـك انقطعت الاتصالات إلى درجـة أن الطريق المبـاشر إلى القطيف غير آمن حتى هـذه اللحظة لأن عدة مجموعات قد شقت الصحراء إلى شمالي هذا المكان » . (١٠)

« تلقى قشيف الأحساء أوامر بأن يجمع شتـات الجنود الأتراك الـذين يصل عددهم إلى خمسين ومائتين ويدمجهم ثانية في معسكر الباشا المتمركز عند (سـدير) الذي يبعـد مسـافـة مرحلتين إلى مـاوراء موقع درعيـة ، وهو المكان الـذي أعلمني القشيف بأن سعادة الباشا ينوي البقاء فيه شهراً كاملاً . وعندمـا رحلت الحكومـة التركية كان يعتقد مشايخ بني خالـد أن الحكومـة في الأحسـاء فرع تـابع للبـاشـا الذي يطالب بحصة من الدخل الإجمالي تعويضاً لنفقـات الحرب ولإعـادة توطين هذه القبيلة في المنازل والأقاليم التي سبق للوهابيين أن حرموهم إياها » .

« دمَّر سعادته درعيـة تـدميراً كاملاً حتى أنـه لم يبق من ذلـك المكان إلا قسماً ضئيلاً ظل من بعدها مصدر رعب للجزيرة العربية . ويبدو أن حافزاً آخر حثـه على القيام بهذا العمل فضلاً عن الغرور والخيلاء ، فطالمـا أنـه لم ينو احتلال هـذا المكان صار من الضروري أن يحكم عليه بالدمار إلى درجة أنـه لا يتوقع لهـذا المكان أن يتمكن في أي وقت في المستقبل من ضم شمل أيـة قبيلـة من قبـائـل البـدو التي لا يولونها إلا اليسير من الثقة » .

كما يقال أنه يهدف إلى ترك حامية له في (عنيزة) لكي يُرهب قبيلة الدويش المشهورة بقوتها الكبيرة وبكونها وسيلة اتصـال مع الأحسـاء بحيث يمكن أن يرسل الريع عن طريقها بكل أمان . ويعتمد استمرار هذا الأمان على ثبات قوة البـاشـا ، لأنـه على الرغم من كونـه المسبب الـذي تم عن طريقـه تبـديل موقـع القبيلـة إلى المكان الحـالي من أقـاليم وممتلكات الأحسـاء فـإن الأتراك يُظهرون حسـداً كبيراً

لهؤلاء البدو الذين يتطلعون إلى رحيلهم بغـايـة الشوق والقلق ويعتبرونهم متطفلين . أما الأتراك فإنهم يديرون الحكم هنا بغاية التسلط والاستبداد ، وقد اعتادوا فرض مطالبهم على البدو الذين يُعتبرون عنصراً متخلفاً وهمجياً ، وربما يكونون أصعب شعب في المعاملة على الإطلاق في هذا الكون من ناحية كونه خاضعاً لحكم أو نفوذ .

« ومن الواضح أن مقاطعة الأحساء وميناء القطيف والفوائد التي تُجنى من الاتصالات عن طريق عنجير تهيئ مواقع ذات مزايا أفضل من أية مزايا تُتوقع من مدخل رأس الخيمة . وطالما أن الباشا وجد أن التخلي عن هذه المكتسبات أمر ضروري فإنه لا يتوقع دخوله في أية مشاريع لاكتساب إقليم ربما لا يتمكن من الاحتفاظ به وربما لاتوازي مكاسبه نفقات الغزو » .

« ولم أضع بين يدي الشريف حاكم المجلس سوى النقاط التي تمكنت من جمعها منذ وصولي إلى الجزيرة العربية ، والتي تجرأت باعتمادي عليها أن أعرض آرائي الخاصة عن حالة هذه المنطقة ، وخاصة عن أفكار الباشا التي تبدو وكأنها موجهة بشكل محتوم نحو التخلي عن اكتساب إقليم على هذا الساحل من الخليج ، وأنه اقتصر على تأسيس قوته على الساحل الغربي للجزيرة العربية لكونه أقرب من أجل الاتصال بالمنشأة العسكرية في مصر التي يحصل منها على الإمدادات في المؤن والعتاد والأعداد بشكل سريع . وكانت الأسئلة الوحيدة التي بدأها الضباط الأتراك بصدد هذا الساحل من الجزيرة العربية قد اقتصرت على مسقط من الناحية السياسية ، فهو البلد الذي يبدو أنهم يجهلونه جهلاً تاماً . وإن التعليقات التي أدلَوا بها لتشبعني قناعة بأن الباشا قد وجه انتباهه في زمن مضى إلى تلك الجهة . أما التحولات التي طرأت على سياسته ، والتي تحتاج إلى تعليقات ، فهي غير ضرورية في الوقت الحاضر » .

« أما من ناحية إنجازاتي البعيدة فأجد نفسي في أشد الظروف ارتباكاً

وتعقيداً ولو كنت متأكداً من أني سأتعرض إلى الغم والتعاسة اللذين تعرض إليهما الكابتن هاستينغز الذي يعتبر في غاية النبل لتخليت عن أملي في متابعة المهمة التي عُهد بها إلي ، لكن نظراً لأن البواعث التي دفعت الحاكم العام إلى أن يباشر اتصالاً مع الباشا ربما لا تكون مقتصرة على إخضاع رأس الخيمة فحسب فإني أدرك أنه من واجبي أن أبذل كل جهدٍ أطيقه لتحويل أوامر سيادته إلى نتائج مثمرة . أما قشيف الأحساء فيهدف إلى مواصلة طريقه إلى معسكر الباشا حالما يتمكن من الحصول على جمال من مشايخ البدو من أجل نقل جنود الحماية . وربما يعتبر الشروع بمثل هذه المغامرة بالنسبة لي عبارة عن محاولة محفوفة بالمخاطر ولا جدوى منها ، واضعاً ثقتي فقط في البدو الذين ربما يستغلون حالة عدم الاستقرار في هذا البلد فينهبون ممتلكات الشخص نفسه الذي عهد بنفسه إلى حمايتهم . من أجل ذلك أعلمت القشيف أني سأكون على أتم الاستعداد لمرافقة جنود الحماية وأني منتظر بقلق جواباً للرسائل التي أرسلتها من مخيم البدو إلى وزير الباشا ، وربما تصل هذه الإجابات قبل أن تستعد الحماية للانطلاق ، ومن فحوى تلك الإجابات ربما أتمكن من تحديد خطط سيري المستقبلية بشكل أكثر وضوحاً وإيجابية مما أستطيع أن أضعه في الوقت الحاضر » .

« لي الشرف أن أكون ، ...

« الأحساء ١٧ تموز ١٨١٩ »

أعلن عن وصول الشيخ محمد والشيخ ماجد صباح اليوم الرابع عشر بإطلاق نيران التحية تكريماً لهذه المناسبة ، وانشغل الأتراك كثيراً في الأيام التي تلت بالاستعداد للرحلة وقد وعدهم المشايخ بتأمين الدواب ، فبدا كل إنسان في غاية الاستعداد للتحرك . أما أنا فقد حُشرت فوراً مع جماعة من الأتراك الذين طرّفوا خيامهم المزينةَ حتى أصبحت قريبة جداً من خيامي ، لكني وجدتهم جيراناً غير لائقين لأنهم استغلوا عدة فرص لسرقة حاجات صغيرة لنا .

الثامن عشر من تموز (يوليو) :

وجدت أنه من الضروري عقد اجتماع مع القشيف من أجل دراسة موضوع رغباتي البعيدة ووجهات سيري التي لم يكن بالإمكان أن تُحدد وأنا في المأزق الذي وُضعت فيه دون أن أحصل على معلومات إيجابية بصدد موقع معسكر الباشا ، والفترة التي سيبقى سعادته خلالها في موقعه الحالي والعدد المحتمل للأيام التي نحتاجها لنتمكن من الوصول إليه ، بالإضافة إلى تثبيت موعد التحرك في الثاني والعشرين من الشهر الجاري . فأجاب القشيف على هذا قائلاً : « إن معسكر الباشا كان عند سدير وهو مكان ربما يَصل إليه خلال عشرة أيام أو اثني عشر يوماً من تاريخ مغادرته هذا المكان ، وأنه استلم رسالة من الباشا تصرح برغبته في انتظار وصول القشيف » كانت التأكيدات التي قدمها القشيف مغرية جداً . فقد بدا متفاعلاً مع اهتماماتي وموضوع وصولي إلى معسكر الباشا حتى أني صممت على أن أقبل عرضه الطوعي بتزويدي بعدد كافٍ من جمال الحامية ليمكنني من الوصول إلى معسكر الباشا برفقته « إذْ أكد لي أنه سيوجه جميع الرسائل وأن الاتصالات مع القطيف ما ينبغي أن تغلق . وأما بالنسبة لموضوع عودتي فإن الباشا سيتعهد ذلك الموضوع ... » وسيتحدد تسليم الهدف من مهمتي خلال أيام معدودة بحسب ما أرى من إيجابيات نحو إقامة تعاون مشترك فقد بدا لي أن سياسة الباشا وجميع أفكاره ترتكز على افتراضات يحتمل أن تكون خاطئة في بعض نقاطها . وبما أني لاأستطيع أن أشكل من خلال الواقع الحالي أي رأي آخر بالنسبة للموضوع زيادة عن الخواتيم التي أكدتها ، فإني أعتبر أنه من الحكمة أن ألتزم بالتعليمات التي تلقيتها وأن أقوم بما لدي من جهد لأحظى بمقابلة الباشا . من أجل ذلك أرسلت رسالة في اليوم التاسع إلى القشيف أُعلمه بها أني وصلت إلى هذا القرار النهائي انطلاقاً من تاكيداته ووعوده ، فكان الجواب الشفهي الذي أعطاه لحامل الرسالة ـ لأن القشيف بالذات لم يحصل على العلم والثقافة الحرة ـ قد بدا مرضياً ومشجعاً وقد وعد عدة مرات أنه سيفي بعهوده .

أرسلت الرسالة التالية :

إلى الشريف السيد إيڤان نيبيان ،

رئيس وحاكم المجلس ، بومباي

السيد الشريف

« لي الشرف أن أوجه لكم رسالة لدى متابعتي لسيري في السابع عشر من الشهر الجاري وأن أعلمكم بأني قد عقدت اجتماعاً هذا المساء مع (محمد آغا) (وكفتن آغازي) (وقشيف الأحساء) . وقد أدركت ضرورة أن أوضح لهذا الضابط الذي يشغل منصباً مرموقاً الحالة الصعبة والمعقدة التي أعتبر نفسي متورطاً فيها ، ولأطلب منه توضيحاً للنقاط التالية : أولاهما عن توقع وصولي إلى معسكر الباشا قبل رحيل سعادته ، مع العلم أني سأرافق جنود حماية القشيف في الثاني والعشرين من الشهر وهو اليوم المعين لمسيره ، فأجاب بأنه سيصل معسكر الباشا في سودَيَر بالتأكيد خلال فترة تتراوح بين عشرة واثني عشر يوماً من ذلك التاريخ ، وأنه سيؤمن حماية لترافقني . وأن الباشا كتب له مؤكداً بأنه لن يغادر من هناك قبل وصول القشيف وأنه ما ينبغي أن تراودني أية شكوك بالنسبة لهذه النقطة » .

« وفي إجابته على اقتراحي الثاني المتعلق بإبقاء الاتصال مفتوحاً أكد لي أن جميع الرسائل سترسل إلى القطيف . أما بالنسبة لعودتي من معسكر الباشا إلى القطيف فقد أكد لي بأن الباشا يملك وسيلة تأمين ذلك الموضوع » .

« لم أحصل على أية معلومات تمكنني من تشكيل رأي أكثر وضوحاً بالنسبة للأفكار المتوقعة للباشا من خلال المعلومات الوجيزة التي تشرفت بوضعها بين يدي مجلسكم الموقر في رسالة السابع عشر من الشهر الجاري ، فالاستعدادات القائمة من أجل رحيل القشيف قد اكتملت فأصبحت مضطراً لأن أحدد مسيري في الأيام

التالية ، وعلى الرغم من أني لا أتوقع وجود تعاون مشترك بين قوات الباشا فإني أتصور أني سأنهي موضوع مهمتي دون الحصول على مقابلة مع الباشا ، لكني أعتقد أن أياماً معدودات من الآن ستحدد تمكني من تحقيق هذا الهدف من أجل التحقق من مناطق نفوذه الرئيسية ومن أفكاره السياسية ، لكني أتوقع أن أواجه اعتراض الحكومة على هذه الناحية ، لذلك قررت أن أشرع بالمسير مع القشيف في الثاني والعشرين من الشهر الجاري ، مع ثقتي بأن هذا القرار سيلقى استحسان وموافقة الحكومة » .

« لي الشرف أن أكون ....

« الأحساء ١٩ تموز ١٨١٩ »

لاحظت أنه من الضروري تهيىء هدية مناسبة للقشيف الذي أخبرت بأنه ضابط ذو مركز مرموق في جيش الباشا . لذلك أرسلت له هدية لدى وصوله إلى المخيم عند الظهيرة ، فإذا به يتسلمها بغاية الرضى فعلمت من ذلك أنه كان مسروراً من سلوكي معه .

الحادي والعشرون من تموز (يوليو) :

رأيت أنه من الحكمة أن أرسل رسالة إلى شيخَيْ بني خالد لأتحقق منهما فيما إذا كانا لا يزالان مصممين على مساعدتي وحمايتي في طريق العودة . ولقد أمضيت عدة أيام وأنا في غاية الشوق للاجتماع بهما ، لكن رحيل القشيف ومشاجرتها مع قبيلة (العجمان) بالإضافة إلى ظروف محلية متعددة منها كوني تقدمت طالباً وجهة نظرهم بشكل أسرع من المعتاد ومنها طمسي لذلك الهدف البعيد الذي حدثتهم به من قبل والذي أجّلا الخوض به حتى عودتي .

أرسلت الرسالة التالية :

من الكابتن سادلير :

إلى الشيخ محمد والشيخ ماجد آل عريعر ، شيخَي بدوِ قبيلة بني خالد ،

« مضت سنون طويلة وأسرتكم النبيلة ممتلكة لهذه الأقاليم ومعتادة على تبادل العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية . لكن التغييرات التي حدثت منذ ذلك الوقت وضعت حكام هذه المنطقة في حالة عداء مع الحكومة البريطانية بين الفينة والفينة ، خاصة خلال سلطة الوهابيين ،. ولقد أُنقذت هذه الأقاليم من تلك السلطة ، التي مُحيَت الآن من الوجود ، وأعيدت إلى أسرتكم الشهيرة . وإنه لمن حسن حظي أن أصل إلى المنطقة في هذه المَرْحلة . وقد أعلمتماني شفوياً حتى الآن أن أسرتكم ترغب في تجديد العلاقات الودية السابقة التي ستسفر عن نفع كبير في الوضع الراهن الذي ترغب الحكومة البريطانية من خلاله أن تتعرف على التغييرات والتعديلات التي حدثت مؤخراً . فإذا ما برهن ذلك على وجود الميل الودي نفسه الذي أوضحتماه لي حتى الآن لصار من المؤكد أن ترغب الحكومة البريطانية في إقامة تلك العلاقات . ومن الضروري أن أكشف لكم عن حقيقة هي أن سفينة حربية تنتظر عودتي إلى القطيف في الوقت الحاضر ، فهو الميناء الذي يخضع لسلطانكما بلا شك ، وأني اعتبر نفسي تحت حمايتكما من تاريخ وصولي إلى حدود أقاليمكما وخلال عودتي من معسكر الباشا وحتى تاريخ التقائي بالسفينة التي في مينائكما ، القطيف . ولا شك أن هذا الأمر سيهيئ لأسرتكما فرصة طيبة لتبرهن على مقاصدها الودية ، وذلك بممارسة نفوذكما لصالح مندوب عن تلك الحكومة خلال إقامته في أراضيكما » .

خاتم

كابتن سادلير

ترجمة دقيقة

« مؤرخة في الأحساء ٢١ تموز ١٨١٩ للميلاد و ٢٨ رمضان ١٢٣٤ للهجرة »

زارني الشيخ محمد ، الرجل الكامل الصمّ والمتقدم في السن الذي لا يليق به أن يقوم بإجراء مفاوضات ، زيارة سريعة أكد لي فيها أن أكون مطمئناً إلى تمكيني من تحقيق رغباتي كلها ولم ينتظر من أجل الدخول في تفاصيل دقيقة ، لذلك قدمت له الرسالة التي جهزتها وغادر لكي يسارع في ترحيل القشيف . تلقيت جوابه بعد ساعات قلائل فوجدته مقتضباً ، وأغلقت حقيبتي التي عهدْت بها إلى الشيخ خميس لأسافر بواسطة (الفيستال) ، وهو الشخص الذي أتيت به دليلاً من بوشير . وقد اضطرني سلوك هذا الرجل إلى أن أصمّمَ على عودته فقد قام بالكثير من المراوغات ، لذلك منحته فرصة العودة هذا المساء بعدما وعدني بالوصول إلى القطيف في الرابع والعشرين من الشهر الجاري .

أما الرسالة التالية التي أرسلتها إلى الكابتن بروس فتوضح الحذر الذي ينبغي أن يمارَس عند اختيار الأدِلاّء ومدى الثقة والاعتماد الذي يمكن أن يوضعا في تلك النوعية من الناس حتى ولو كان يتحلى بأفضل الصفات :

الأحساء ١٢ تموز ١٨١٩ .

عزيزي بروس ،

« بعد تأخري الاضطراري الذي تحدثت لك عنه في الرسالة السابقة انطلقت وفقاً لنصيحة الشيخ خميس تحت حماية شيخ بدوي (ابن شقيق ماجد ومحمد) عرفني عليه خميس ونظراً لأني بقيت عدة أيام رافضاً السير بهذه الطريقة ، ولم أتحرك في نهاية الأمر حتى تلقيت منه تأكيداً إيجابياً بأنه سيكون محل ثقة كاملة فقد عهدت ترتيب أمور السير واستئجار الدواب وغير ذلك لخميس الذي جمع كل شيء في أنسب وزن ممكن وحمّل نفسه المسؤولية بكاملها ... » .

« وفي اليوم الخامس طلب خميس هدية للشيخ مشرف ، الأمر الذي رفضت

الموافقة عليه إلى أن نصل إلى غايتنا ، لكنه أصر حتى بدا عليه نفاد الصبر ، لذلك اضطررت إلى الموافقة فجهزت الهدية ، كما اعترض خميس على السعر الذي سُر من قبل بتقديره (وهو أربعمائة وخمسون قرشاً) فراودتني من هذا التصرف بعض الشكوك بأمانته ، فأرسلت الهدية مع خادمي الخاص وهو عربي فقبلها مشرف بامتنان ، لكنه أتى خيمتي قبل مضي نصف ساعة رافضاً تحميل الأمتعة أو إرسال الخيل مالم أدفع له ستين دولاراً أجراً لها ، ومصرحاً بأن قيمة الهدية لاتكفي مكافأة لأتعابه » .

« سبق أن انسحب خميس بشكل خفي وأرسل رسالة خاصة لمشرف ، الأمر الذي عزوت إليه هذا التصرف وكنت قد منعته من الاتصال بمشرف بصدد هذا الموضوع توقعاً مني بأنه يميل إلى الاهتمام بمشرف أكثر من اهتمامه بي . وتصرف البدوي بشكل همجي فرفض أن يسمح لنا بالتحميل وأمر رجاله أن يعتزلونا ونحن على هذا الحال دون قطرة ماء » .

« أخذ خميس حذره سلفاً لتأمين وسيلة نقل لنفسه من الشيخ الذي كان مستعداً لأن يغادر معه » .

« وعندما وصلنا معسكراً للبدو عند أم ربيعة طلبت من خميس أن يؤمن الجمال لاحتمال انطلاقنا مساء ، وقد بلغته هذا الأمر في الثامنة صباحاً ، لكنه لم يكلف نفسه أدنى مشقة من أجل الجمال على الرغم من أنه الشخص الذي تم الاتفاق على استئجارها عن طريقه وبرضاه » .

« اضطررت بعد تأجيل استمر ثلاثة أيام إلى إرسال خادمي الذي استأجر جمالاً غيرها خلافاً لما تم الاتفاق عليه عن طريق خميس ، فقد عرَّضنا أنفسنا إلى زيادة دولارين عن كل رأس وتأخير إضافي مقداره يومان » .

« ومن هنا ستدرك أنه كان مستحيلاً بالنسبة لي أن أكبح جماح نفسي مادام

هذا الرجل باقياً إلى جنبي ، لذلك أمرته أن يتوجه إلى القطيف لإيصال بعض الرسائل وليهيئ نفسه للذهاب إلى بوشير ليوصل إليك هذه الرسالة ، وفي هذه الحالة يمكن أن يعطى جزءاً من أجرته[1] بينما لا يُدفع الباقي إلا من الطرف الآخر » .

« سادلير »

ينبغي علي قبل انطلاقي من الأحساء أن أقدم بعض الوصف لهذه المقاطعة . تدعى البلدة الرئيسية المحصنة فيها الهفوف ، أسوارها من الطين ترتفع حوالي خمسين قدماً ومحاطة بخندق عميق جاف ، لها بوابتان ، والبيوت التي داخل الحصن متواضعة ، توجد إلى الشرق منها قرية غير محصنة تحيط بها أراض زراعية محروثة ومزروعات نخيل ، ولا يصل تعداد سكان الهفوف وضاحيتها إلى خمسة عشر ألف نسمة ، قد يشكل ستمائة منهم قوتها العسكرية .

ثم حصن (المبرز) الذي يقع على بعد ثلاثة أرباع الميل شمالي هفوف ، قراه شامخة البنيان ومحاط بخندق عميق جاف ، ليس له سوى بوابة واحدة وضواحيه غير المسورة ليست باتساع ضواحي هفوف ، وعدد سكانه يقارب عشرة آلاف نسمة ، يعتبر أربعمائة منهم قوة عسكرية . تمتد مزروعات النخيل باتجاه الشرق لتزين قرى صغيرة وكبيرة غير محصنة ، يروى أنها تحوي خمسين ألف نسمة . تروي مزروعاتها كمياتٌ وفيرة من الماء العذب الذي يأتيها من الآبار ومن عدة بحيرات ، لكني لم ألمح أثراً لنهر أو جدول يشكل أي اتصال بين هذه البحيرات وعندما سألت عن هذا الموضوع أكد لي العرب والأتراك كلاهما عدم وجود مثل هذا النهر .

---

(١) على الرغم من محاولة تقييده وربطه بهذا الأسلوب لم يعد هذا الشخص إلى بوشير حتى مضى أربعة أشهر . وكان من حسن حظي أن أخذت حذري فأرسلت الرسائل على نسختين ، فأمنت النسخة الثانية مع مبعوث وصل السفينة . فدفع له مبلغ لقاء نقلها .

يزرع القمح والشعير والرز في الأراضي المجاورة لهذه المزروعات لكن فواكه الأحساء وخضارها ليست من النوع الجيد . وأما بالنسبة لما اقتنيناه فكان بعض المشمش الرديء والتين الجاف القاسي والبطيخ السيء ، كما أن للبصل شكل جزر لاشكل بصل ، ويُعزى هذا طبعاً إلى كون التربة رملية وإلى الزيادة المفرطة في الماء المستعمل للري . وينمو شجر الطَّرْفاء (وهو ذو أغصانٍ نحيلة) إلى ارتفاع عالٍ ، وهو مُقلم بشكل دقيق ويستعمل بشكل أساسي لسقف البيوت .

يمكن أن يُنتج هذا الوادي مؤناً تكفي سكانه ، لكن البدو يحتاجون إلى كل محصول التمر الذي يعطي مع الإمدادات التي ترسل إلى الداخل شهرة لتجارة رابحة مع البحرين عن طريق ميناء عنجير ونظراً لأن حركة ميناء عنجير قد أُعيقت مؤخراً بسبب قبيلة العجمان فقد توقف بيع الشعير والرز في الأحساء .

وبعد الظهر أنجز القشيف ذلك الجزء من وعده الذي يتعلق بإرسال الجمال ودليل (مهمندار) وحصان ، فكان المعسكر يتلاشى وبدأنا بالسير في الحال ، ولم أُسَرَّ بسماع أي شيء من القشيف منذ استلم الهدية ، وفي مساء هذا اليوم امتطى صهوة جواده ، وانطلق دون أن يسأل عني وتبعه الدليل بالرحيل ، وهذا يجعلني أستنتج أن حُسن وِفادة الغريب والاهتمام به لا يشكلان أي جزءٍ من المبادئ العسكرية للجيش التركي ، إذ إني لم أتلق أية إشارة تدل على اهتمام شخصي من قبل أي فرد من تلك الأمة خلال إقامتي مع الأتراك .

سرنا في الخامسة مساءً من اليوم الحادي والعشرين ووصلنا المكان المعين كنقطة تجمع في الثامنة في قرية حويفرات المُسورة والمحاطة بمزروعات كثيرة للنخيل ومزودة بكمية لا بأس بها من الماء من ينبوع حارٍ وبحيرة كبيرة ، وقد بدا هذا الجزءمن الصحراء أرضاً قاحلة وموحشة ، وقد مررنا بمخيمين للبدو في خيام سوداء ، وقد قدرت المسافة بخمسة أميال باتجاه الشمال والشمال الغربي للأحساء ، وكانت سلسلة الجبال التي إلى الشرق منا تمتد من الشمال إلى الجنوب .

الثاني والعشرون من تموز (يوليو) :

كان جميع النـاس في هـذا اليوم مشغولين بملء أوعيتهم بـالمـاء ، إذ علينـا أن نسافر مساء سالكين الطريق الشمالي ، ولا يتوقع الأدلاء أن نصـادف ولو بئر مـاء واحـد خـلال المراحـل الثـلاث الأولى للمسير . لم يكن الأتراك يسمحـون لجمـالهم بالرعي خارج المعسكر خيفـة أن يسوقهـا البـدو ويهربوا بها جميعـاً . انطلقنـا في الخـامسـة والنصف مسـاءً سـالكين جهـة الشمال الغربي وتـوقفنـا في الصحراء في السـادسة والنصف صباحاً من اليوم الثالث والعشرين . كان الخفراء متيقظين جداً وكان هذا المكان يقع في أرض أعلى من الأحساء ، حيث الصحراء قاحلـة كالمعتـاد فلا يبدو فيهـا سوى أجمات صغيرة من الأعشـاب ، ولا يمكن أن يتردد على هـذه البقعة أناس كثيرون لأنه لا يمكن أن تدبر فيها ولا قطرة ماء .

الثالث والعشرون من تموز (يوليو) :

سرنا في الخامسة إلا ربعاً من مساء الثالث والعشرين وتابعنا طريقنا باتجـاه الشمال الغربي حتى الثانية إلا ثلثاً من الرابع والعشرين منـه حيث نزلنـا إلى جوار مخيم بدوي فنمنـا حتى بزغ ضوء النهـار حيث تحركنـا حوالي خمسـة أميـال بـاتجـاه الشمال ونزلنا عند آبار أم ربيعة وهي منطقة احتُجِزْت فيها ثلاثة أيام .

الرابع والعشرون من تموز (يوليو) مساءً

أبطل المسير بشكل غير متوقع وحططنا الرحال تلك الليلة .

الخامس والعشرون من تموز (يوليو) صباحاً

لم يسمح الأتراك للبدو ، كعـادتهم ، أن يسحبوا الجمـال للرعي خـارج المخيم . فالجمال جـائعـة جوعـاً مهلكاً والبـدو متـذمّرون والأتراك يقسمون الأيمـان ، فولى البدو هاربين بعـدد من الجمـال ، وهم الـذين استلموا فيما بعد قسماً من الأجور التي

وزعها شيوخ القبيلة الجشعون على شكل حصص لأصحاب هذه الحيوانات .

سرنا في الساعة الرابعة مساءً ، ونظراً لأننا لم نتوقع أن نصادف ماء فقد حُمّلت جميع الجمال المخصصة للماء وتابعنا حتى الواحدة والنصف باتجاه الشرق عبر منطقة ذات تلال قاحلة أكثر تماسكاً من غيرها ، وليست رملية كالصحراء المنبسطة . فنزلنا هنا لأننا اكتشفنا ماء في بئر كبير في السهل الذي تطوّقه التلال ، وقد بدا لنا أن هذا الماء ناتج عن تجمع أمطار الشتاء في هذا السهل ، فهو ماء غير مستقر لكنهم لم يرقبوا في هذا الماء احتراساً ولا نظاماً فسرعان ما جف البئر فازداد مسيرنا في الليل بطأً وغماً عما كان عليه في المسير السابق . وقد كانت الحامية تتألف من ستمائة جمل تتحرك على شكل عشرات وخمسينات ، فأمتعة كل شخص تشكل مجموعة منفصلة . ونظراً لأن ضوء القمر كان أضعف من أن يمكنني من تعليم الطريق بالبوصلة بأية درجة كانت من الدقة فإني لاأتصور سوى أن آخر جزء من طريقنا كان باتجاه الغرب والشمال الغربي .

بدت لي الحكمة والتعقل في ناحية واحدة من ترتيبات مسيرنا مما دفعني إلى أن أتذكر الدقة في تشبيه يدلي به العرب عندما يقارنون الصحراء بالمحيط ويعتبرون الجمل سفينة الصحراء . تقدم حارس يرافقه بعض الأدِلاّء نحو الأمام بأمر من أحد ضباط الفرسان ، وقد رفع فانوساً كبيراً عالياً فوق عمود مثبت إلى محمل الجمل فبدا كأعلى ضوء لسفينة نجدة تمخر الماء ، حيث يتوقع لهذا العمود أن يلفت انتباه الشاردين . وأطلقت عيارات نارية من عدة مسدسات من المقدمة إلى المؤخرة خلال الليل لإظهار موقع مختلف المجموعات ولتجنب امتدادها إلى مساحة واسعة .

السادس والعشرون من تموز (يوليو) :

ملأنا مخزوننا من الماء ثانية بعد الظهر ، وكان هذا الظرف من حسن حظنا لأن البئر قد جف . سرنا في الرابعة مساء ملتزمين اتجاه الغرب ثم الجنوب

وحططنا الرحال في الثامنـة صبـاحـاً من اليوم الـسـابع والعشرين في موقع مرتفع لا يتوفر فيـه المـاء ، والهـواء أبرد نـوعـاً مـا ، والصحراء مغطـاة بكميـات أكبر من التجمعـات العشبيـة والشجيرات الصغيرة . وقـد راقبت شجرة الميموزا (السـنـط) وهي مزهرة بالإضافـة إلى بعض الأشجـار البريـة الجرداء التي تنتج الخوخ ، وقد عرفتها لأنها تنتشرفي جميع أنحاء الهند .

رأينـا بعض الـوعـول واثنين أو ثـلاثــة من الأرانب البريــة مقتــولـة على الطريق . وقد كانت المواقع المعـدودة التي رأيت فيهـا الوعول والظبـاء تلـك التي لا يتوفر فيهـا المـاء ، لأن جميع الآبـار عميقـة جـداً بـالنسبـة للحيوانـات ، ولأنـه لا يُتوصل إلى المـاء دون وسـائل مصنوعـة ، وإني لأتصور أن شهوراً تمضي دون أن تتمكن من تـذوق طعمــه . وقــد كان هــذا المسيرعلى الطريـق المعـد للسير من الأحسـاء إلى (رماح) .

انطلقنا في الساعة الرابعة من مساء الـسـابع والعشرين وتـابعنـا على الطريق المرتفعة حتى منتصف الليل عندما ضللنا عنه ، فقد أصبحت الصحراء رملية ، ولم نتوقف حتى السـاعـة الثـامنـة من صبـاح الثـامن والعشرين بطريق غربي . وقـد مات أحد الأتراكِ في الطريق ، بالإضافة إلى بعض الجياد ، مع العلم أننا لم نحصل على أي ماء خلال هذه المرحلة .

من حسن حظنا أن كان النهار غائماً وأبرد نوعـاً مـا ، وقـد شرد الجمل الـذي كان يحمل أعمدة خيمتي وجدرانها بسبب غفلة السائقين وضاع الجميع إلى الأبد .

وقد التقط أحد البدو قنفذة في الطريق وأحضرها لي هـديـة ، لم تكن تلـك القنفذة كبيرة كتلك التي اعتدت أن أراها في الهند ، وعندما أشبعت فضولي منهـا أعـدت هـذا المخلوق الصغير إلى البـدوي الـذي كرر عليـه قـول بسم الله ثم ذبحـه وسلخه ونصبه فوق الفحم وصنع منه شواء رائعاً . والبدو يأكلون جميع الحيوانـات

البرية لأنها مخلوقة لصالح الإنسان ـ عدا الخنزير ، ولا يبدو عليهم اشمئزاز من تناول أي شيء تصل إليه أيديهم وتعتبر الحيوانات الموجودة في صحراء الجزيرة العربية على كل حال أقل من حيوانات أي برّ على وجه البسيطة . وربما يكون بإمكانك أن ترى خلال السير الطويل فوق منطقة مكشوفة لناظريك ما يعادل اثني عشر جربوعاً وثلاثة أو أربعة أرانب برية صغيرة إلى درجة تلفت الانتباه ، وكثيراً من السحالي وما يقارب ستة من الجواميس ذات الصدر الأسود ، كما توجد بعض الحمامات الزرقاء ، أما الغربان فنادراً ماتُرى هناك .

الثامن والعشرون من تموز (يوليو) :

انطلقنا في الرابعة مساء مسيرة ثلاث ساعاتٍ باتجاه الغرب حيث نزلنا في رماح فوجدنا فيها معسكر بدوٍ تابعاً لقبيلة سبيع التي يصل تعدادها إلى ألفي أسرة . هنالك سبعة آبار عميقة ، فتموّنتُ وأحضرت معي أربعة أعمدة وعجلتين لأنصب هيكلاً من أجل سحب الماء ، يبلغ عمق كل بئر سبع قامات ، وقد استعملنا الجمال لسحب الدّلاء .

لم يصل كثير من الناس إلى المرحلة الأخيرة عندما انطلقنا منها . ولقد مات العديد من المتسولين الفارسيين وممن أتوا من كابول وانطلقوا معنا أملاً في مرافقة هذه الحامية ليتأكدوا من طريق مكة نتيجة للجهد والحرمان من الماء . وعندما تحركنا من هناك مساء لم يعد في حوزتي سوى دِنٍّ واحد من الماء الذي جلبته معي ، والذي كنت فيه حراً بقدر ماتسمح به الحكمة والتدبير . ومن موقعنا في هذه المنطقة (رماح) التي يظهر معناها من اسمها : وهو الرمح أو مكان المعارك التي تجري في وسط الصحراء ، تبدو أهمية هذه المنطقة من الصحراء . ولربما من السهل أن تمتلئ هذه الآبار ثانية ، كما أنه لا يتوقع أن نعود من هذا الطريق من أجل ذلك كان وضع اليد على أمثال هذه الآبار مسألة لها من النتائج الهامة في هذه الصحراء ما يعادل فوائد قلعة حصينة مشيدة للحماية في القارة الأوربية .

التاسع والعشرون من تموز (يوليو) :

شغلت عملية الاستقاء جميع الناس ، وانسحب مخيم العرب مبتعداً عنا مسافة ليفسح المجال للحامية . وقد وصل خلال النهار عدة أشخاص كنا قد خلفناهم ورائنا . وبعد الظهر حدثت عاصفة رعدية تبعها مطر غزير جداً فاقتلعت خيام المعسكر وانتقع جميع الناس في الماء . وهبط الليل قبل أن نتمكن من إصلاح الأضرار المتبقية التي كانت ذات نتائج خطيرة في موقعنا هذا ، فكل الأحمال كانت مشبعة بالماء . وقد سبق للباشا أن زار هذه المنطقة من عدة شهور مضت بعد استيلائه على درعية فعاقب هذه القبيلة لأنها أبت أن تنصاع لأوامره المتعلقة بإسهامها في القضاء على الوهابيين .

وفي هذا المكان سنحت لي فرصة مشاهدة الجمل وهو ينفذ عملاً شاقاً ربما يتصور أحدنا أنه رديء التكيف معه بحسب طبيعته ، وقد جعلتني الدهشة أعجز عن التعبير عن مثل هذا المشهد غير العادي الذي تحول فيه الجمل إلى حيوان للجر . وقد أخبرني القشيف بأن مدافع الباشا كانت تجرها الجمال بشكل رئيسي من البحر الأحمر إلى درعية .

لم يكن الأتراك أكثر تقدماً بكثير في علم الميكانيك من العرب الذين كان يُعهد إليهم عادة القيام بهذه المهمة الشاقة ، لذلك لم تكن ترتيبات شد العدة على الحيوان ، أو تكييف قدراته من أجل الحصول على أفضل مردود لتُتوقع من أي من الفريقين على الرغم من أن البرهان على قابلية أو ملاءمة هذا الحيوان قد تأكد ، ويمكن أن يطور بشكل يزيد نفعه عن طريق الجيوش الهندية لو كتب لها أن تؤدي خدمتها في تربة وبلد مشابه لهذا البلد .

الثلاثون من تموز (يوليو) :

انطلقنا في السادسة والنصف صباحاً حيث تابعنا السير بأحمالنا ساعتين ، إذ يندر أم تتمكن الجمال من التحرك تحت وطأة أحمال مشبعة بالماء إلى درجة أننا لم

نتمكن من رفعها . وقد كان من الضروري أن نتحرك من هذه البقعة نظراً لأن البدو قد حُرِموا من الماء مدة ست وثلاثين ساعة فربما لا يقاومون العطش أكثر من ذلك . كان طريقنا باتجاه الجنوب والجنوب الغربي عبر منطقة ذات تلال تغطيها الحصباء . ولقد غار ماء المطر في أماكن كثيرة فبدت الصحراء منعشة بهطول هذه الأمطار التي سببت لنا الكثير من الأذى . نزلنا عند سُمامة (الثمامة ؟) في الساعة الثانية عشرة فوجدنا كمية ضئيلة من ماء المطر في وادٍ صغير شديد الانحدار على ضفته أشجار السنط ذات الحجم الكبير وقد جعلني المنظر العام للوادي أجزم بأن سيلاً كبيراً يجري فيه بعد كل وابل مطر خلال فصل الشتاء . كان الجو بارداً من الصباح حتى الظهيرة ، وقد سببت لنا حرارة الشمس شيئاً من الإزعاج ، ولكن مما تجدر ملاحظته أنه لم تحدث أية إصابة ضربة شمس حتى في أشد الأيام حرارة على الرغم من أن الناس معرضون إلى حرارتها بشكل مستمر .

توجد مقاطعة نجد إلى الغرب من (رماح) ، وتوجد مقاطعة (الدهنا) في الاتجاه الجنوبي الغربي ، وتوجد مقاطعة سُمامة إلى الشرق . وعلينا الآن أن نجتاز مقاطعة نجد .

الواحد والثلاثون من تموز (يوليو) :

انطلقنا في الخامسة والنصف صباحاً وتابعنا طريقنا على طول ضفة الوادي الصغير ، كانت التلال المرتفعة إلى جانبه مكونة من الحصى المغطاة بأحجار متفككة ،وهي جرداء تماماً وفي العاشرة والنصف أتينا آبار البيغة فوجدنا في أحدها بعض الماء الجيد . تابعنا بعدها حتى الواحدة بعد الظهر وهبطنا تلك التلال سالكين منحدراً وعراً جداً انبثقنا منه إلى سهل (العرمة) حيث حططنا الرحال في الثانية والنصف في مكان خال من الماء . كان القسم الأول من طريقنا يتجه نحو الجنوب الغربي ، وعندما اقتربنا من هذا المكان كان اتجاهنا غرباً . أما

هذا السهل فقد غطته الحجارة وهو أجرد تماماً . وقد وجدنا في الوادي بعض البحيرات الصغيرة المتشكلة من ماء المطر ، لكن السهل خال منها تماماً . وكان الوادي يتجه غرباً ثم إلى الجنوب الغربي ثم يضيع في الصحراء . وتعتبر العرمة قسماً من مقاطعة (المساجدي).

ولقد عانينا الكثير من إزعاج حرارة الشمس المحرقة خلال هذا المسير ، كما خُتم الليل بعاصفة رعدية مصحوبة بوابل غزير من المطر . كانت البقعة التي خيمنا فيها من هذا السهل منخفضة جداً فإذا بسيل من ماء المطر يندفع من الأراضي المرتفعة ويغمر المعسكر .

الأول من آب (أغسطس) :

سرنا في السادسة والنصف صباحاً ونزلنا سهلاً آخر ، فاجتزناه بالإضافة إلى سلسلة من التلال الرملية فوصلنا غَحْ البَبّان في الثانية عشرة حيث وجدنا جدولاً من ماء المطر يدعى نِفوز الببان (بنبان) الذي أغرى القشيف للتوقف . ولقد أصابنا الغم من شدة حرارة الشمس . وكان طريقنا يسير غرباً ثم جنوباً ثم غرباً خلال الجزء الأول ، أما الأخير فكان يتجه غرباً . أرسل القشيف بعض الرجال العرب للحصول على معلومات عن الكتيبة التي أُمر بسحبها من السلمية لأنه لم يحصل على أية معلومات عنها حتى الآن . فجعلنا هذا الظرف نقوم بالتفاف باتجاه الجنوب .

الثاني من آب (أغسطس) :

سرنا في الحادية عشرة قبل الظهر باتجاه (منفوحة) ونزلنا في الجبال في الساعة الرابعة مساءً وهنا اضطرتنا إلى التوقف عاصفة رعدية رهيبة ووابل من المطر في ورطة مُزرية تماماً ، والهواء شديد البرودة .

الثالث من آب (أغسطس) :

تابعنا طريقنا إ لى منفوحة الـذي يتجـه جنوباً وخيمنـا في حـدود ميل من ذلك المكان الذي يحيط به حطـام واسع لأسوار وأبراج ، وهـذا يشير إلى أن هـذا المكان كان في يوم من الأيام مزدهراً . وتقع درعيـة في واد ضيق شـديـد الانحـدار إلى الشمال الغربي لمنفوحة وعلى بعد عشرة أميال عنها ، وهي الآن في حالـة دمـار كامل ، أما السكان الذين تبقوا أو نجوا من الذبح فقـد بحثوا عن ملجـأ لهم في هـذا المكان بشكل رئيسي . وخُتم النهار بوابل غزير من المطر وعاصفة رعدية .

أرسل القشيف نصف كتيبة باتجاه السلمية ليُمكِّن المجموعة المتمركزة هنـاك من أن تجد نقطة التجمع ، ويبدو أنهم قد انشغلوا في قتال مع البدو ، ومع أن التقرير ذكر أنهم يصلون إلى مائة فارس فـإنهم لم يستطيعوا أن يتركوا مركزهم الـذي نزلوا فيه ليلتحقوا بمجموعتنا التي اضطرت في النتيجة إلى القيام بالتفاف نحو الجنوب .

وعندما نصحني القشيف في رماح بأن أرسل بدويين وأحد عنـاصري مسـافـة مرحلة نحو الخلف على أمل أن ينقـذوا الجمل ويستردوا الخيـمة التي فقـدت في اليوم الثامن والعشرين ، وافقت على الفكرة لأنه سبق أن قرر بأن يمكث في رماح مدة يومين . رجع صاحبـا الجمل ليبحثـا عن جملها وامتطى صـاحبي جمل ركوب سبق لي أن اشتريتـه من أم ربيعـة ورافقهما . لكنهم أخفقـوا في بحثهم وعـادوا إلى آبـار رماح بعد ساعتين من رحيلنا ، وقد قَبض عليهم بـدو قبيلـة سبيع وأخـذوا سلاح صاحبي وجمله وأوشك أن يُستل سيف البدوي القاتل من غمـده ليضع حـداً لحيـاة صاحبي لولا أن ذكرهم بأنه عربي من الساحل الآخر متوسلاً إليهم أن يحفظوا عليه حياته ، فأجّلوا قرار قتله إلى صباح اليوم التـالي حيث جُرد من ثيـابـه وسمح لـه بالذهاب بصحبة البدويين الذين عوملا معاملة لطيفة من قبل بدو تلك القبيلة . ولقد أجبر البدويان الهمجيان هذا الرجل التعيس على السير حافي القدمين أربعـة

أيام كاملة ، وكانا يعطيانه في كل يوم مقداراً ضئيلاً من حليب الجمل ولا يسمحان له بمشاركتهما ولو بلقمة واحدة من المؤن التي حصلا عليها من المخيم البدوي ، وقد وصلوا جميعاً قبل ظهر هذا اليوم .

ينبغي أن يُقطع الطريق الغربي من الأحساء إلى الدرعية باتجاه السلمية خلال عشرة أيام وقد عبَّر القشيف عن عزمه على السير من الطريق المعتاد على الرغم من أنه كان قد صمم منذ زمن بعيد أن يتجنب مواجهة قبيلة بني سعده لذلك حول طريقه فجأة باتجاه الشمال ثم الغرب وأرسل رسولاً ليأمر مجموعة السلمية بالالتحاق برماح المكان الذي ربما يسمع به خبراً عن تلك الكتيبة ، فانعطف لذلك نحو الجنوب . وبعد مسير مُضنٍ مدة أربعة عشر يوماً وصلنا هذا المكان ونحن تالفون تماماً من التعب . وقد كان سفرنا خلال الجزء الأول من السير ليلاً حيث تكون فرصة التعرض لهجوم ماضئيلة ، الحالة التي لم تستطع فيها مجموعتنا القيام بواجبها المضاعف في صد هجوم من ناحية ، وفي حراسة جَمَّاليهم الذين يخصونهم من ناحية أخرى ، لأنه من دواعي سرورهم أن يندمجوا مع المغيرين أو أن يرموا بأحمالهم ويولوا الأدبار . وفي هذه الحالة سيكون مصيرنا المحتوم أن نسقط فريسة في أيدي هذه الجماعة أو تلك ، لأنه لابد لمخزوننا من الماء ومؤنتنا وأمتعتنا من أن تكون قد سقطت في أيديهم . لم أستطع الحصول على أية معلومات تخص مجموعة السلمية ، لكني تصورت من خلال القلق الذي بدا على القشيف أنها لابد أن تكون في موقع محفوف بالمخاطر .

حططنا رحالنا مدة ثلاثة أيام متوقعين عودة المجموعة من السلمية ، وقد كان لدي من الفراغ في هذه الفترة ما يسمح لي بزيارة منفوحة ، التي تحوي مايقارب ألفي أسرة ، وفيها بعض البيوت الجيدة مبنية بالطين والحجارة ، وبعضها يتألف من طابقين نحو الأعلى وسطوح منبسطة . أحيط هذا المكان بسور وخندق أمر الباشا بمحوهما . أما قرية الرياض فواقعة إلى الجنوب على بعد ميل

تقريباً يفصلها عن منفوحة دمار الأسوار والبيوت . وسكان الرياض لا يعادلون بجودتهم سكان منفوحة ، وكل قرية محاطة بمساحات واسعة مزروعة نخيلاً تحصل على الماء من آبار عميقة . وفي فصل الشتاء تشكل السيول المندفعة من الجبال الجرداء جدولاً كبيراً يغمر الوادي . وقد كان السكان في تلك الفترة في حالة من البؤس تفوق أية فترة سبقت منذ تأسيس قوة الوهابيين . محيت أسوارهم التي كانت تشكل الحماية الرئيسية لممتلكاتهم . وقد وجد الكثير من سكان درعية ملاذاً لهم في بساتين النخيل . وكانت القوات التركية قد استهلكت محصول العام فلم يبق لديهم قمح ولا شعير يشترى ، ولم يكن في هاتين القريتين جواد واحد .

أظهر هؤلاء السكان مقاومة على الرغم من حالة البؤس التي يعيشونها ولم يسمحوا خلال اليوم الأول لأي فرد من مجموعتنا بدخول أي من القريتين ، فوضعوا المتاريس أمام بيوتهم وظهروا بأسلحتهم فوق السطوح المنبسطة . رفض شيخهم أن يزور القشيف . وقد ابتزوا بالمؤن التي عرضوها فيما بعد ما يعادل أربعة كراونات ألمانية ثمناً لكل شاة وطلبوا قرشاً ثمناً لكل ثلاث بيضات ، والنسبة نفسها في سعر الدراق الفاسد والتين ، كما كان البطيخ الأحمر والشمام رديئين جداً . وكانت الخضار الوحيدة التي بصرت بها قليلاً من الباذنجان والبصل والسبانخ . وقد اشترينا بعض البرسيم والتين من أجل الدواب .

كان أردأ نوع من لحم الجمل معروضاً للبيع في ساحة مفتوحة بجانب القرية حيث كان هنالك ما يشبه سوقاً كان يعقد كل يوم منذ وصولنا . بدأت ندرة وجود الأنواع الأخرى الجيدة من اللحم منذ أن غادرنا الأحساء ، حيث كنا نستعمل لحم الجمل على وجه العموم ، فحالما تظهر على أحد الجمال علامات المرض ، سواء كنا مرتحلين أو معسكرين ، تكررت كلمة باسم الله لتحمل السكينُ مسؤولية الانطلاق السريع باتجاه الجمل التعيس ، وسرعان ما ينفصل اللحم عن

العظم الذي لا يفككك عن بعضه بعضاً ، بل يبقى الهيكل العظمي في السهل علامة لطريقنا .

توجد زراعة قطن في الحدائق المجاورة لكلا القريتين ، بينما كانت فلاحة القمح والشعير في الفترة التي سبقت قائمة على قدم وساق ، بالإضافة إلى الذرة الهندية .

كنت فريداً بالنسبة للمجموعة كلها في استفساراتي التي تتعلق بآخر وابل من المطر الغزير فقد كان بالنسبة لي حدثاً لم أكن أتوقع حصوله في الجزيرة العربية في هذا الفصل من السنة . وقد أخبرني القرويون أنه لم يسبق أن حصلت مثل هذه الظاهرة خلال ما يتذكره أسنُّ رجل عربي في هذه القرية في سني حياته ، لكن الطقس المعتاد خلال فصل الشتاء بارد جداً في هذه المقاطعة الجبلية المرتفعة ، ففي هذا الفصل من السنة يتوقع هطول أمطار غزيرة بشكل متكرر . وعندما وجهت بعض تساؤلاتي بصدد هذا الموضوع إلى أحد عرب منفوحة أجاب هاتفاً : « الله عظيم ، لقد عشت لأرى ثلاث آيات في يوم واحد : تركياً وإفرنجياً في منفوحة ، وأمطاراً في منتصف الصيف » .

كانت القرى الوحيدة التي ذكر لي أنها بجوار درعية هي : عِرزا ، الرياض ، منفوحة ، ضرما ، عون ، رملة . وإلى الجنوب توجد القرى : سهمية خارجي وخوطا . كما ذُكر لي اسم يمامة أيضاً ، لكنها وصفت بأنها ذات أهمية ضئيلة في الوقت الحاضر ، وعلى وجه الإجمال لم تكن معروفة لدى الأتراك . عليَّ أن أشير إلى طريق نهري مرسوم في كثير من الخرائط الحديثة يجري قريباً من الأحساء وأن أعْزوَ تشكله إلى سيول كثيرة من أمطار الشتاء التي تشق طريقها وفقاً لاتجاهات الوديان التي بين جبال هذه المنطقة ، لكن كونها أنهاراً مؤقتة لا يجعلني أرى ما يسوغ جعلها أنهاراً كبيرة . ومن المتوقع أن التجمع الطارئ للماء في تلك الوديان في فصل معين وغزارة الماء بالقرب من الأحساء يشكلان بحيرات طبيعية

غير متصلة ببعضها بعضاً على وجه الإجمال ، كما تصادَفُ آبـار ومخزونـات وينـابيع في كل اتجاه بجوارها . فهذه المياه بمجموعهـا أبرزت فكرة نهر أو سيل شق طريقـه في زمن مضى باتجاه البحر . يُصِرُّ العربُ في هـذا الوقت على وجود نهر يجري تحت الأرض لم يَرَ مـاءه أي كائن حي ، وهم يتخيلون أن تلـك اليـنـابيـع التي انـدفعت فوق الأرض قـد مُوِّلت من غـزارة ميـاه ذلـك النهر ، وأن ينـابيـع مـماثلـة تجـاور البحرين تستمد وجودهـا من نفس المصـدر . ولا شـك أن هـذا الوصف من ضرب الخيـال أكثر من كونـه كـذبـاً متعمـداً . وإن كوتزيبو ليعطي خلال رحلاتـه في إيطاليا وصفاً ممتعاً لجداول مائية تحت أرضية قرب المدينة المنورة .

طـال تـأخرنـا في منفـوحـة حتى الثـالث عشر من آب (أغسطس) عنـدمـا وصلتنـا مجـوعـة سلميـة حيث حصلت الحقـائـق التـاليـة : كان يسكن (الخرج) بـالقرب من سلميـة أربعـة شيوخ من قبيلـة سعـود ، اسم أحـدهم عبـد الله ويسمى الثاني عبد العزيز ، ويبدو أنهما اسمان مشهوران حتى الآن من سلالة محمد بن عبـد الوهاب[1] . أخذ البـاشا هذين الشيخين بـالرحمـة ووعـدهمـا بحمايتـه في المستقبل . وعندما قرر سعادته أن يتنازل عن هذا الجانب من الجزيرة العربيـة أمر الجوقـدار (الحـاكم العسكري) بـاشـا السلميـة أن يفتـك بهؤلاء الشيوخ ، ولكن نظراً لكون مجموعـة جنـده لم تتجـاوز خمسين رجلاً فـإنـه لم يستطع تنفيـذ أوامر سيده بشكل مكشوف فلجأ إلى الغدر ، حيث دعـا هؤلاء الشيوخ إلى وليمـة اختتمت بـاغتيـالهم جميعـاً . وكان ألف وستمائـة بـدوي قـد أجبروا الأتراك قبـل بضعـة أيـام من هـذا الحـادث على الالتجـاء إلى الأسـوار ، وقـد تخلصـوا من هـذا المـأزق لـدى ظهـور تعزيزات عسكرية .

وإن عـدم الثقـة الـذي ظهر على سكان الريـاض والمنفوحـة إنمـا يعـزى إلى

---

(١) محمد بن سعود وليس محمد بن عبد الوهاب .

تصرف الجوقدار ، إذ لم يتجرأ أي رجل منهم على القيام بمغامرة ضمن حدود معسكرنا . وقد بدا أولئك الذين تناقشت معهم في جوار القرية أعداء حقودين للأتراك ، وكانوا يجاهرون في الإعلان عن أنفسهم بأنهم على عقيدة الوهابيين . وكان الكثيرون من أقاربهم يسكنون رأس الخيمة شاكرين الله على هذا المكان ، فقد عبروا عن سرورهم به باهتمام بالغ .

الثالث عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الساعة الخامسة من صباح الثالث عشر من آب . كان الجزء الأول من طريقنا يتجه نحو الشمال ، ثم انعطفنا فجأة نحو الغرب متبعين طريق الوديان التي تشكلها التلال الجرداء حيث وصلنا إلى موقع حطام درعية في الحادية عشرة قبل الظهر . تمتد إلى الغرب سلسلة طويلة من التلال بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي ، كما تُرى سلسلة أخرى إلى الشمال متجهة نحو الشمال الشرقي . كان الدمار واسعاً جداً ، ويدل على موقع مركز المدينة المدمَّرة بقايا الأسوار المؤلفة من تراب أصفر وقد غطت الحجارة قسماً منه وتماسكت معه ، فالبناء في هذه المدينة كثيف ومتقارب ومرتفع على بروز طبيعي يحميه من أحد جوانبه وادٍ ضيق عميق شديد الانحدار ، ومن جهة الغرب سلسلة من الأبراج موصولة فيما بينها بسور[1] . ويشار إلى هذا الجانب الغربي باسم (الطريف) وهو

---

(١) يظهر بشكل واضح أن اساس هذا السور مبني بحجارة كبيرة مسطحة تكثر في الهضاب المتجهة شمالاً وقد كانت هذه الحجارة متماسكة بقوة مع التراب الأصفر الذي بني منه وحده القسمُ العلوي من الأسوار ، فهذا التراب شديد التماسك ومتواجد بوفرة في جميع مناطق هذا الجزء من الجزيرة العربية ، وعادة ماتبنى منه الغالبية العظمى من البيوت . وعملية البناء بسيطة جداً . تُحفر حفرة في المكان الذي يتوقع وجود هذا التراب فيه ويصب فيها ماء ليتمازج مع الملاط الذي تُشكل منه طبقات في عرض السور باستعمال بعض الألواح الخشبية السميكة والثقيلة التي تجعل على شكل صندوق طويل ، وعندما تنتهي إحدى الطبقات وتجف تضاف طبقة أخرى ، ونتيجة لذلك يمكن أن يبنى البيت من ثلاثة طوابق أو حتى أربعة تتكون

منفصل عن البلدة الشرقية المسماة سلي بالوادي العميق الضيق الرئيسي . كان هذا الجانب أيضاً محاطاً بأبراج وسور ، ويحمل الوادي مسؤولية الاتصال مع الأجزاء الأخرى من المدينة الواقعة إلى الشمال والتي لم تكن محمية بشكل جيد إذا ماقورنت مع الجنوبي . يجري من خلال هذا الوادي جدول ماء على مدار السنة ، يزداد في الشتاء إلى مستوى سيل . في كل منهما على كل حال بقايا لبيوت عديدة جيدة ، هي الآن في حالة دمار كامل . ولقد محا الباشا أسوار الحصن بشكل كامل وأتلف مزروعات النخيل والحدائق . لم أشاهد ولو رجلاً واحداً خلال بحثي عبر الحطام كله .

كانت حدائق درعية تنتج المشمش والتين والعنب والرمان ، وكانت تمورها ذات مواصفات جيدة جداً ، كما ذكر وجود الليمون فيها بالإضافة إلى كثير من أشجار الفاكهة الأخرى ، لكني لم أكن أميز سوى البقايا المجدوعة لكل ماذكَرت . ولا تزال تُرى بعض أشجار الطرفاء .

وبمجرد أن غادرنا درعية نحو اليسار دخلنا وادياً ضيقاً عميقاً فهبطنا منحدراً شديداً جداً ثم تابعنا طريقنا غرباً ثم شمالاً ثم غرباً من خلال جدول رملي بدا وكأنه مجرى سيل ، وتوقفنا في الرابعة مساء في عوينية ، التي كانت تسمى قديماً درعية ، وهي عبارة عن واد واسع من الحطام المنتشر ، فيه بعض السكان ومساحات واسعة من مزروعات النخيل وأشجار التين . وقد كان هذا الوادي أيضاً في زمن مضى ذا سكان طيبين ، لكنه يعرض في هذه الأيام مشهداً من مشاهد البؤس .

إنه لمن الصعوبة بمكانٍ أن يُتوقع حصول تحسن في أخلاق البدو بالتدخل

= جدرانها من كتلة واحدة صلبة من هذا التراب ، بحيث يحتاج إلى جهد الأب وأولاده فقط .

يتوفر حجر الكلس بالقرب من درعية ، لكن ندرة الوقود تعيق استعماله للبناء ، على الرغم من أنه يُحصل على كمية كافية منه من أجل الطرش ، ومن أجل التجصيص أحياناً .

التركي . لكن العرب يشتهرون على كل حال في عفة إناثهم المتحجبات ، فهم عربان رعويون (في منأى عن الاحتكاك برذائل المدن ونقائصها) ، وإنه لمن المؤكد أن أي مسافر يزور الجزيرة العربية لا يلاحظ استخفافاً بالعفة .

الرابع عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا من العوينية في الساعة الرابعة من صباح اليوم الرابع عشر وتابعنا طريقنا عبر الوادي الذي انفتح على سهل ، فتجاوزناه ودخلنا وادياً ضيقاً شديد الانحدار ، ثم صعدنا سلسلة أخرى من التلال هبطنا منها بطريق وعر جداً إلى سهل حَسيَّة الذي تحيط به تلال متكسرة ومتفسخة ، لكن الطريق كان بشكل عام متماسكاً ، ولا تزال آثار مدافع الباشا ، ولم نعاني من صعوبة كبيرة في نقل مدافعنا ، باستثناء الطريق النازل من تلال درعية يوم أمس وهذا الطريق الوعر الذي سلكناه للنزول إلى هذا السهل . كان القسم الأول من طريقنا باتجاه الغرب ثم الجنوب ، وقد سرنا باتجاه الغرب خلال تجاوزنا لهذا السهل ، ووصلنا هذه البقعة بعد عبورنا طريقاً يسير غرباً ثم جنوباً ثم غرباً . ومن هنا حصلنا على ماء جيد من بعض الآبار ، وقد كانت الساعة الواحدة والنصف حين وصلنا حَسيَّة .

الخامس عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الرابعة صباحاً . وكان طريقنا المتجه نحو الشمال الغربي ممتداً فوق نجد فسيح ذي تربة حَصَوية ، نزلنا منه في الساعة السادسة بطريق منحدر وعر ، ثم عبرنا وادياً انتهى بنا إلى سهل فسيح . وفي العاشرة مررنا بحطام لأسوار وأبراج يطلق عليها اسم قصرُ البرَّا حيث توجد عدة آبار وعدد من أشجار النخيل ، ولا يوجد أثر لأي قاطن . وكان طريقنا إلى بقايا هذه القرية يتجه غرباً ثم شمالاً ثم غربا ، وتابعنا مسيرنا عبر هذا السهل الممتد المتسع حيث توقفنا في الواحدة بعد الظهر . يشير برج في زاوية حصن مربع السور إلى هذه البقعة

التي يطلق عليها اسم عوريز ، وقد حصلنا على ماء فيه طعم مُرٌّ من عدة آبار في هذا المكان . ويتجه هذا السهل نحو الشمال الشرقي بتأثير تلال وعرة متفسخة ، بينما يمتد السهل فيما بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي ، وتربة التلال مختلطة بالحصى وهي منبسطة تماماً ومجدبة ، وكان آخر جزء من طريقنا يتجه نحو الشمال الغربي .

السادس عشر من آب (أغسطس) :

سرنا في الثالثة والنصف من هذا الصباح بطريق غربي ثم شمالي ثم غربي . الصحراء مجدبة والتربة مخلوطة بالحصى . وفي التاسعة والنصف صباحاً وصلنا سرمدة (ربما ثرمدا) التي محيت آبارها ودمرت من قبل الباشا . يقطن هذه القرية بعض السكان وترى غيضات النخيل التي فيها من مكان بعيد ، ويلاحظ أن الأراضي المجاورة لها محروثة وخاضعة لرعاية كبيرة ، ويوجد إلى جوارها حطام قرية أخرى تدعى (مرية) توجد فيها عدة آبار لكن ماءها ليس لذيذاً على كل حال . وقد هب إعصار بعد الظهر حتى حجبت غيوم الرمل التي سبحت في الهواء ضوء الشمس الذي كان ساطعاً ومتوهجاً ، وأصبح الهواء لاذعاً من شدة حرارته .

لقد بدا هذا الإعصار كأنه عصفة من جهنم ، فكان من حسن حظنا أن هب في هذا الوقت المتأخر من النهار .

السابع عشر من آب (أغسطس) :

سرينا في الثالثة والنصف من هذا الصباح ، الصحراء منبسطة تماماً ومفروشة بالحصى ومجدبة كالمعتاد ، باستثناء بعض الأشجار الكبيرة . وفي الساعة الخامسة مررنا بقرية قَرِّيْن . وكانت عن يسارنا ، وفي الثامنة صادفنا بعض الحطام وبعض أشجار النخيل ، وكان طريقنا حتى الآن يسير بشكل مباشر نحو الشمال والشمال الغربي . ومن موقع هذا الدمار انعطفنا نحو الغرب وهبطنا وادياً

إلى شقرا وحططنا الرحال في التاسعة والنصف صباحاً . ينفتح السهل الذي قطعناه إلى الغرب بشكل مفاجئ ، ومن هذه البقعة قطع ظهورٌ نجدٍ مرتفعٍ انحداراً شديداً . موقع شقرا منخفض جداً ، ويبدو أن أسوارها قوية جداً فقد صمدت ثمانية أيام في مواجهة قوات الباشا ، وقد دمرت الأسوار وبقيت البلدة قائمة . فيها مسجد جيد وسوق ، ومزروعات النخيل التي تحيط بها واسعة جداً وتروى بكميات كبيرة من الماء العذب المستخرج من آبار عميقة . ولسوء الحظ أن أربعة من العرب سقطوا في أحد هذه الآبار ولم يُنقذ سوى اثنين منهم .

وقبل أن ننصب الخيام وصلَنا خبرٌ مفاده أن مجموعة من بدو قبيلة عتيبة ساقت الماشية التي تخص سكان شقرا كلّها ، فأُرسلت مجموعة من جنود المعسكر للحاق بهم ، فعادوا بأولئك اللصوص المغيرين . كان عدد الذين أرسلوا إليهم من الأتراك عشرين رجلاً ، لقوهم في السهل وأحضروا منهم خمسة مساجين حُزت رؤوسهم . ولم يكن بالإمكان عبور الطريق الذي يصل إلى هذه القبيلة من خلال القيام بجملة ، وقد عاملهم الباشا بأشد قسوة كلما سنحت له فرصة لذلك .

عم بسبب هذا الحادث شعور بالخوف ، إذ حاول بدونا الذين ينتمون إلى قبيلة بني خالد أن يهربوا بجمالهم مدّعين أن تلك القبيلة ستأخذ ثأرها منهم في طريق عودتهم . وقد تسلل اثنان من مجموعتي على الرغم من أني عينت جميع خدمي للمراقبة وسلحتهم بمسدسات .

الثامن عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الخامسة ، وقد تأخرنا ساعتين ونحن نحاول أن نجمع البدو الذين أسَرّوا النجوى فيما بينهم وهرب كثير منهم بجمالهم . قطعنا السهل الذي يلي شقرا باتجاه الغرب ودخلنا وادياً قادنا إلى سهل صحراوي واسع جداً ذي سطح مفروش بالحصى ، وحثثنا الخطا تحت شمس محرقة حتى الواحدة بعد الظهر حيث توقفنا

عند سلسلة من التلال الرملية الحمراء القاحلة التي لم يتوفر فيها ماء ولا علف . ولقد ذقنا العذاب خلال مسيرنا عندما كنا نرى الماء عن بعد حتى إذا وصلناه لم نجده شيئاً ، فهو مجرد ظاهرة جوية عابرة في الصحراء ، وأحاط بنا ما يشبه البخار يسمى السراب كمحيط من الماء . مررنا في طريقنا على ما يزيد عن عدة آلاف من نبتة الحنظل التي لو كان لنا ان نستبدلها بما يعادلها من البطيخ لهيأت لحناجرنا الظمأى أعظم ارتياح يعقبه سرور .

اجتاز الأتراك الآن الحد الذي وعدوا بَدْوَ بني خالد أن يطلقوهم عنده مع الجمال التي استأجروها منهم ، بالإضافة إلى تلك التي قالوا عنها للبدو السيئي الحظ أنها ستعوض بعدد مماثل من قبيلة مطير (الدويش) . كان هؤلاء البدو حتى الآن خاضعين خضوعاً كاملاً لقوة الأتراك الذين أصرّوا على كونهم مسؤولين عن العدد الكامل للجمال التي انطلقت من الأحساء ، لكن سرعان ما ضرب بقرار التعويض عرض الحائط ، فطرد العرب بدون جمالهم ، فقد احتفظ بها للتعويض عن المفقودات التي تعهد الأتراك بتأمينها نتيجة للانشقاقات التي حصلت . وهكذا نرى أن الرجال التعساء الذين كانوا يستحقون ضِعْفَ الأجر الذي عُين لهم لأنهم ساروا مسافة احتاجت إلى ضعف عدد الأيام التي اتُّفق عليها قد انطلقوا على غير هدى عبر الصحاري الواسعة ، يحيط بهم الأعداء من كل جانب . إنهم قد عانوا المعاملة نفسها التي سبق أن عاناها الكثير من الحجيج تحت أيديهم .

التاسع عشر من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الرابعة صباحاً وأجهدنا المسير عبر التلال الرملية حتى التاسعة والنصف صباحاً أيضاً حيث نزلنا سهلاً وجدنا فيه تجمعاً رقيقاً وواسعاً من ماء المطر ، فحططنا الرحال ، وكان الطريق الخارج من السهل متجهاً غرباً . توجد بقايا قرية صغيرة مسورة على الجانب الغربي من البحيرة وبعض الآبار التي يشار

إليها باسم عيون السر . كانت حرارة الشمس لاذعة طيلة النهار والرياح الحارة تهب باستمرار حتى منتصف الليل . ولقد أراح العقولَ وأسكنَ أَلَمَها ظهورُ مساحة واسعة من الماء الذي اطمأننا إليه عندما ذقناه وعرفنا أنه ليس سراباً . ولقد أشبع العطش بمجرد أن اطمأن الفكر والخيال .

في الجانب الغربي من البحيرة أراضٍ سبق أن حرثت ونظفت إلى درجة تلفت الانتباه .

العشرون من آب (أغسطس) :

نزلنا في صدر هذا النهار لنريح الدواب ، ثم سار الناس أربع ساعات مساء باتجاه الشمال حيث ضللنا الطريق ووجدنا أنفسنا مرميين في حالة يرثى لها من الاضطراب حتى اضطررنا إلى الاستسلام للنوم دون أن نعرف أين كنا . ثم سرنا ثانية في الساعة الخامسة من صباح الحادي والعشرين وتقدمنا بالاتجاه الشمال الغربي حتى السابعة عندما صادفنا حطام بعض الآبار وساقية . ويبدو أنه قد سبق لهذه المنطقة أن حرثت في يوم من الأيام . ثم تابعنا نفس الطريق من هناك حتى الساعة العاشرة فوصلنا إلى بقعة مسورة تسمح بالتجاء ما بين عشر وخمس عشرة أسرة إليها ، أراضيها محروثة إلى درجة كبيرة ومشبعة تماماً بالماء . نزلنا في العاشرة صباحاً على ضفة بحيرة من ماء المطر الذي اندفع إلى هذه البقعة نتيجة للأمطار الغزيرة التي هطلت مؤخراً ، ووجدنا على حدودها كمية من الأعشاب للدواب ، ويطلق على هذه المنطقة اسم عيسونية .

الثاني والعشرون من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الخامسة صباحاً حيث مررنا بحطام قرية مسورة[1] عن اليسار

---

(١) لم يُذكر اسم هذه القرية ضمن ملاحظاتي ، وأخشى ألا أقدر على معالجة هذا الإهمال . المؤلف

وسهل واسع فيه آثار حراثة سابقة وهو الآن مغطى بالأعشاب ، ويتوقع أن هذه البقعة كانت تشكل ـ خلال فترة عمتها فيها السعادة ـ منزلاً ومحطاً مريحاً للمسافرين الذين أضناهم التعب . ثم توجهنا شمالاً ثم إلى الشمال الغربي حتى الثانية عشرة والنصف ظهراً عندما نزلنا في بقعة تدعى موربة حيث توجد أيضاً علامات سكنى سابقة في السهل ، حفرنا في مجرى رملي فوجدنا ماء ، ولا بد أن وابل المطر في هذا المكان كان غزيراً جداً كغزارة كميات الأعشاب المتوفرة . كانت حرارة الشمس لاذعة سحابة ذلك النهار .

الثالث والعشرون من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الساعة الخامسة ومررنا بعدة سواقي نضُّرها المطر وغطاها بالأعشاب وقد ساهمت هذه السواقي بنقل كميات كبيرة من الماء إلى البحيرة التي تدعى خبرة والتي يجاورها حطام ثلاثة أبراج كانت تعتبر ملاذاً لفالحي هذه الأرض الذين كانوا يشرفون عليها ويتعهدونها كل سنة . وصلنا إلى مزنب (أو المذنب) في التاسعة صباحاً ، وهي قرية مكشوفة كثيرة الآبار ، لكن ماءها يميل إلى طعم مُر ، ومزروعات النخيل فيها والأراضي المفلوحة التي على أكتافها واسعة ، طريقنا شمالي ثم غربي .

الرابع والعشرون من آب (أغسطس) :

سرنا في الرابعة والنصف من هذا الصباح ومررنا بتلال جرداء تماماً ومغطاة بحصى متفككة بطريق اتجه شمالاً ثم غرباً فوصلنا (عنيزة) في الثانية عشرة والنصف ظهراً . لقد تعرض هذا المكان إلى دمار كامل ، وقد أصاب هذا الحصن المصير نفسه الذي أصاب الحصون الأخرى التي سقطت نتيجة لغضب الباشا ، واستُبقيت بعض أشجار النخيل لأنها في وادٍ ، وتأتيها كميات كبيرة من مياه الآبار التي تروي البلد . وهو يعتبر بلداً ذا أهمية كبيرة بالنسبة لغيره في هذه المنطقة ،

كما يعتبر مركزاً تجارياً إذا ما أخذ موقعه الجغرافي بعين الاعتبار . وإن مرور القوافل الآتية من البصرة والكويت والقطيف والأحساء ودرعية عبر عنيزة كل عام أعطى هذا المكان درجة كبيرة من الأهمية . وهو واقع أيضاً في مركز حساس بالنسبة للمدينة المنورة والبحر الأحمر ، وكذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار جبل شمر (جبلاطئ) ، ولقد اعتبر على الدوام وسيلة الاتصال بين الخليج والبحر الأحمر ، ويتوقع أن يصبح مركزاً يتمتع بالأهمية الأولى نظراً لموقعه المركزي . في عنيزة حامية عسكرية لإرهاب هذه القبيلة التي تحتل الصحراء من جهة الشمال الشرقي حتى الحدود التي تحتلها قبيلة مطير الممتدة إلى شرق شقرا باتجاه الكويت ، ومن هناك إلى جهة الخليج يمتد سلطان قبائل بني خالد الذي يستمر إلى أقصى الجنوب حتى يصل إلى الأحساء . وإلى جنوب هذه المنطقة الرئيسية قبيلة العجمان المنيعة التي لاتعتبر على كل حال ذات قوة تكفي لمواجهة قبيلة بني خالد (١١) . وإلى جنوب غربي درعية توجد قبيلة عتيبة[١] التي أبيدت عن بكرة أبيها تقريباً . وإلى الغرب من عنيزة قبيلتا حَرب ومِسْرو اللتان تحتلان ذلك الجزء من منطقة حِجاج بين الرس والمدينة المنورة . من أجل هذا كله تبدو عنيزة مركز الجزيرة العربية من وجهة النظر الجغرافية والسياسية والتجارية ، وقد التقيت في شقرا وعنيزة بالعديد من تجار الكويت وزبير الذين ينتمون إلى قبيلة العتوب ، ووجدنا كميات من الرز الهندي ومواد أخرى في أسواقهم الشرقية .

الخامس والعشرون من آب (أغسطس) :

انطلقنا في السادسة صباحاً ودخلنا سلسلة من التلال الرملية الحمراء ، فسرنا

(١) قبيلة عتيبة وقبيلة العتوب ليستا قبيلة واحدة كما سيتوضح من خلال النص . (المؤلف سادلير)

ليس صحيحاً أن قبيلة عتيبة أبيدت عن بكرة أبيها تقريباً كما يزعم سادلير وهي اليوم من أكثر قبائل نجد عدداً ـ المحقق .

فيها مجهودين ومثقلين حتى الثانية عشرة والنصف . رأينا بقايا آبار وآثاراً لفلاحة سابقة في الوديـان التي شكلتهـا هـذه التلال ، الأمر الـذي يـدل على أن الفلاحين يحاولون أن ينفصلوا عن البلد . كان طريقنا متجهاً غرباً ، وقـد وجدنـا في هـذا المكان كمية من ماء المطر .

السادس والعشرون من آب (أغسطس) :

انطلقنا في الخامسة من هذا الصبـاح ، وبينمـا كنـا نتـابع طريقـاً يتجـه نحو الغرب وصلنا رَس ، وكان الوقت الواحـدة بعـد الظهر . وصلتنـا تقـارير يوميـة مفادها أن البـاشـا ينتظر وصولنـا إلى هـذا المكان ، وإني شخصيـاً كنت متوقعـاً عنـدمـا اقتربت من الرس أن تنتهي مشـاقي خلال يومٍ أو يومين حيث يحتمـل أن أنطلق إلى البصرة في طريـق عـودتي إلى الهنـد . كنت قـد أرسلت رسـلاً لإخبـار الوزير عن نبأ وصولي . لكن بحثهم واستخبارهم عن الوزير وعن البـاشـا ضـاعـا دون طائل . انتظرت عودتهم بقدر مااستطعت أن أتحمل أشعة الشمس الملتهبـة ثم أجبرت على التقـدم إلى الأمـام على أمل الحصول علىَ مَلجـأٍ أو ظـل أو مـاء قليـل يروي ظمئي الذي ثَقُلت وطأتـه إلى حـد كبير . دخلت في مزيج من خيـام غير منتظمة ، بعضها فيها أتراك وبعضها فيها بدو الجزيرة العربية وبعضها فيهـا بـدوٌ غرباء وقليل منها من الأرناؤوط . لذلك طرَّفت خيمتي وأضفت إلى هذه المجموعـة المتباينـة العنـاصرِ حـاشيتي التي تحوي فُرسـاً وهنوداً وبرتغـاليين وأرمنيين . ولقـد كانت خيبة أملي مؤلمة جداً عندما زرت الأفندي الذي فوضه الباشا بـإدارة الأمور بعد رحيله ، فـإنـه قـد انطلق إلى المـدينـة المنورة في اليوم الـذي وصلنـا فيـه إلى عنيزة . ولقـد وجـدت محمـد أفنـدي الملقب أفنـدي الـديـوان ، أو السكرتير الأول لبلاط سعادة البـاشـا ، على درجـة ضئيلـة جـداً من الاطلاع على جغرافيـة هـذه المنطقـة التي استُخـدِم فيهـا سيـده ثلاث سنوات في حرب مستمرة ، فكان كطفـلٍ صغير لم يسبق له أن غادر أسوار مدينة القاهرة . ولقد وجـدت أنـه من الضروري

أن أطلب مُرافِقاً ، موافِقاً في هـذه الفكرة تـأكيـد القشيف ، إذ يحتمل أن أجعـل طريق عودتي باتجاه البصرة ، فأجاب الأفندي على هـذا الطلب بتـأكيـده لي أنـه لا يستطيع أن يستجيب إلى رغبتي في العودة إلى البصرة دون أوامر مسبقة لأنه أمر في غايـة الخطورة بسبب المسؤوليـة التي لا يتمكن من حملها شخصياً ، وقـال إنـه بإمكاني أن أجتـاز الطريـق من المـدينـة إلى البصرة بشكل أسهـل بكثير وفي فترة أقصر . وبمـا أني لم أكن لأوافق على هـذا الرأي فقـد اقترح عليّ أن أقوم برحلـة إلى بغداد بـالتوجـه نحو سوريـا ، وهي رحلـة ذكر أنهـا تُنجز خلال عشرين يومـاً . ألححت عليـه بـأن يجهـز لي مرافقـاً وصرحت برغبتي في الحصـول على حرس من القبائل ، لكني وجدت هذا التركي الجاهل جازمـاً في قراره ممـا اضطرني إلى الكف عن المتـابعـة معـه ، وأن أتطلـع نحـو البحر الأحمر عـوضـاً عن الخليـج من أجـل الخلاص .

وقد وعـد هـذا الوزير على كل حـال بـأن يكلف شيخ قبيلـة عنيزة بتوجيـه رسـائلي إلى البصرة ، الأمر الـذي جعلني أستنتج أنـه من المستحيل أن أحصل على مبعوث خاص . هذا هو الحال في الجزيرة العربية .

أرسلت الرسالة التالية :

إلى الشريف السيد إيڤان نيبيان

الحاكم ورئيس المجلس ، بومباي

السيد الشريف ،

« لي الشرف أن أعلمكم بأني غـادرت الأحسـاء في الحـادي والعشرين من تموز تحت حمايـة الجنود الأتراك الـذين احتلوا تلـك المنطقـة مؤخراً سـالكين الطريق المباشر المار بـالسلميـة إلى موقع درعيـة ، الـذي استغرق مسيرة عشرة أيـام ، وهو الطريق الذي رغب القشيف بسلوكه ، ثم رأى أنه من الحكمة أن يغيِّره فتوجه بنـا

خلال مسيرة اليوم الثاني نحو الشمال الغربي إلى آبار رماح وهي النقطة التي تَوَقَّع أن يندمج فيها مع حامية السلمية . ثم اضطر إلى تغيير جهة مسيره خشية أن تتعرض مجموعته إلى هجوم من قبيلة العجمان أو سعادة اللتين هاجمتا آخر موكب عسكري عَبَرَ ذلك الطريق . ولدى وصولنا إلى رماح عرفنا أن الباشا سبق أن تحرك من معسكره الأخير القريب من حطام درعية ، لكني لم أستطع أن أحصل على أية معلومات دقيقة عن الاتجاه الذي تبعه . ولم تكن حامية السلمية تملك من القوة ما يكفيها للتحرك من أسوار ذلك الحصن الصغير فاضطر القشيف إلى التوجه نحو الجنوب إلى منفوحة حيث حط رحاله هناك في الثالث من آب (أغسطس) ، وقد أرسل أمامه نصف قواته لتمكن قوات السلمية من إخلاء موقعها » .

« استمر تأخرنا في منفوحة حتى الثالث عشر من آب عندما وصلتنا مجموعة السلمية ، وقد حصلت الحقائق التالية : كان يسكن في الخرج أربعة شيوخ ، بالقرب من السلمية ، وهم من سلالة سعود ، اسم أحدهم عبد الله واسم أحد إخوته عبد العزيز وهما الاسمان اللذان لا يزالان مشهورين حتى الآن في تاريخ سلالة محمد بن عبد الوهاب[1] . مد الباشا هؤلاء الشيوخ بعطفه ووعدهم بحمايته في المستقبل ، حتى أنه قدم لهم خيولاً . وعندما قرر سعادته أن يتخلى عن هذا الجزء من الجزيرة العربية أمر جوقدار باشا السلمية أن يفتك بهم . لكنه لم يستطع أن ينفذ أوامر سيده بشكل مكشوف لأن تعداد مجموعته لم يتجاوز خمسين رجلاً ، فلجأ إلى الخيانة والغدر إذ دعا الشيوخ إلى وليمة اختتمها باغتيالهم جميعاً . وقبل هذا الحادث بأيام قلائل أجبرت مجموعة قوامها ألف وستمائة بدوي من قبيلة العجمان الأتراك على الالتجاء إلى الأسوار ولم يتخلصوا من هذا المأزق حتى ظهرت الإمدادات العسكرية » .

(١) بل في تاريخ سلالة محمد بن سعود وأبيه سعود .

« ولقد أسفر هذا التصرف عن نتائج سيئة جداً بخصوص عودتي إلى القطيف ، الأمر الذي سعيت إلى تأمينه عن طريق الحصول على وعد خطي من شيوخ قبيلة بني خالد ، لكنه أصبح الآن عديم النفع نظراً لأن المنطقة كلها مدججة بالسلاح . ولقد حصل صدع آخر بالثقة التي وضعتها في القشيف ، أثر على عودتي ، وهو خارج عن حدود قدرتي ، فلدى مغادرتنا الأحساء وَعَدَ وكُلُّه لطف ووداعة بأن يسمح لبدو تلك القبيلة أن يعودوا مع جمالهم بعد تعويض ما يهلك منها من قبيلة الدويش . لكن القشيف الذي كان بعيداً جداً عن خُلُق إنجاز الوعد وضع يده على جمال تلك القبيلة نفسها التي هيأت له وسائل مغادرة الأحساء ، لذلك لم أعد أستطع أن أتوجه إلى رجال تلك القبيلة في بحثي عن حماية لي في طريق العودة ، أو أن أعتمد عليهم في نقل أية رسالة إلى القطيف حيث رست في مينائه السفينة الحربية التي تقوم بنقل رسائلي » .

« تمكنت خلال السير الذي أعقب منفوحة من زيارة بلدة درعية الحالية للتأكد منها ، فهي تقع على بعد عشرة أميال باتجاه الجنوب الغربي على شفا وادٍ ضيق عميق شديد الانحدار متشكل نتيجة لوجود جبال جرداء ، دُمرت الأسوار والحصون التي كانت تحيط بالمدينة ، كما مُحي عدد من البيوت ، فقد كان الباشا مصمماً سلفاً على أن يعامل هذا البلد بوحشية . وقبل مغادرته أمر بمزروعات النخيل والحدائق أن تتلف ، فأتلفت . ولا يوجد في الوقت الحاضر ولو عائلة واحدة تسكن في بقايا البلدة . أما أولئك الذين حالفهم الحظ ونجوا بأرواحهم من تدمير الحرب فقد كانت منفوحة ملجأهم الرئيسي الذي يحوي ما يقرب من ألفي أسرة منهم ، وفي هذه البلدة بعض البيوت الجيدة ، وقد ظهر العرب فوق أسطحتها المنبسطة مسلحين ومستعدين لمواجهتنا لدى دخولنا وقد سبق أن دمر الباشا أسوارها وأبراجها التي كانت تحمي ممتلكات السكان من أية هجمات من قبل البدو . ويفصل قرية الرياض عن هذه القرية دمار واسع مجردٌ أيضاً من

تحصيناته ، لكن مزروعات النخيل المجاورة لتلك القريتين قد استبقيت . ولقد استَهلَكَ الأتراك المحصول الضئيل لهذا العام ، ولا يوجد في هذه المنطقة جوادٌ واحد . وعلى الرغم من أن شيخَي هاتين القريتين قد استلما السلطة عن طريق الباشا فإنها رفضا أن يستجيبا لدعوة القشيف لهما بأن يشرّفاه بزيارة في المعسكر » .

« استغرق حصار جيش سعادته لدرعية ثمانية أشهر ، ومنذ ذلك الوقت لاتزال الجنود تستخدم كثيراً في الانتقام من قبائل البدو ، ولقد اتخذوا من أتفه التصرفات ذريعة ليحرموهم من قطعانهم . دَمَّرَ دِفاعات كل قرية من قرى نجد ، ومع أن أسوار الأحساء قد استبقيت لأن موقعها بعيد جداً لم يُظهِرِ القشيفُ احتراماً تجاه الثروات المالية للسكان ، فقد ابتز منهم ما يعادل مليوناً ومائتا ألف قرش هندي قبل مغادرته تلك المقاطعة . لم يلجأ الباشا إلى تلك السياسة إلا بعد أن عزم على التخلي عن هذا الجزء من الجزيرة العربية ، حيث صمم على اتخاذ هذه الإجراءات التي أغنى بها نفسه وأغنى جيشه تاركاً المنطقة بحالة من الضياع لم يسبق لها أن تعرضت إليها في يوم من الأيام . ويتوقع أن يستغل حالة الهدوء التي ستسهل عليه السيطرة على الجزء الغربي من الجزيرة العربية .

« إني لأتوجع حزناً وأنا أُعلم مجلسكم الموقر أني قد استُجررت لأكون شاهداً معارِضاً للتخريب والدمار اللذَين قام بهما جيش الباشا الذي سار إلى الرس فقضى عليها ثم انطلق منها متوجهاً إلى المدينة المنورة قبل يومين من وصولي إليها ، تاركاً في مكانه أفندياً ليقوم بمهامه . زرت هذا الضابط لأعلمه بحاجتي إلى إنجاز الوعود التي ماوافقت على أن أغادر الأحساء إلا بعد التأكيد على أنها ستنجز ، ولكن تبين لي أنها لم تكن قابلة للإنجاز بسبب تصرفات الأتراك أنفسهم التي سبق لي أن أوضحتها لمجلسكم الموقر . بقي علي أن أفكر في الحصول على حراسة آمنة لحمايتي في الطريق إلى البصرة ، التي تبعد مسيرة اثنتي عشرة مرحلة من عنيزة ،

وربما ألتقي في المرحلة التاسعة من المسير ببدو المنتفق وأجتمع بزعيمهم . رتب لي الكابتن تايلور عودة آمنة إلى البصرة . ولو جرت الأمور على حسب الاقتراح الأخير الذي وضعه الأفندي وجعلني أكف عن الإلحاح في الطلب لاضطررت إلى التوجه إلى أي مرفأ على البحر الأحمر حيث يمكنني أن أجد ما ينقلني إلى الهند دون أن أقدر على إنجاز المهمة التي كُلفت بها .

« لي الشرف أن أكون » ..

« الرس ، ٢٦ آب ١٨١٩ »

السابع والعشرون من آب (أغسطس) :

كلفت بعض البدو الذين يعتبرون الأصحاب الفعليين للجمال التي تقلتنا من الأحساء إلى الرس بنقل رسائلي إلى القطيف والأحساء لأنهم كانوا على وشك أن يعودوا .

الثامن والعشرون من آب (أغسطس) :

سرنا في الساعة الخامسة والنصف صباحاً فوق سهل قاحلٍ مغطى بالحصى ، تنتصب على جانبه سلسلة من التلال الصخرية ، ومررنا ببعض القرى الصغيرة التي كانت مسكونة أثناء تقدم الباشا لكنها الآن مهجورة . نزلنا في الحادية عشرة إلا ربعاً عند آبار مطا التي لا تزال مميزة برقعة صغيرة مسيجة تأوي إليها بعض الأسر التي تقوم بحراثة وزراعة الأراضي المجاورة للآبار . كان طريقنا إليها متوجهاً نحو الجنوب ثم الجنوب الغربي .

التاسع والعشرون من آب (أغسطس) :

سرنا في الساعة الخامسة حيث الهواء بارد جداً فقطعنا سهلاً آخر قاحلاً تماماً ومغطى بالحصى ، وحططنا الرحال في الحادية عشرة إلا ربعاً قبل الظهر عند

آبـار تـدعى عـدّاس . ظهر لنـا من هـذا المكان منظر تلال متفسخـة منفصلـة عن بعضها ومبعثرة في كل اتجاه فوق هذا السهل الواسع . كان طريقنا إلى هـذه الآبـار غرباً ثم جنوباً .

الثلاثون من آب (أغسطس) :

سرنا في الرابعـة والنصف صبـاحـاً وتـابعنـا طـريقنـا فوق السهل نفسـه حتى الثـانيـة عشرة حيث دخلنـا واديـاً سـاقنـا إلى سلسلـة من التلال تمتـد بين الشمال والجنوب ، فنزلنا ونحن نسير الهوينى ، وكانت جمالنا الجائعـة تـأكل من الأعشـاب الخشنة التي كثرت في هذا الوادي . ثم نزلنا في تجويف واقع على الجانب الآخر من هذه السلسلـة فوجـدنـا بعض الآبـار . ويطلق على هـذه البقعـة اسم جرزويـة ، وعندما حططنا الرحال كانت الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر . أما هذه التلال فهي قاحلة تماماً ، لكنها تبدو سلسلة رئيسيـة على الرغم من أنها ليست مرتفعـة . كان طريقنا غربياً .

الواحد والثلاثون من آب (أغسطس) :

أصابنا اضطراب في الساعة الواحدة والنصف من هذه الليلة فحزمنا الأحمـال على الدواب ثم أنزلناها عنهـا . إذ الأتراك في حـالـة اضطراب دائم ويفتقرون إلى ترتيب أمورهم فهم لا يخططون لأي تحرك البتة . اضطجعنا حتى الرابعة والنصف ثم سرنا فوق سهل واسع جداً ذي حصى نـاعمـة ، تتنـاثر فوقـه الشجيرات المـألوفـة وتطوقه تلال صخرية متباعـدة ومتجهـة جنوبـاً . وفي السـاعـة العـاشرة اخترقنـا سلسلـة من التـلال ذات الرمـال الحمراء ، وكانت هنـاك فجـوات تشير إلى بحيرات صغيرة شكلتهـا ميـاه الأمطـار . وفي الـواحـدة والنصف تجـاوزنـا هـذه التـلال وحططنا الرحال في سهل غمرته المياه مؤخراً . تدعى هـذه المنطقـة وادي الميـة . كان طريقنـا يتجـه غربـاً . يبقى هـذا السهل في الشتـاء مغمـوراً بشكل مستمر ،

وتتجـه مرحلتنـا المقررة نحو آبـار بجير التي توجهنـا من أجلهـا غربـاً ثم جنوبـاً ثم غرباً .

الأول من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا في الخامسة من هذا الصباح وقطعنا سهلاً واسعـاً مفروشـاً بـالحصى ، وعندما توجهنا غرباً دخلنا مجرى رملياً تصل من خلاله سيول إلى هـذه السهول . توقعنا أن نجد ماء فيـه ملوحـة ، وكنـا قـد ملأنـا كل أوعيتنـا بـالمـاء . وعنـدمـا حططنا الرحال في الخامسة والنصف مسـاء وجـدنـا كمـيـة كبيرة من المـاء العـذب بِحَفْرِنا بعض الآبار ، ويمكن أن تُعزى هـذه الظـاهرة إلى هطول المطر بشكل غير معتاد في هذا الفصل . تدعى هذه المنطقة مشاش باطن العورمة .

الثاني من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنـا في الرابعـة والنصف صبـاحـاً وقطعنـا الجزء الغربي من هـذا السهل الرملي المنبسط الذي يعتبر تمـاسُـك رملِـهِ معتـدلاً . يتجـه جبل مـاويـة غربـاً ثم شمالاً ، وهو يُرى من مسافـة بعيـدة لأن السهل منبسـط . تحركنـا حول النهـايـة الشمالية وحططنـا الرحـال غربي الجبل في الواحـدة بعـد الظهر . وفي هـذا المكان ذكرى تاريخية ، إذ هو المكان الذي واجه فيـه عبدُ الله تقـدمَ إبراهيم بـاشـا لأول مرة ، حيث كان معه عشرة آلاف رجل على جمال عربية وحيـدة السنـام ، لكنهـا هزمت في الحـال لوجـود بضـع مئـات من الجيـاد تحت إمرة أوزون علي ولا تـزال جثث الوهابيين منتشرة فوق الوادي عرضة للشمس .

الثالث من أيلول (سبتمبر) :

سرنـا في الرابعـة والنصف من هـذا الصبـاح فـوق منطقـة تـلال متفسخـة ، وعندما توجهنا غرباً دخلنا وادياً يخترقه عادة سيل من أمطـار الشتـاء يتجـه نحو الجنوب الشرقي وهنا وجدنـا آبـاراً ، فـاستقينـا ، وكانت السـاعـة الحـاديـة عشرة

والنصف ، وعندما انتهينا تابعنا في طريق غربي من خلال سهل تنتشر عليه تلال صخرية هنا وهناك . وفي الثانية عشرة ليلاً أتينا على السلسلة الرئيسية التي تبدو متجهة بين الشمال الغربي والجنوب الشرقي تمر من خلال درة حميج حيث توقعنا أن نجد ماء ، وعندما يئسنا تابعت مجموعتنا تقدمها فأصبحنا منفصلين . شرعت في تقدمي وتحركت ببطء حتى العاشرة صباحاً من اليوم الرابع حيث وصلنا الحناكية . وفي هذا المكان وجدنا مركزاً للأتراك تأمَّر عليه رجل يدعى عَجَم أُوغلان وهو رجل فارسي ، برهن على أنه جندي مضياف ومُتَمٍ إلى تبريز . عاملني باهتمام بالغ فقدم لي من الطعام أفضل ما كان مختزناً لديه ونشر سجادته واعتنى بحصاني ، وبعدما أنعشني بخبز وقهوة وأريكة هيأ لي مكاناً للنوم . وفي الثالثة بعد منتصف الليل وصلت المجموعة المتأخرة والأمتعة وتابعوا زحفهم إلى المعسكر أفراداً وجماعات حتى السابعة صباحاً من اليوم الخامس .

كانت الحناكية محطة لكتيبة مهمتها تغطية المدينة والتقاط بدو نجد ، وهي منفصلة من هذه الجهة عن طريق الحجاج . توجد كمية كبيرة من الماء ، والعلف متوفر . وهنالك بقعة صغيرة محصنة لها أربعة أبراج وفيها أربعة مدافع صغيرة . عززت الكتيبة من مجموعتنا فوصلت إلى مائتي رجل . تحدُّد الوادي الضيق الشديد الانحدار الذي يروي السهل بتأثير سد من الحجارة المركبة فوق بعضها بعضاً بشكل رديء ، وهو يحمل مسؤولية القيام بغرض آخر وهو منع سيول الشتاء من الفيضان بشكل مفاجئ فوق الأراضي المنبسطة التي تُحرث وتُزرع كل سنة لتكون الممول الرئيسي للمدينة المنورة . فاحتياطي الماء الذي يجمعه السد يبقى عدة شهور بالإضافة إلى الآبار التي تمكّن المزارعين من الحصول على محصول وافر .

الخامس من أيلول (سبتمبر) :

سرنا هذا المساء وتوجهنا في البداية نحو الجنوب الغربي عبر قاع الوادي الضيق ومنه إلى سهل مغطى بأحجار متفككة ثم دخلنا سهلاً قاحلاً مفروشاً

بالحصى ومطوقاً بتلال صخرية ، تحي مجاري السيول الهابطة منها عدة بقع من السهل تتناثر عليها شجيرات وغيضات أعشاب وبعض الشجيرات التافهة . دخلنا ديرة بين التلال ونزلنا وادياً ضيقاً شديد الانحدار فيه كمية كبيرة من الماء وبقايا جدران لدعم الضفاف . التلال المحيطة بهذا الوادي عالية وصخرية وقاحلة ، في قاعه أيضاً عدد من الأشجار الكبيرة من النوع الراحي ، وهذه الأشجار تختلف عن غيرها في أن لها عدة أغصان وتشبه الورقةُ منها راحة الكف ، كما يبدو أن ثمرها على هذا الشكل ، وتدعى الشجرة داون ويدعى الثمر الذي ينضج بنكهة الزنجبيل (بلانش) . كان الوقت منتصف الليل عندما دخلنا هذه البقعة بعد أن نفذنا مسيراً منتجاً تجاوزنا فيه مسافة طويلة . كان الهواء رطباً والقمر يتألق بلمعانه ولسوء حظي أن تعطلت بوصلتي بسبب طول السير بحركات ارتجاجية مفاجئة .

السادس من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا من الوادي في الثالثة مساءً ، وبعد مسيرنا في طريق جبلي صخري دخلنا وادياً رملياً يتوفر فيه بعض العلف وينتهي بالسهل الذي يصل إلى المدينة المنورة ، تغطي الحجارة المتفككة مساحة واسعة منه ، وهو قاحل تماماً ويعطي صورة عن أكبر مظهر من مظاهر الجدب . نزلنا في الساعة الثالثة من صباح اليوم السابع في بقعة اعتبرها أدلاؤنا المحط الأمثل ، لكننا وجدنا عندما طلع علينا الفجر أننا قصرنا عن مخططنا فأعدنا التحميل باقتراح مني للتوجه إلى المدينة . لكن الباشا أصدر أمراً بأن يتوقف الجميع حتى الظهر بسبب توجه كتيبة نحو المدينة .

وبما أن المسيحيين ممنوعون من دخول المدينة المنورة فقد أمر سعادته بشقر آغازي أن يقودني من الطريق المباشر القريب من المدينة ، لكنه لفت نظري إلى احتمال أن أشعر بالاستياء إذا ما صادفنا رجالاً وطنيين أو متعصبين للدين ، لأنهم

لن يتوانوا عن التصريح بتعليقاتهم التي يصعب إسكاتها في مكان بهذا القرب من المدينة المقدسة ، حيث يجبر الأتراك على التصرف بكل احترام كتصرفنا كمسيحيين أمام أضرحة القديسين والرهبان . كان هذا أول مظهر رأيته بين الجنود الأتراك عن موضوع تدخل الدين منذ وصولي .

لم يؤبه بثياب أوربي مار . وكان الجنود خلال المسير الطويل المضني يظهرون أخلاقاً رفيعة بشكل دائم تجاهي . شعرت برغبة قوية لزيارة المدينة أو الحصول على فكرة متكاملة عنها ، لكن التعقل والنظر البعيد إلى العواقب مَنَعاني من أن أعرض نفسي إلى إهانة . دخلت الآن أرض معتقدِ وتوجُّهِ المسلمين ، لذلك طلبت من الآغا المكلف بإرشادي أن يشق طريقه مبتعداً ، فتقدمنا في طريق يتجه إلى شمال المدينة لندور حول جبلٍ[1] صخريٍ شامخ ، ومررنا بحطام قرية بركاس التي كان فيها ما يقرب من مائتي بيت ، وهي تؤوي الآن ما يقرب من ستين شخصاً . توجد في السهل غزارة في المراعي وجدول من الماء العذب وعدة آبار . ثم قطعنا جدول ماء مُرٍّ يجري من خلال المدينة ويتوجه إلى آبار علي عبر وادٍ فيه قاع ذو سيل واسع يُموَّل في الشتاء من الجبال . وصلت في الساعة التاسعة مساءً وقد أضناني التعب والجهد . كان الدكتور (أنطونيو سكوت) الذي ينادونه باسم حكيم باشي رجلاً إيطالياً يقوم بالمهام الطبية المتعلقة بأسرة الباشا قد جهز عشاءً تركياً بَدَا منعشاً على الرغم من كونه في هذه الساعة المتأخرة وأنه تنقصه جميع المنعشات السريعة الأخرى .

بمجرد أن دخلنا الوادي الذي يقود إلى هذه البقعة لم يعد جوادي قادراً على تحمل وزني أكثر مما تحمل فسقط من تحتي . لقد أُجهِد هذا الحيوانُ كثيراً حتى أنه

---

(١) يتوقع كونه جبل أحد المذكور في السورة الثالثة من القرآن ، ويمثل تذكاراً لمحنة أصابت جيش محمد ﷺ .

لن يستطيع بذل أي جهد آخر لإيصالنا إلى الخيام التي تُرى أضواؤها من مكاننا في ذلك الوقت ، فاضطررت إلى تجريده من جهازه وعدته وأمتطي جملاً كان في حالة من الجهد تعادل ما كان عليه الجواد . كنا قد أمضينا ثلاثين ساعة في المسير الذي لم نستقي خلاله سوى مرة واحدة .

الثامن من أيلول (سبتمبر) :

وصل الباشا في الساعة التاسعة من مساء هذا اليوم وترجل عند خيمة حكيم باشي نظراً لأنه لم يكن لدى سعادته من وسائل الراحة والتسلية أكثر من خيام حريمه المهيأة عند آبار علي . لم تكن حاشيته كبيرة العدد ، لكنهم بشكل عام يرتدون ثياباً ثمينة ، وهم مسلحون . أوكَلَ الباشا إلى طبيبه أن يطلب مني القيام بزيارة له دون الدخول في مراسم تشريفات أو جلسات عمل ، فهذه الأمور ستؤجل إلى ساعة مناسبة من نهار الغد ، فأذعنت لطلبه ، واستُقبلت استقبالاً ودياً ، ثم قُدِمت القهوة بالإضافة إلى الغليون . كان الفنجان الذي قُدِم لسعادته موضوعاًفي صحن مرصع بالماس ، أما التي قدمت لباقي القوم فكانت قواعدها مصنوعة من الفضة .

أسهب سعادته في اعتذاره بالنسبة لموضوع المسير والإزعاجات التي لابد أن أكون قد عانيت منها الكثير مبيناً أن عودتي من رَسْ إلى عنيزة ما كانت لتلقى استحسانه لأن الطريق ليست آمنة ، وأن عملاً ما في غاية الأهمية كان قد اضطره إلى الانطلاق من الرس ، لكن تلك التأخيرات وخيبات الأمل ما كانت لتجتنب في ذلك الطريق .

أجبت على كلام سعادته بأني كنت حريصاً بشكل خاص على أن أصل إلى معسكره الذي في الدرعية ، لأن ذلك سيفسح لي فرصة تقديمي لسعادته تهاني النبيل الأعظم الحاكم العام في البقعة نفسها التي حصلت فيها القوات المسلحة

للإمبراطورية العثمانية تحت إمرة وقيادة سعادته على نصر يُشار إليه بـالبَنـان . ولقد بدت على سعادته علائم سرور طافح عندما علم أن أخبـار نصره وصلت إلى مسافات بعيدة مثل كلكوتا ، وأنه كان لنتائجه ذلك التقدير العالي المستوى .

قال : إنـه كان يرغب في أن يُعرَفَ شخصياً لـدى السلطـات الإنكليزيـة في الهند التي كان بينها وبين والده درجـة كبيرة من الصـداقـة والود ، حتى أن والـده كان يتفق في الرأي في جميـع الأوقـات مـع كل طلب للبريطـانيين ، وكان يرغب بشكل خاص أن يوضح عن ميله في جميع المناسبات إلى إقامة علاقات صداقة دائمة مع الإنكليز ، فهو يفضلهم على جميع الشعوب الأوربية الأخرى . دخل البـاشـا في تحقيـق مطـول عن الهنـد ، امتـدادهـا وثرواتهـا ، عـدد الجنـود والمـدن والسفن الحربية ... وإلى ماشابه ذلـك ، وبـدا في شوق إلى الحصول على فكرة عـامـة عن جميع هذه النقاط خلال المقابلة الأولى .

امتدت هذه الزيـارة حتى الثـانيـة عشرة حيث قُـدمت القهوة بشكل متكرر وجُددت الغلايين عدة مرات حتى خِفْت ألا تُختم حتى الصباح . بدا البـاشـا خلال زيارتي راغباً في أن يثبت في ذهني فكرة كونه جندياً في غاية الأُنس . فقـد قـدم لي مقداراً ضئيلاً من السعوط (النشوق) من علبة ألماسية جميلة . ولدى انسحابـه من الجلسة ذكر أن إقامته في آبار علي لن تتجـاوز ظهر اليوم التـالي وأنـه سيكون سعيداً بالاجتماع بي في خيمتي صباحاً ، وانكفأ إلى خيمة حريمه .

في صباح اليوم التاسع خرج سعادته من خيمة حريمه حاملاً أكبر أبنـائـه على ذراعيه واسمه عثمان بك ، وكان أحد ضباط حاشيته يحمل ابنته فاطمة . استَقبلت سعادته عند مدخل الخيمة وقُدته إلى كرسي وَضع عن يمينه وعن يساره كرسيـان ، أحـدهمـا من أجـل تشريف حكيم بـاشي الـذي يستطيـع أن يجلس أثنـاء حضـور الباشا . جدد سعادتـه منـاقشـة مسـاء أمس وقـد استفـدت من التبكير في اغتنـام فرصة قدمت فيها لسعادته رسالة النبيل الأعظم الحاكم العام ورسالةالشريف بحق

رئيس المجلس في بومباي ، فإذا بسعادته يأخذها ويقرأها بإمعان . عندما قدَّم سعادتُه نفسَه لي ذكر أنه شخصياً ليس معروفاً لدى تلك الحكومة حتى الآن إلا من خلال المراسلات الودية التي تم تبادلها بين والده وبين السلطات البريطانية في الهند . فأجبته أن الاتصالات الحالية تعتبر قاعدة لعلاقات صداقة شخصية دائمة أعربت له بها عن أملي في أن تستمر دونما انقطاع . ثم إني قدمت لسعادته السيف الذي كان قد هيئ ليكون عُربوناً لتحقيق ذلك الهدف . ولقد بدا سعادته في غاية السرور ، وأخذ يتفحص الفن في إتقان صنع السيف باهتمام بالغ ، وعندما استل النصل صرح بأنه واحد من أروع السيوف التي سبق له أن رآها ، واغتنم هذه الفرصة ليثني على الحاكم العام في ذوقه الرفيع الذي يظهر في اختياره لهذه الهدية .

بعد مناقشة إطرائية قصيرة أمر سعادته الخدم بالانسحاب ليدرس الرسائل للمرة الثانية ، ثم دخل في تفاصيل مطولة عن الإجراءات التي تظهر آثارها في الدرعية ذاكراً أن تدمير هذه المدينة ناشئ عن أوامر وجهت من استانبول . وقد عبر عن أسفه لعدم اطلاعه على خطط وآراء الحاكم العام قبل فترة من الزمن . واستفسر سعادته بشكل خاص عما إذا جرى أي اتصال بين السلطات العليا بصدد هذا الموضوع ، فاقتصرت جوابي على أني لم أُعلم فيما إذا كانت قد حصلت مثل هذه الاتصالات أم لا. ثم صرح الباشا بأنه لا يعتبر نفسه حراً في صياغة أي جواب بالنسبة لموضوع على مثل هذه الأهمية دون استشارة والده الذي سيوجهه إلى تقديم الجواب المناسب لهذه الرسائل .

ونظراً لأني شعرت بالقلق تجاه التأخير الذي سينجم عن هذا الإجراء فإني أوضحت لسعادته عن رغبتي في العودة إلى بومباي بأقصى ما يمكن من سرعة باعتبار أن ميناء جدة يهيئ أفضل فرصة للحصول على مركب . وطلبت من سعادته أن يعيد النظر في موضوع الرسائل وأن يتجنب إن أمكن تأخيري الذي

سينشأ عن استشارته لمعالي نائب ملك مصر (الذي سيبرهن رده على تملق كثير أيضاً ، باستثناء مزية ضئيلة يتوقع أن تتحقق من استشارته) فرجوت سعادته ألا يطيل فترة التأخير بل أن يصيغ جوابه ويسمح لي أن أرافقه في طريقه إلى مكة ، ومن هناك إلى جدة حيث يمكنني أن أوجه صوراً صادقة عن اتصالاتي إلى السيد الذي سيضعها بين يدي باشا مصر ويوضح البواعث التي دفعتني إلى طلب جواب دون ترقب استشارة معاليه .

رفض معاليه أن يصيغ أي جواب محتجاً بأنه لا يملك ذلك الامتياز ، وأنه يشعر بالسرور في الإسراع بتوجيه آرائي إلى جدة حيث بإمكاني أن أترقب عودته من الحج ، وخلال هذه الفترة يصل الجواب من القاهرة ، كما طلب سعادته مني أن أوجه رسالة إلى السيد صولط مفصلاً فيها طبيعة الاتصالات التي فُرض علي أن أقوم بها .

عندئذ أعلمني الباشا أن سياسة هذه الحملة موجهة من قبل أبيه بأوامر من الباب العالي في الإمبراطورية العثمانية ، وأنه هو بالذات جاهل تماماً للأهداف البعيدة التي دفعت البلاط العثماني إلى إرسال الحملة مشياً على الأقدام وقد أصدر سعادته أوامره بأن تكون الدرعية آخر حدود عملياته العسكرية ، منتظراً بعد ذلك التعليمات الأخرى الآتية من والده . وخلال هذا التأخير أرسل بريداً بعيداً إلى الأحساء والقطيف للحصول على مؤن لأن جيشه كان في حالة شديدة من العوز والكرب ، وأنه خلال هذه الفترة بالذات قد يكون للاتصالات مع البريطانيين أكبر الأهمية ، فبمساعدتهم سيصبح من السهل ترتيب سحب جزء من قواته ، وإن الصعوبة الأساسية التي تواجه هذه الخطة تكمن في سحب سلاح المدفعية الذي يُفضل تحاشيه بوجود سلاح البحرية .

أعلمني سعادته أن إمام مسقط كتب له رسالة يعرض عليه فيها استخدام زوارقه ضد الجواسميين في أي وقت يشير الباشا إلى أن الفرصة مواتية لذلك ،

لأنـه عنـد سقـوط درعيـة وتقـدم الأتراك إلى الأحسـاء كَتب سعـادتُـه رسـالتين للإمام ، لكن الإمام لم يتخذ أية إجراءات بصدد السير بهذه الخطط ، لذلـك أقلع الباشا عن هذا الهدف .

أدركت أنـه من واجبي أن أوضح لسعـادتـه أن العـلاقـات السلميـة والـوديـة والمراسـلات المتبـادلـة حتى الآن بين إمـام مسقـط والحكـومـة البريطـانيـة دفعت حكومة بومباي إلى أن تعتمـد اعتماداً كاملاً على جهود الإمـام في تشجيع مقترحـات الحكـومـة تجـاه الحملـة المعتزمـة ، وأن الإمـام قـد أخـذ العهـد على نفسـه بتقـديم التشجيعات والتسهيلات . وقد قاد هذا التشاور إلى الخاتمة التالية :

لم تزد توقعاتنا كثيراً عن نتيجةِ إشارةِ معـالي نـائب الملـك عن كونـه جوابَ إطراء ، فـسيعبر عن تقـديره للهـديـة التي قـدمت لابنــه ، والضـوء الــذي تَرى السلطات البريطانية من خلاله نتيجة الحرب القائمـة ضـد نفوذ الوهـابيين ، الأمر الذي يمكن أن يدفع القوتين إلى الالتقاء من أجل توحيد موارد البلدين مما يبرهن لمعاليه بشكل أكثر وضوحاً على حسن نوايـا الحكومـة البريطـانيـة في الهنـد لتمتين علاقات الصداقة الثابتة بالإضافة إلى النوايا الحسنة التي أظهرها معاليه في المـاضي وحتى هذه الأيام .

بدا سعادة إبراهيم باشا في غاية السرور نتيجة لتهـاني الحكومـة البريطـانيـة الإطرائية وللهدية النموذجية التي أرسلَتْها إليه ، فلا بد لهـذا النوع من الاتصـالات من أن يجعل الباشا يرغب في أية مشـاورات يخطـط إلى إجرائهـا في المستقبل بين سعادته وبين أية سلطات تعينها الحكومة البريطانية والتي يتوقع لها أن تسفر عن رضى متبادل . ولقد تبين أن هدف المهمة المتعلقة بتعاون مشترك ضد رأس الخيمـة غير عمليّ نتيجـة لظروف لا يمكن التنبؤ بهـا وكأن هـذا الفصـل المتقـدم من السنـة يهيء علاجاً للظروف الراهنة عن طريق القيام بـإجراءات يتوقع لهـا أن تسـاعـد على إنجاز هذه العهود .

لدى دراسة الخواتيم السابقة وجدت نفسي متحفزاً إلى إدخال السرور إلى قلب سعادته بموافقتي على انتظار نتيجة إشارة معالي نائب ملك مصر وبإرسال رسالة إلى السيد (صولط) موضحاً له تفاصيل الاتصالات التي جرت وطالباً منه أن يستعمل صلاحياته للإسراع برحيلي إلى الهند .

والآن وقد اختُتمت المشاورات عبّر سعادته عن رغبته في أن يكون الفطور جاهزاً ، وهي الوجبة التي يوليها سعادته قليلاً من الاهتمام . تستلزم مراسم الفطور التركي أن يُقدم كل صحن بشكل دَوَراني ، وأنّ على كل ضيف أن يأكل من الصحن نفسه مستعملاً ملعقة خشبية فقط . وعندما أُعلِن عن الفطور أخذ سعادته مقعده الذي يقع عند رأس الطاولة دون أن يظهر عليه أي ارتباك . استعمل ملعقته وشوكته وسكينه ببراعة فائقة ليتناول فطوراً مشبعاً . وقد بدا أن النوع الوحيد الذي لم يستسغه من المائدة الإنكليزية إنما هو الشاي ، إذ إنه لم يستعمله ، لذلك قُدم له وعاء من شراب حُلوٍ بديلاً عنه ، ثم ختم المشهد بالقهوة والغلايين ، وبقي سعادته حتى الحادية عشرة يناقش مواضيع متنوعة ، منها أن الخدم الفارسيين لفتوا نظره فإذا به يطرق نقاشاً طويلاً عن الاتصال الأخير بين الحكومة البريطانية وملك الملوك الذي لم يَبْدُ أن لدى سعادته رأياً مناسباً ومتكاملاً عنه . وفي الساعة الحادية عشرة عاد سعادته إلى حريمه ليرقد إلى ما بعد الظهر ، وهو الوقت المعين لانطلاقه إلى المدينة المنورة .

العاشر من أيلول (سبتمبر) :

بما أن سعادته وعدني بأن يرسل رسولاً إلى القاهرة فقد استغلّلت هذه الفرصة لأوجه الرسالة التالية :

« إلى هنري صولط ،

« القنصل العام لجلالتها في مصر .

« سيدي - لي الشرف أن أرسل رسالة من سكرتير رئيس حكومة بومباي إلى عنوانكم ملحقاً بها نسخاً عن الرسائل الموجهة من قبل النبيل الأعظم الحاكم العام ، والشريف رئيس المجلس في بومباي إلى سعادة إبراهيم باشا قائد الجيش التركي في الجزيرة العربية . ستطلعون من خلال دراستكم لهذه الرسائل على الخلفيات التي قد تدفع السلطات البريطانية إلى أن توجه رسائلها لسعادته وعلى فحوى المهمة التي أوكلت إلي .

« وصلت القطيف في السادس عشر من أيار على أحد زوارق الشركة الموقرة ومن هناك وصلت الأحساء بعد رحلة أليمة . ولقد انتابني شعور بالخزي عندما وجدت أن الآراء السياسية للباشا أوحت إلي بفكرة عامة معاكسة تماماً للتوقعات التي سبق لي أن تصورتها نتيجة للتقارير التي وصلت مؤخراً إلى السلطات البريطانية في الهند ، وإن رحيل سعادته من الجزيرة العربية ليس بعيداً . عندما أخذت بعين الاعتبار الخلفيات التي كان النبيل الأعظم الحاكم العام نفسه قد أرسل رسالة بصددها إلى إبراهيم باشا ، والتي يرجح أن يكون ردُّ فعلها على معالي محمد علي باشا رضىً كبيراً نظراً لأنه سيتعرف على نتيجة المغامرة الأخيرة التي حظيت بدرجة عالية من التقدير ، أدركت أنه يتوجب علي أن أتعهد رحلة إلى معسكر سعادته ، وقد أكد لي أنها لن تتجاوز عشرة أو اثني عشر يوماً .

« تسبب امتداد مسيرنا عن أحداث كثيرة غير متوقعة ، وقد اضطرني رحيل سعادته المبكر إلى المدينة أن أرافق الكتيبة التركية إلى الرس التي انطلق منها سعادته ميمِّماً المدينة قبل يوم من وصولي إليها ، فحاولت أن أعود إلى (البصرة) لكن الوضع العام في الجزيرة العربية في الوقت الحاضر جعل من المتعذر القيام بمثل هذه الرحلة دون دليل ، وهو أمر لم يكن لدى الضباط الأتراك صلاحية لمنحه دون أمر مسبق من سعادته . فلم يبق أمامي عندئذ أي بديل عن التوجه إلى المدينة التي وصلتها في السابع من الشهر الجاري ، نظراً لأن رحلتي التي

نفذتها كانت في غاية ما يتصور من الضنك والجهد خلال أسوأ فصل في السنة على الإطلاق وعبر منطقة صحراوية آلت الآن إلى أرض قفرة نتيجة لدمار الحرب وتخريبها .

« فوّض سعادته ضابطاً اسمه محمد آغا ، بشكور آغازي ، ليقودني إلى آبار علي التي تبعد ثلاثة أميال عن المدينة ، وهو المكان الذي عسكرت فيه أسرة سعادته ، حين تشرف سكني هناك بحضور سعادته . ولقد دفعتني إلى المدينة ضرورة ملحة بالتأكيد . وعلى الرغم من عدم التمكن من تحقيق ولو هدف واحد من المهمة التي نُدبت لها فإني اعتبرت أنه من الواجب علي تقديم الرسائل التي عُهد بها إليّ لسعادته بالإضافة إلى سيف مهيأ خصيصاً له ، تلقاه سعادته بأعلى ما يتصور من علامات الرضا . إن عهود السلطات البريطانية في الهند على الإخلاص لَتَدفعُها إلى الرغبة في تمتين أواصر الصداقة الثابتة والنوايا الحسنة تجاه الحكومة البريطانية . وقد أظهر معالي نائب ملك مصر ميله إلى تعزيزها وتقويتها بكل وضوح ، وهي المشاعر نفسها التي أثق بأنها ستدفع سعادة إبراهيم باشا إلى الموافقة على خوض أية مشاورات مستقبلية مع السلطات المعيَّنة من قبل الحكومة البريطانية ، والتي ستسفر بلا أدنى شك عن رضى كبير متبادل . وإني لواثق من أن هذه الدوافع والتوقعات ستكون منسجمة تماماً مع خطاب المركيز النبيل إلى سعادة إبراهيم باشا .

« عبر سعادته عن أسفه العميق تجاه التبدلات الاضطرارية التي أعاقت سير أموري وتجاه تأخر رسائل السلطات البريطانية الذي ثبط آماله في الالتقاء مع رغبات النبيل الأعظم الحاكم العام فقد كان من دواعي سرور الباشا أن يعيش مع أفكاره لو صدف أن أُعلم عن تصميم السلطات البريطانية في الهند في وقت أبكر ، كما عبر عن رغبته في أن يوصل الموضوع إلى معالي نائب ملك مصر لأنه يَعتبر طلبَ إشارته ذا أهمية بالغة ، ولأنه يتوقع حدوث بعض الاتصالات بين الحاكم

العام ونائب ملك مصر ، ربما لم يطلع عليها سعادته بعد . وقد استفدت من تصميم سعادته أن تمكنت من إرسال رسالة إلى القاهرة لأضع بين أيديكم الخطوط العامة لنتائج الاتصالات التي قمت بها .

« كان سعادة إبراهيم باشا في شوق عميق لأن يتحقق من مدى التأكيدات التي طَلب مني أن أنقلها لسعادته بالنسبة لتعاون قوى الجانبين مع النتيجة المحتومة لمثل هذا الإجراء ، فأعطيته مالدي من تعليمات مرتبطة بهذا الموضوع ، مع تأكيد على تصميم الحكومة البريطانِية على فتح اتصال دوري ومشجع مع سعادته مما دفع إلى بدء تبادل الآراء في الوقت الحاضر .

« أما الموضوع المشار به إلى معالي نائب الملك فناشئ عن إحجام إبراهيم باشا عن وضع أي رَدٍ لرسالة الحاكم العام بدون تعليماته . لذلك أستعطفك لكونك السلطة البديلة عن الحكومة بأن تعرض على نظر معاليه الخلفيات التي من أجلها وَجَّه الحاكم العام رسالته لسعادة إبراهيم باشا والنتيجة التي يمكن أن يسفر عنها التعاون مع القوات المسلحة البريطانية التي ينبغي أن تساهم في ترسيخ حكومة الباشا وأمانها ، ذلك لأن أفكار الباشا موجهة نحو امتلاك الجزيرة العربية أو محو نفوذ القبيلة الوحيدة المتماسكة التي يشكلها الوهابيون وحلفاؤهم ، والتي أصبحت الآن مقهورة .

« إني على ثقة من أن نصائح معاليه حول الموضوع الذي استعطفتك لتوضيحه ستمكّن سعادة إبراهيم باشا من أن يصيغ جواباً مناسباً لرسالة الحاكم العام ، وإن تأخري في ينبع ، وهو المكان المعين لسكني حتى يعود سعادته من الحج لن يمتد طويلاً إذا لم تكن هنالك ضرورة ماسة لذلك .

« لم يحالفني الحظ منذ وصولي إلى المدينة في الحصول على أية معلومات أستند إليها من أجل تشكيل رأي واضح عن السياسة التي أمر سعادة خليل باشا باتباعها

للسيطرة على العاصمة صنعاء (عاصمة اليمن) . وأنت تعرف بلا شك أنـه لا يوجـد مندوب سامي ولا وكيل أعمال في مُخا (ميناء يمني على البحر الأحمر) في الوقت الحاضر لـذلـك لن تـدري حكومـة بومبـاي بـالتعـديلات التي يمكن أن تحصل في مينـائهـا . ونظراً لأني أتوقع أن أمرَّ بمُخـا في طريـق عـودتي أجـد نفسي ملـزمـاً باتباع أية معلومات تضفي بها عليّ ، والتي ستساعـدني بلا شـك وتكون عونـاً لي في إرسـال استفسـاراتي إلى المصـادر الرئيسيـة التي قـد أتمكن من تشكيـل رأي عن طريق توجيهاتها . (١٢)

« لي الشرف أن أكون ، ...

« آبار علي ، قرب المدينة ، ١٠ أيلول ١٨١٩ »

الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) :

حدث بعد ظهر هذا اليوم حادث يؤسف له . فقد وصلت حامية عسكريـة في طريقها من ينبع نحو المدينة إلى نقطة تبعد ثلاثة أميـال عن آبـار علي عنـدمـا انفصل أحـد الضبـاط الأسـاسيين عن الحرس ، وهـو ابن الـوزير ، بسبب شـوقـه للوصول إلى المدينة في أبكر وقت ممكن ، وانـدفع إلى الأمـام بحمايـة خمسـة رجـال خيالة . وفي طريق ضيق بين الجبال هاجمتهم مجموعـة من قطـاع الطرق التي تغزو هذه الجبال باستمرار وبـأعداد كبيرة ، فجُرح ابن الوزير جرحـاً بليغـاً في ركبتـه ورُمي أحد الخيالة في صدره ، وهرب الخيالة البـاقون ووصلوا آبـار علي قـائلين : إنهم تركـوا الرجلين ميتين ، فـأرسِلت مجموعـة إلى مكان الحـادث لتحضر جثتي الرجلين اللذين زُعم أنهما قتلا فوجدتهما في حالة يرثى لها ، فجيء بهما إلى المعسكر . ولم يظهر غضب الجنـود الأتراك في رد فعلهم تجاه محنـة رفـاقهم من جراء هـذا التصرف ، فقد أوكلوا إلى الله أخذ الثأر من أولئك الذين لن تصل أيديهم إليهم .

الثالث عشر من أيلول (سبتمبر) :

وصل محمد أفندي (موهردار : حامل الأختـام) شقيق الضـابـط المجروح إلى المدينة ليزور أخاه ومعه تعليمات لإجراء تعديل في أمر مسيرنـا بسبب عـدم وجود عدد كاف من الجنود للحماية ، ولذلك تحول مقصدي إلى ينبع التي سيتوجـه إليهـا الحريم لكي يُنقلن عن طريق البحر إلى السـويس . سترافـق الركب أيضـاً أفراس الاستيلاد الخاصة بسعـادتـه ، وهي تتـألف من ثلاثمائـة فرس وجواد تشكل خيرة نسل الجزيرة العربية . وقد جمعها سعـادتـه من القبـائل المختلفـة في المنـاطق ألتي زارهـا ، فهم غـالبـاً مـا يحتفظون بجـواد أو فرس بهـدف الحفـاظ على تكاثر النـوع الأصيل . لـذلـك ستبقى تلـك الأجزاء من الجـزيرة العربيـة محرومـة من الجيـاد الممتازة سنين طويلة ، بينما ستنتشر في مصر على نطاق واسع ، فقد أرسل سعادته أعداداً كبيرة منها حتى الآن عدا تلك التي يخرج بها الجندُ من الجزيرة العربية .

لو كان لا يـزال في حـوزة العرب الـذين بجوار طريقنـا جـواد من الفصيلـة الجيدة فإن صاحبه لم يجازف في إحضـاره إلى مخيمنـا ليعرضـه للبيع لأنـه يتوقع أن يصادر الجواد ويعود صاحبه على قدميه ليضحك منه قومه . والطريقـة التي تتبع في شراء الخيول جديرة بالملاحظة . إذا رأى المشتري جواداً هو غرضه فإنـه يتقـدم بطلب لصاحبه الذي يسمح له بفحص الحيوان . أمـا إذا كان الجواد معروفـاً بـأنـه من نسل جيد فإن صاحب الجواد ينشر سجلاً نظـاميـاً عن نسبـه ، عنـدئـذ يعيِّن المشتري السعر ويسمي المبلغ ، ثم يجيب المـالـك من طرفـه بكلام حـازم بـالكلمـة الأحادية المقطع : لا ، فيُزاد المبلغ المعروض لـدى سماعهـا ، وهكـذا إلى أن يشبع البدوي جشَعَه . في هذه الطريقة من المساومة سمة أصيلة جداً ، فالمالك لا يعرض رغباته ولا يحدد أي سعر لبضاعته حتى يحصل على معلومـات عن حـاجـة المشتري وعن السعر الأعلى الذي تتحمل حالته المادية دفعه ، وتحـدث هـذه الصفقـات مع الغرباء والمسـافرين . أما المقايضة التي تحدث بين البـدو فلا بـد فيهـا من تحـديـد

السعر ، إذ لاتزال شائعة بينهم عادة تثبيت القيمة عن طريق عرض عدد معين من الجمال المكافئة للمبلغ .

وصلت قافلة حجاج دمشق وهي في طريقها إلى مكة صباح هذا اليوم ، إذ إن باشا الشام ، وهو صالح باشا (ذو ثلاث حواشي) ، مكلف بحماية الحجاج وبوَضْعِ الغطاء الجديد للكعبة . أما إبراهيم باشا ، الذي يتمتع أيضاً بمنصب ثلاث الحواشي ، فإنه مكلف بتأمين حماية للقوافل من هذا المكان إلى مكة ، لأنَّهُ يُعتبر باشا جدة وأرض محمد[1] المقدسة . كنت متشوقاً إلى تشكيل تقييم لأعداد الحجيج الذين وصلوا في حماية باشا الشام ومشاهدتهم وهم يقتربون من المدينة المنورة ، لكني لم أستطع أن أحقق هذا الأمل . كان ضمن حاشية الباشا عدة مدافع لغرض إطلاق نيران التحيات في مناسبات معينة . وقد أشار إلى وصولِ المدفعِ إحدى طلقاتِه . علِمت من الأتراك الذين عادوا من المدينة هذا المساء ، وكذلك من خدمي الذين كانوا هناك بغرض زيارة ضريح الرسول[1] أن عدد الحجاج كبير نوعاً ما ، وهو أقل بقليل من ذي قبل ، فيروى أن عدداً كبيراً قد هلك في العام الماضي وهم في طريق عودتهم بسبب النقص في الماء ، الأمر الذي يُعزى إليه كون العدد في هذه السنة لا يتجاوز خمسمائة حاج . وحجاج هذه القافلة من استنبول ومن أتراك آسيا كدمشق وغيرها . لكن المرء يتوقع أن يرى عدداً أكبر من المتدينين من هذه البقاع الشعبية الواسعة . وقد أمر السيد الكبير بإصلاح جميع مستودعات الماء وتنظيف الآبار وإعادة تأسيسها ، وقد نُفذ الأمر هذه السنة ، ولم أسمع عن هلاك أي شخص خلال المسير .

ليس في حوزتي وصف كامل للمدينة المنورة لأنه لا يُسمح لغير المسلمين بدخول هذه البقعة المقدسة ، فلم أحصل على فكرة كاملة عنها . تقع المدينة المنورة

---

(١) ﷺ .

في غورٍ وسْط أعظم الجبـال الصخريـة الجرداء . أسـوارهـا وحصـونهـا مبنيـة من الحجارة والكلس ، وجميع مـآذنهـا ملسـاء ومطروشـة ، وهي تهيء لسكانهـا ملجـأً رائعاً . لها ثلاث بوابات ، إحداها لدمشق ، وهي أقرب إلى كونها قلعة من كونهـا بوابة ، نصب على هذا الحصن عدد من المـدافع ، وفي هـذه النقطـة بـالـذات يُنشر العلم الأخضر أيام الجُمع . أما البوابتان الباقيتـان فهما لجُبان ومصر ، فوق كل منهما فتحتان لثلاثة مدافعَ . تنشر في الأعياد أعلام خضراء على هاتين البوابتين . توجد داخل المدينـة حـديقـة واسعـة يكثر فيهـا النخيل والرمـان وكروم العنب وبعض الفـاكهـة ذات النوع الجيـد ، وتحتل الخضـار الـدرجـة الأولى ، والبـاميـاء بشكل خاصٍ . يَروي المدينة جدول يدعى عيسون زرقة ماؤه عذب ، وفيها أيضـاً عـدة آبار . توجد أربعة قبور مقـدسـة بـالإضـافـة إلى قبر الرسول[1] وهي قبور أبي بكر وعمر وعلي وفاطمة[2] . في المدينة مسجدان أيضاً وقاضٍ واحـد ومفتيـان أحـدهمـا لمذهب الحنفية والآخر للشافعية ، مهمتهما تفسير الأحكام والعقائـد . فيهـا ثلاثون كلية ، أو بالأحرى مدارس تعليمية من أجل تثقيف الشباب . وقـد ارتفعت نسبـة النفقات هذا العام إلى ستمائة دينار صرفت على إصلاح القبور والمسـاجـد والأبنيـة المقدسة الأخرى . وإذا كان بـالإمكان الاعتماد على المبلغ أكثر من ذلـك توجب أن تُجرى الإصلاحـات بشكل متكرر وأن تجدد ، حتى أنـه نـادراً مـا يرى أي شيء متداعياً في الوقت الحاضر بـاستثنـاء قبر الرسول[1] بـالـذات الـذي يبـدو وكأنـه لم يُلمس . يعيش جميع سكان المدينة على التبرعـات التي يرسلهـا الأشخـاص الـذين يرغبون في أن تُقام عبادات وشعائر بأسمائهم ، كما أن الحجاج يوصون أبناءهم بدفع جزء من ميراثهم فيهـا ، ويرسل السيـد الكبير مبلغـاً كبيراً . إن العـالم الإسـلامي يتبرع في الحقيقـة لـدعم هؤلاء المتسولين الكُسـالى العـاطلين عن العمل ، فـإذا بهم

---

(١) ﷺ .

(٢) قبر علي ليس في المدينة المنورة وإنما في النجف بالعراق رضي الله عنه ـ المحقق .

يَثْرون ، وبسبب ثرائهم يعتقـدون أن لهم الحـق في أن يكـونـوا متغطرسين وأن يعـامِلـوا حتى المحسنين إليهم بـازدراء واحتقـار . يسرفـون على الطعـام في بيـوتهم بسخاء على الرغم من أنهم مشهورون بالجشع . تتمول المدينة بكميات كبيرة من المـاء ومع هذا لا يزال الغريب مضطراً إلى شراء كل شَرْبة ماء يحتاجهـا وأن يـدفع عنـد كل ضريح بشكل طوعي حيث يتوجه عنده بالدعاء . وتوزع المبالغ التي يدفعهـا الحجيج على شكل حصص . ولا يدفع سكان المدينة أيـة ضرائب . أشـار حسـاب دقيق إلى أن عدد المسـاكن فيها يصل إلى ستة آلاف ، نصفها مـدمر ، ويصل عـدد السكان الإجمالي إلى ثمانية آلاف نسمة .

في شمالي المـدينـة زروع نخيل واسعـة وحـدائـق فيهـا سكان كثيرون ، وإلى الغرب آبار علي التي تحولت إلى دمار في هذه الأيـام . وفي هـذا الوادي الممتـد بين الجبال التي في الجهة الجنوبية الغربية عدة قرى ومزروعات نخيل .

وعندما اكتملت ترتيبات مسيرنا تقرر أن يكون الرحيل في الخامس عشر من الشهر الجاري . النسـاء يتقدمن الطابور في عربات (التختروان) التي توصف بأنها خشنة جداً وغير مريحة أبداً . تتركب كل عربة من عمودين أو دِعـامتين طويلتين متوازيتين ، تثبت في مركزها منصـة عليهـا عرش مغطى بـالقماش لكي لا يخترقـه بصر ولا هواء .يحمل هـذه الآلـة جملان أحـدهمـا متقـدم والآخر من ورائـه بحيث يُقحم رأسه في جسم العربة لكي يتمكن من رؤية طريقه ، وترتفع نهايات الأعمـدة فوق جهازَيْ الجملين .

وقد استعملت هذه الناقلات على نحو مفيد جداً من أجل نقل المدافع القاذفة المثبتة على قواعد كمدافع الهاون وغيرها من العتاد الذي لا يعتبر بحد ذاتـه وسيلـة نقل لافتقـاره إلى عجلات ، فتركب على العرش المرتفع ، ويوضع المِدفع القـاذف على المنصة ، وترتب الجمال كما ذكرت آنفاً .

لكن هذا الأمر لا يتماشى مع جمال الجزيرة العربية لأنها بطيئة جداً بالنسبة لهذا الحمل المجهد ، فهي مرهفة لأن أصحابها لا يُلقون عليها أحمالاً ثقيلة . وهي أفضل من جمال مصر لأنها أكثر نشاطاً وتستطيع أن تعيش على الشجيرات التي تجدها في الصحراء خلال مسيرها اليومي . أما الجمل المصري فهو عبارة عن حيوان كبير وثقيل جداً ، ويحتاج إلى مقدار كبير من الحنطة والعلف ولا يستطيع أن يسير بخطأ سريعة .

كان أدِلأؤنا بعض الخيالة العائدين إلى مصر ، أما الباقون فهم من بدو المغرب المتوجهين إلى ديارهم ، وهم لا يتلقون أي أجر ، فهم يعيشون على النهب من خلال غاراتهم ، وقد ساقوا معهم ثمار جهودهم ، وهي تتألف من جمال وخيل من جميع الأعمار والحجوم ومعها النساء والأطفال والعبيد الذين سلبوهم خلال غاراتهم الحاقدة المختلفة .

وقد ظهر على المغاربة استياء كبير بسبب الأسلوب الذي طردهم به الباشا بعد حملة شاقة تحملوا فيها أعظم نصيب من الجهد ، خاصة في حاميات الحراسة ، ولم يَمنح سعادته ولو دولاراً واحداً أُعطية لأولئك الرجال التعساء الذين تبعوه راجين إحسانه من شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى شواطئ الخليج . دُرِّب هؤلاء الرجال تدريباً خاصاً جداً من أجل هذه الخدمة لأنهم أيضاً بدو منشّؤون على نفس العادات التي نشأ عليها بدو الجزيرة العربية ، ومؤهلون لكل مشقة ويعيشون على أي غذاء حتى الأعشاب الضارة والحشائش والحيوانات التي يمكن أن ترمي بها الصدف في طريقهم . وهم بشكل عام أشد عنفاً ونشاطاً من بدو الجزيرة العربية ، ويقال : إنهم أكثر شجاعة لكني أعتقد أن هذا يُعزى إلى كونهم أفضل أسلحة ، وبالطبع أكثر تضلعاً في استعمالها . امتطى كل رجل حصاناً عربياً بدا مظهره مزرياً بلا شك على الرغم من كونه حيواناً أصيلاً تتجاوز كفاءته التوقعات التي قد تتكون لدى الإنسان من النظرة الأولى . ومن عادتهم أن يركبوا

الجمل ويسوقوا الحصان المجهز بجهازه ، بنادقهم القديمة طويلة جداً وحرابها ثابتة ، والطرف الغليظ من البندقية آخذ شكل البندقية ذات الفتيل ويُستعمل الزناد بالطريقة التي يستعمل بها زناد البندقية الفرنسية ، وأتصور أن تكون القطعة بكاملها فرنسية الصنع أو ألمانية ، ومع الكثير منهم مسدسات وسيوف ضالعة أيضاً ، لكن السلاح الذي يقيمون عليه معظم الاعتماد إنما هو البندقية ، ويتخذون خلال مسيرهم هيئة الجند ويهجمون بأقصى سرعة . يطلقون صيحة مع إطلاق بنادقهم ثم يندفعون بسلاحهم الذي يحملونه بأيدٍ مرتفعة فوق رؤوسهم وإلى الخلف ، حيث تستعمل كلتا اليدين لاستعمال السلاح . وهم يعلقون ركاباً على شكل مِجرفة يَضرب جسم الحصان فيندفع إلى الأمام بشكل مستمر ، لكن عملاً من هذا القبيل سيكون له أثر تخريبي على جسم الجواد أو الجمل القتالي الذي لا يظهر عليه من الصمود في المرة الثانية ماظهر منه في المرة الأولى لأنه شعر بعنف الهجوم السابق . من هنا برزت فكرة أن رجال البدو المغربيين أشجع بكثير من بدو الجزيرة العربية .

الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا من آبار علي في السابعة صباحاً بطريق غربي عبر الجبال ، فأتينا بعد مسير ميلين على المنطقة التي جرح فيها التركيان قبل عدة أيام ، حيث يهيمن جبلان صعبا المرتقى على المَمَرّ الذي سُمِعت فيه طلقة مسدس ، وهنا أُرسل البدو ليترقبوا وصول أي مسافر وحيد يتوقع أن يحالفه الحظ بمرورنا ويرجو مساندتنا . وعندما تابعنا المسير في الطريق الجبلي وجدنا شجيرات كثيرة عديمة النفع وازدادت الجبال الصخرية ارتفاعاً . وصلنا في الخامسة مساءً إلى بقعة مميزة ببرج صغير أبيض منتصب على قمة جبل باتجاه الغرب على سفحه بئر عميق ذو ماء عذب ، فخيمنا على أرض قليلة الانحدار تكتنفها الكثبان من كل جانب ، فيها أشجار كبيرة كثيفة وأشجار صغيرة .

السادس عشر من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا في الخامسة صباحاً وتابعنا طريقنا عبر جبال الوادي نفسه . هذه الجبال عالية وصخرية وقاحلة ، تُرى في الوادي عدة شجيرات والطريق جيد ومفروش بالحصى ، بينما يستحيل عبور الجبال التي في الجهة الجنوبية الشرقية . حططنا الرحال في الثانية عشرة عند بئر ناءٍ لايحوي كمية كافية من الماء مع العلم أن طلبه يعتبر حاجة ملحة قبل هبوط الظلام .

السابع عشر من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا في الرابعة صباحاً ، وتابعنا طريقنا عبر الوديان مثل يوم أمس فوصلنا الجديدة في الثانية عشرة ، وهي قرية بائسة ذات أكواخ مبنية من الحجارة يرتفع قسم من أبنيتها فوق نجد منبسط يقابل سفح الجبل . أما القرية المنخفضة التي تحوي عدة حدائق نخيل فتقع في الأغوار . الماء فيها عذب ، لكن البطيخ والقثاء وغيرهما مما اقتنينا لم تكن جيدة . لاتسطع الشمس على هذا الوادي أكثر من ثلاث ساعات يومياً ، مما يجعله بقعة غير صحية . أما القبائل التي تسكن الجبال وتحمي هذا الممر فهي مسروح وميمون . وقد شقّتا طُرقاً على طول أعالي الجبال بهدف جمع أكبر عدد من القوات على نحو سهل ، وكان مدخل واديها منيع التحصينات في يوم من الأيام ، وجميع الأفراد مسلحون بالمسدسات والغدارات[1] وما شابهها فعندما تقدم طوسون باشا (ابن محمد علي باشا) بجنوده دافعوا عن واديهم بعزيمة كبيرة إلى درجة أنه لم يتمكن من عبوره دون أن يفقد كثيراً من رجاله . تابعنا طريقنا إلى قرية الحمراء التي وصلناها في الثانية عشرة ليلاً فوجدنا مؤنة من ماء مستساغ نوعاً ما لم يلبث أن ارتشفته الجمال التي لم يسبق لها أن استقت منذ انطلاقنا من آبار علي .

---

(١) بندقية عتيقة الطراز . (المترجم) .

الثامن عشر من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا في الرابعة صباحاً فإذا بكل شخص تقريباً يشكو من فقدان جمال أو متاع أو خيل ، فالأتراك لا يضعون أية حراسة أو رقابة خلال الليل ، وكانت اللصوص ناشطة تماماً خلال الليلة التي مضت . كانت الجبال والوديان كما هي عليه تقريباً . وفي السابعة مررنا فوق تل ثُمَّ نزلناه سالكين طريقاً صخرياً صعباً ووعراً يتشعب إلى فرعين ، الفرع الذي ينعطف إلى الجنوب يسير إلى مكة وجدة ويلتقي مع ذاك الذي يأتي من الحمرا متجهاً إلى المرتفعات ، والفرع الثاني يتجه إلى الغرب وهو الذي سلكناه إلى (بير السلطان) حيث وصلناه في الحادية عشرة قبل الظهر ، كان بئراً عميقاً جداً ومليئاً بالماء العذب ، وعلى الهضبة التي فوق البئر مباشرة حطام مسجد ، فخيمنا في سهلٍ رمليٍ صغير منبسط تتكاثف فيه أشجار عديمة النفع . أما الطريق إلى بدر فهي إلى الجنوب من هذه السلسلة حيث تجتمع القوافل المصرية والدمشقية بشكل دائم لتتابع إلى مكة ، وعندما تصل إحداها إلى هذه المرحلة تطلق نار التحية فتجيب عليها الأخرى لتتبادلا نبأ الوصول .

التاسع عشر من أيلول (سبتمبر) :

حططنا الرحال صدر هذا النهار لنعلف الجمال وأرسلنا بدو المغاربة إلى الأمام لنتمكن من المتابعة باطمئنان أكثر بعد الظهر . فسرنا في الثالثة وتابعنا طريقنا باستمرار حتى بزوغ الفجر حيث انبثقنا من التلال ونزلنا في ميلحا ذات الآبار المالحة .

العشرون من أيلول (سبتمبر) :

انطلقنا من ميلحا حيث تأخذ الطبيعة مظهراً جديداً ،فتنفتح على سهل واسع يطوقه البحر الأحمر من جهة الغرب . وصلنا ينبع في العاشرة صباحاً ، وهو ميناء عربي بحري متواضع محاط بسور من الحجارة غير المتماسكة ، ويبدو

عليه أنه يتداعى ، وقد قاموا برفعه حديثاً على نمط الأسوار القديمة ذات التطويق الكامل ليؤمن حماية لجميع السكان . لاتزال الأسوار القديمة وإحدى بواباتها قائمة ، لكنها لاتوحي بقدم تركيبها على الرغم من أن ينبع ميناء قديم جداً . والمنطقة التي يطوقها هذا السور فسيحة تكفي لاستيعاب خمسة أضعاف عدد البيوت ، لذلك لاتزال بُقَع واسعة عديدة مخصصة لأكوام الروث والمقابر والحفر المعدة للجمال والخيول الميتة ، مما يؤدي إلى تلويث هوائها .

ليس لينبع مصدر ثابت للماء ، إذ يحصل عليه بجمع ماء المطر في حفر عميقة مغطاة ، ولا يتوقع لهذا الماء أن يبقى بحالة جيدة أو يتحسن نتيجة لحفظه فيها لأن بناءها سيء ولأنهم لا يهتمون كثيراً بصفاء الماء عندما يخزنونه . أما الآبار الغائرة في البلد فتعطي ماء يصل في رداءة رائحته إلى رداءة الماء الآسن الذي يتجمع في جوف سفينة . وقد صدف أن الأمطار لم تهطل في هذه المدينة منذ ثلاث سنوات مما أدى بينبع إلى أن تصبح شبه مهجورة . بينما يمكن الحصول على ماء طيب من آبار علي بعد ثلاثة أو أربعة أميال بالقرب من بقايا حصن رفعه طوسون باشا لحماية معسكره .

كانت ينبع مستودعاً للذخيرة ومركزاً لتدريب الجند من أجل تعزيز جيش الباشا بالإضافة إلى أنها نقطة التجمع بين الطريق البحري الآتي من قناة السويس والقصير والطريق البري الذي تسلكه القوافل الآتية من السويس خلال أربعة وعشرين يوماً ، مع العلم أن مؤن الماء على هذا الطريق غير مستقرة .

هنالك بلدة أخرى تدعى ينبع تبعد مسافة قصيرة إلى الجنوب منها باتجاه الداخل ، يكثر فيها الماء وتُنتج حدائقها خضاراً تموّل المرفأ البحري . لم أستطع أن أزور هذا المكان لأن الجو كان شديد الحرارة والرطوبة ، كما أن صحتي ضعفت كثيراً . وقد اقترحت مرة أن نُغيّر اتجاه المسير بالتحرك نحو ينبع الثانية لاعتقادي بأن ظهور الماء والحدائق سيهيء لي وسيلة استجمام ، لكني أقلعت عن

هذه الفكرة فيا بعد لأني علمت أن البلدة الداخلية أكثر سوءاً من الناحية الصحية من الميناء البحري .

كانت إقامتي في ينبع بشكل خاص تعيسة جداً بسبب الحُمى التي هاجمتني ، ولم يكن في حوزتي دواء ولا مساعدة طبية . عاد الرسول الذي كُلف بنقل الرسائل في التاسع عشر من تشرين الأول يحمل نبأ بغيضاً مفاده أن السيد صولط متغيب عن القاهرة ، لكنه أحضر معه رسائل من معالي محمد علي باشا إلى سعادته الذي يقيم في جدة منذ مدة ، فقررت أن أبحر في أول زورق يتجه إلى هناك . وقد وصلتها على زورق مكشوف خلال أربعة أيام .

وعلى الرغم من أني وصلت ضحى اليوم السابع والعشرين فإني لم أستطع أن أدبر أية وسيلة للراحة أو النوم أو الطعام على هذا الشاطئ حتى مساء اليوم التالي . وكان سعادته مشغولاً كثيراً بتدقيق حسابات حاكم جدة الذي على وشك أن يُعفى من منصبه ، فلم يتذكر أنه كان من الضروري أن يرسل شخصاً ما لينقل لي رغبة سعادته فيا يتعلق بالوقت الملائم بالنسبة له ليمنحني أُذُناً صاغية ، لذلك أصبحت مضطراً لأن أُعبر لسعادته عن قلقي ، وقد استقبلني مساء اليوم التاسع والعشرين فصدَّر حديثه بكلمات الاعتذار المعتادة ليلفت انتباهي إلى غض النظر عن عدم إرساله أي شخص لاستقبالي . لم يكن نقاشنا ذا أهمية كبيرة ، فقد كان يحيط بسعادته عدد من الشخصيات ذوي الصلة بالحاكم المصاب بالخزي الآن ، وكانت استفساراته موجهة نحو أسعار الرز والسكر والأقمشة المنسوجة التي تباع على شكل قطع محدودة الأطوال في كلكوتا ، لكني لم أستطع أن أقدم له معلومات وافية عن هذه الأمور ، بل تجرأت على إقحام سؤال يتعلق بموضوع الردّ الذي وصل من القاهرة ، فأجابني سعادته بأنه ربما يتوفر لديه فراغ في المستقبل لمناقشته ،فصرحت لسعادته أنه ربما يكون من الأفضل أن يذكر لي اسم أحد وزرائه أو ضباطه لأتمكن من الاتصال به عن طريقه ، لأني لم أعرف حتى الآن

شخصاً أستطيع من خلاله أن أنقل أي توسل لسعادته بحرِّية ، لكنه لم يظهر عليه أنه أعَار هذا الطلب أي اهتمام . وعندما عدت من منزل سعادتـه رافقني اثنـان من حاملي المشاعل أصلهما من مصر ،وهما يريان أيضاً أن لهما الحق في ممارسـة سلطتهما المزعومـة على الوضـع الراهن في هـذه المنطقـة وكأن البـاشـا متقمِّصٌ في جسـديهما ويسير في البلد ، ذلك لأنهما أتقنا تعلم حرفتهما بدقة ، فما كادا يخرجان من البوابـة حتى شرعا يزعجان الحجاج المتسولين التعساء الـذين استسلموا إلى النوم على أرض الشـارع دون أي عـازل وأكثرهم بلا غطـاء وهم يُعطُـون صـورة عن أزرى مشـهـد للبؤس . كانت جميع شـوارع جـدة مـزدحـمـة بـالنـاس التـابعين لمختلف البـلاد الإسلامية ، إلى درجة أنـه كان يصعب التجـاوز من أحـد الشوارع إلى آخر خلال النهار .

أما مدينة جدة فهي ذات بنـاء جيـد ، إذ تحوي كثيراً من المنـازل الفسيحـة الشامخة ، ونـادراً مـاتتمكن من استيعـاب الحجـاج والأشخـاص الـذين تهيـأت لهم ظروف الثراء ، أمـا المُعـوِزون وأولئـك الـذين أنفقـوا مـالـديهم من مـال خـلال مواصلتهم رحلة طويلة شاقة لأداء هذه الشعيرة من دينهم فهم معرضون إلى أقصى أنواع البؤس بشكل مستمر . كما توجـد عـدة مخيمـات لأمثـال هؤلاء النـاس خـارج المدينة ، وإني لأرى أن هذه الزيادة في أعداد الناس لتحتاج إلى مؤن تكفي ثلاثة آلاف شخص . يتكون هذا الحشد من هنود شقوا طريقهم من أبعـد الأصقـاع عبر سرات ومـالبـار وكلكـوتـا ، وأتى بعضهم من السنـد ، وعَرب، كثيرون من عُمان والساحل المحاذي لها ، مفضلين طريق البحر الأحمر ليـدركوا الواجبـات الـدينيـة المتعاقبة والمتواقتة ، كما يُرى عدد لا بأس به من مسلمي الملايو ، ويعود عـدد كبير من الأتراك من هذا الطريق نحو القصير ومنهـا إلى القـاهرة ومصر العليـا ، كما أني لاحظت عدداً كبيراً من عرب المغرب أيضاً . ومضت أيـام كثيرة دون أي اتصـال مع الباشا ، فانتهزت فرصة قمت خلالها بزيارة للوزير لأنقل له رغباتي فقـال إنـه

لم يُعلم بالموضوع من قريب ولا من بعيد ، وأن الباشا سيبحر خلال أيام قلائل ، وأنه إذا ما سمع أي شيء عن المسألة فإنه سيعلمني . وبما أن الباشا قد استدعى الوزير في هذه اللحظة فقد طلبت منه أن يقدم طلباتي لسعادته .

لا زالت الأحوال العامة تتكشّف عن اضطراب لا يوصف منذ يوم وصول الباشا إلى جدة بعد أدائه فريضة الحج ، فقد تورط أشخاص كثيرون من جراء تدقيق حسابات الحاكم وذاقوا شتى أنواع التعذيب لانتزاع اعترافاتهم بشأن الاختلاسات المزعومة ، كما قُدر للحاكم سيد علي أن يعاني من إهانات كثيرة .

بما أن يوم رحيل سعادته قد تعين في السادس عشر من أيلول فإني قد التمست مقابلة أخرى أمكن أن تتحقق في الثاني عشر منه . وقد عبر سعادته عن بعض الأسف تجاه التأخير الذي عزاه إلى عدم قدرته على تأمين كاتب يتمتع بإمكانية صياغة رسالة بالعربية ، وأنه سيأمر بإجراء استقصاء أكبر عن رجل مناسب يوم غد ، وسيعبر في رسالته التي سيصيغها عن أسفه لعدم إجراء هذه الاتصالات في وقت أبكر ليتمكن من الاندماج مع آراء الحكومة البريطانية .

عبر سعادته عن رغبته في إرسال هديةٍ مناسبةٍ مع الرسالة فطلب رأيي في اختيارها قائلاً : إنه يصعب الحصول على أي شيء يتلاءم مع المناسبة في هذه الظروف . فكان جوابي لسعادته أن قيمة المادة المرسلة في مثل هذه الأوضاع ليست مسألةً ذات أهمية نظراً لأن الهدية الودية إنما تقدر بالأسلوب الذي تقلت به ، ويُقدَّر ثمنها بالتعبير عن علاقات الصداقة المتبادلة التي ترافقها . عبر سعادته عن رغبته في إرسال حصان عربي وفرس ، طالباً مني أن أحيطهما برعايتي وأن أكون الوسيط في تقديمها للنبيل الأعظم الحاكم العام ، الأمر الذي وافقت على القيام به بلا شك ، وعبر سعادته عن عزمه على منحي علامة تقدير قائلاً : إنه يتوجب عليه تقديم حصان إكراماً لي فما كان مني إلا أن وجهت شكري العميق لسعادته ، وأعلمني أنه أمر بتجهيز زورق لنقلي إلى مُخا .

وبما أنه كان من الضروري بالنسبة لي أن أتعرّف على جواب سعادته فقد طلبت منه أن يكرمني بنسخة عن الرسالة ، إذ قد تكون ضرورية في حال طروّ أي حادث ولكي أتمكن من صياغة ترجمة لها ،فتكرم سعادته بموافقته على هذا الطلب .

وفي الرابع عشر من تشرين الثاني أرسل لي نسخة عن الرسالة على أن أعيدها بعد دراستها وأرسل له لقب وعنوان الحاكم العام ، فاستجبت لطلبه وأرسلت له نسخة عن رسالة كانت في حوزتي تحوي اللقب الذي يشكل (أشرف الأشراف) جزءاً منه ، فجرَتْ بسبب هاتين الكلمتين معارضة خطيرة لأنه لقب يختص به الرسول محمد[1] فقط ، فطلبت من الشخص المرسل أن يلفت نظر المعارضين إلى أنه يمكن استبداله بلقب (أمجد الأمجاد) بسهولة . محّص سعادته هذا الموضوع بحماس شديد جداً عوضاً عن أن ينظر إليه بإحساس طيِّب ، مع أن لقب عباس ميرزا يماثله تقريباً ، وكذلك لقب نواب أشرف ، وتختلف صيغ ألقاب هذه السلالة تستعمل بأشكال متعددة لتعبر عن نبلٍ واستعلاء في النظام السائد لكتابة الرسائل عبر منطقة الشرق كله بالإضافة إلى اللغة العربية ، وكما هو الحال في اللغة الفارسية . ناقش سعادته ومستشاروه هذه النقطة حتى هين الغضب الديني على مفاهيمهم . ولقد تم في هذه الحالة تحاشي مامن شأنه أن يثير الاعتراضات التافهة باقتراح لقب يفيد المعنى نفسه .

كانت زيارة ثلاثة أو أربعة من سائسي خيل سعادته الذين أتوا لانتقاء الهدية آخر تلميح وصلني بصدد الخيول التي سبق لسعادته أن أمر بتحميلها على الزورق الذي عزموا على إرسالي به إلى مخا ، أما الآن فإنه قد تعمّد ألا يكسبني الشرف أو يجاملني في أن يُريني الحيوانات التي سبق له أن طلب مني أن أكون

---

(١) ﷺ .

واسطة تقديمها ، والتي تشاورنا معاً بصددها في المقابلة الأخيرة ، لكني لم أعلق على هذه الناحية بشيء .

أحضر أحد أقارب سعادته إلى مسكني بعض قطع من جهاز حصان وذكر أنه مكلف بنقلها لتكون ملحقات للخيل المعدة للحاكم العام ، وقد أرسلها الخازن محلولة من رباطاتها .

وتتألف هذه القطع من عِذار[1] وطوق صدري وحِلس[2] طليت بالذهب والفضة ، وزوج ركابٍ فضي . لكن سرعان ما يلاحظ الناظر إلى الحِلس حالته البالية ومظهره المزق ، مما أشار إلى أنه كان في يوم من الأيام جهازاً تافهاً لسعادته في كثير من المناسبات . ثم إني لم أرَ أن تقديم رأيي في موضوع سبق لي أن استشرت به سيعتبر ذنباً خطيراً يخالف مبادئ الأدب عند الأتراك وهو أمر لا أتوقع أن يسوغه الجهل المطبق على عقولهم ، فطلبت من حامل الملحقات أن يعود بصحبة الرجل الذي سيحمل رسالة شفهية إلى الوزير عن هذا الموضوع ليعلمه « أني أجلت قبول جهاز السرج حتى تسنح لي فرصة إجراء مناقشة معه ، طالباً من أجل هذا الغرض أن أعلم متى وأين سيحصل لي الشرف في زيارته » فأعطيت المواد لرسول سعادته لينقلها إلى الخازن في طريق عودته ريثما تجري بعض النقاشات مع الوزير ، لكن لم تتيسر لي فرصة إجراء مناقشة معه لأنه لم يعلمني عن وقت فراغٍ يمكنه أن يستقبلني فيه .

استدعي حينئذ حكيم باشي طبيب معاليه الذي كان يعمل كمترجم لكي يُعرفهم على الدوافع أو على الخلفيات التي كانت وراء اعتراضي ، فأطْلعت ذلك الرجل على تلك الظروف وطلبت منه أن ينقل لسعادته استعدادي لخدمته في

---

(١) العِذار : ما سال من اللجام على خد الفرس . (المترجم)

(٢) الحِلْس : قماشة توضع تحت السرج . (المترجم)

تقديم الإيضاحات إليه شخصياً ، لكن سعادته فضل أن يكون ذلك عن طريق المترجم ، فتقدمت بما يلي : إن الجُل[1] ليس من المتممات الضرورية ، ونظراً لعدم إمكانية الحصول على جُلٍ جديد أو في حالة جيدة ، فلعله من الأليق أن يُستغنى عنه . وفوّضت المترجم في حال احتياج سعادته لإيضاحات أكثر بأن يقدم له رأيي بأن القطع التي سبق لها أن استعملت لا تعتبر هدية مناسبة لرجل نبيل يشغل ذلك المنصب الرفيع في ظل الحكومة البريطانية ، كالمنصب الذي يشغله النبيل هاستينغز الآن .

أمر سعادته حكيم باشا بأن ينقل لي الرسالة الشفهية التالية : « إنه نظراً لكوني قد قدمت اعتراضاً بصدد موضوع تجهيزات الحصان فإن سعادته قد أمر بإنزال الخيول إلى البر ، وأن الجواب قد أُلغي ، كما أمر بإتلاف الرسائل ، وإن سعادته يأمرني بالرحيل غداً في الزورق الذي أعِد لنقلي إلى مُخا ، وإنه سيوجه رسالة إلى الحاكم العام لدى وصوله إلى القاهرة راداً معها السيف الذي أهدي إليه » .

عند ذلك توضح لي أن سعادته كان يرمي من خلال هذا التصرف إلى تقليص منزلة السلطات البريطانية في أعين حاشيته وأعين سكان جدة ، وأنه رغب في أن ينتحل لنفسه صفة التفوق والاستعلاء لا التساوي ، وهي الصفة التي لا يحق لأي باشا أن يطالب بها . إنهم يقيمون وزناً كبيراً لمراسم الهدايا ، تماماً كما يقيمون للألقاب . لكنه عندما رفض استعمال كلمة معينة بدعوى الالتزام بأحكام الدين ، أصبح من الحكمة تقديم تعبير آخر من أجل تجنب إثارة الاعتراضات التافهة والخصومات وجرح المشاعر .

أما بالنسبة لموضوع الهدية فقد سبق لي أن رفضت الإدلاء بأي رأي عنها

---

(١) الجُل : أغطية مزركشة لسرج الفرس . (المترجم)

على الرغم من الإلحاح علي بشكل متكرر من أجل ذلك خلال المقابلة . فلو أرسل السرج والجل إلى الزورق مع الخيل لما بقي مجال لإبداء أي رأي ، لكن نظراً لأن التجهيزات قد أرسلت إلي خصيصاً وهي محلولة لكي تُرى بوضوح فإني لم أتوقع سوى أني إذا رفضتها بشكل عنيد فإن ذلك سيعرضني إلى أن أوصم بأني وافقت على الهدية وصرحت باستحساني لها عندما كان الكلام علنياً وعلى رؤوس الأشهاد فقط ، الأمر الذي يحمل في طياته معنى الاستخفاف المتعمد .

أوكلت المسألة إلى الوزير والخازن اللَّذَيْن كانا يبدوان لي أنسب شخصين يمكن أن يتم التعديل من خلالها دون أية مراجعة أخرى ، خاصة عندما يرافق الرسالة الشفهية اعتذار معقول للتراجع عن ذلك القسم الذي بدا مزعجاً في ردي ، لكن نفوس جميع أولئك الأشخاص كانت تفتقر إلى الرغبة في كسب رضا الآخرين . وطالما أن قِلة احترامهم اقتصرت على شخصي بالذات فقد وجدت نفسي عازماً على أن أظهر عديم الإحساس تجاه ماظهر منهم ، لكنه كان من المحال أن أتظاهر بأني أجهل أمراً مشهوراً عندهم على نطاق واسع وعلى مستوى أدنى تركي .

تُعطى الثياب التي رأيتهم يرتدونها للمعتمدين منهم والخدام فقط ، وربما لا يتنازل سعادته بأن يقدم لوزيره أو مدير مكتبه أية قطعة منها .

لذلك لم يبق في جعبتي سوى جواب واحد للرسالة الأخيرة التي أرسلها لي وهو أني كنت قبلت تجهيز الزورق لو كانت الظروف على غير هذه الحال . فينبغي عليَّ الآن أن أُدبر مركباً على حسابي الخاص لينقلني إلى المقصد الذي أفضله لنفسي لا ما يفضله لي غيري وفي التوقيت الذي يتلاءم مع مصلحتي على أكمل وجه .

أرسلت الرسالة التالية :

إلى هنري صولط :
القنصل العام لجلالتها في مصر .

سيدي ، إني لأعبر عن أسفي لأني لم أحْظَ باستلام جواب لرسالتي السابقة التي أرسلتها إلى القاهرة مع مبعوث سعادته خلال إقامتي في ينبع ، أو جدة . وعند عودته أوصل رسالة السيد (بيير) وأعلمني عن غيابك . كانت إقامتي في ينبع مفعمة بالتعاسة بسبب إصابتي بالحمى في الوضع البائس الذي كنت فيه ، لذلك توجهت إلى جدة بمجرد أن أصبحت قادراً على التماسك على متن الزورق .

١ ـ لم يكن استقبالي في جدة لائقاً ، وحدث تأجيل طويل اعتذر سعادته من أجله وعزاه إلى عدم وجود كاتب يستطيع أن يدون رسالة بالخط العربي .

٢ ـ عبر سعادته خلال المقابلة الثانية التي حصلت بعد وصولي بعدة أيام عن عزمه على صياغة جواب للحاكم العام يُبلغه فيها عن أسفه العميق لعدم حصول هذه الاتصالات في فترة أسبق ليتمكن من مشاركة الحكومة البريطانية أفكارها وأهدافها ، وطلب مني أن أقوم بانتقاء حصان وفرس للاستعمال الخاص بالنبيل الأعظم الحاكم العام فأعلمته أن من واجبي تنفيذ أمره ، وعلمت أنه مصمم على تقديم الهدية .

٣ ـ أعدّ سعادته الجواب وأرسله لي لأدرسه طالباً مني أن أرسل له لقب وعنوان الحاكم العام فاستجبت لذلك وأرسلت له نسخة عن رسالة كانت في حوزتي تتضمن لقب (أشرف الأشراف) فأثيرت اعتراضات خطيرة جداً عليه لكونه يخص الرسول محمداً[1] فقط . ولكي أتجنب الصعوبات وأتحاشى إثارة الاعتراضات التافهة لفتُّ نظرهم إلى إمكانية استبداله بلقب (أمجد الأمجاد) بسهولة .

---

(١) ﷺ .

٤ ـ أمر سعادته بتحميل ثلاثة جياد على المركب الذي أُعِد لنقلي إلى مُخا ، اثنان منها للنبيل الأعظم الحاكم العام وواحد لي شخصياً ، ولم يشرفني سعادته أو يجاملني بالسماح لي برؤية الحيوانات التي طَلب مني أن أكون واسطة لنقلها للنبيل مع أنه استشارني قبل ذلك في تقديمها ، ولم أنطق ببِنْت شفة تعليقاً على هذا الموضوع .

٥ ـ أمر سعادته الخازن بإرسال جُلٍ مطليٍ بالذهب لعزمه على تقديم الملحقات الضرورية للخيل ، ووفقاً لتعليمات سعادته أُرسلت إلي هذه الملحقات مكشوفة ومحلولة عن بعضها بعضاً لكي تسهل رؤيتها ، فإذا بالجِلس وغيره من القطع بالية تماماً وممزقة فطلبت منهم أن يعيدوها إلى الخازن إلى أن تتهيأ فرصة للتشاور مع وزير سعادته . وأرسلت طلباً للوزير ألتمسه أن يشرفني بمقابلة ، لكن هذا الأمر لم يتحقق .

٦ ـ عبَّر سعادته عن سخطٍ كبير بسبب رَدِّ الملحقات فتقدمت إليه بالجواب التالي عن طريق الطبيب حكيم باشا وسيط سعادته الذي قام بعمل المترجم : (نظراً لكون الملحقات متمات غيرِ ضرورية ولعدم التمكن من الحصول على قطع جديدة منها فإنه أدعى إلى الحكمة الاستغناء عنها ، لأنه لا يمكن أن تُعتبر الأدوات التي سبق أن استعملت هدية لائقة برجل نبيل يملأ المركز السياسي المرموق في ظل الحكومة البريطانية ، كالذي يملؤه (المركيز هاستنغز) الآن .

٧ ـ وجَّه لي سعادته جواباً نقله الشخص نفسه وهو : نظراً لكوني رفضت نقل الملحقات التي أمر بإلحاقها بالخيل فإنه أمر بإنزالها من المركب وبإتلاف الرسائل وأن أستعد للرحيل في اليوم التالي بالقارب الذي أُعد لنقلي إلى مخا ، وإن سعادته سيدبر كاتباً لدى وصوله إلى القاهرة ليرسل رسالة مناسبة للحاكم العام يعيد معها السيف الذي أهدي إليه .

٨ ـ أما بالنسبة لتصرُّفي تجاه هذه النقاط فكان كالتالي : اعتبرت نفسي مخولاً بمعرفة موضوع جواب سعادته لأن التعليمات التي أُمرت باتباعها كانت ترسم لي خطاً معيناً علي أن أسلكه في ظروف معينة كان يُتوقع أن تبرز أمامي . وذكر سعادته بالإضافة إلى ذلك عن حاجته إلى كاتب للعربية موثوق في إمكانياته ، وكان قد أرسل لي نسخة عن الرسالة لدراستها . أما بالنسبة للّقب فإن ألقاباً كثيرة على غراره منتشرة بينهم ولم يسبق لي أن سمعت بإقامة أي اعتراض عليها ، مع هذا تم تحاشي كل ما يثير الاعتراضات التافهة بتقديم لقب يوحي بالمعنى نفسه .

٩ ـ أما بالنسبة لحجة سعادته المزعومة التي سببت استياءه وغمه فيتوجب علي أن أُعلمك بأنه سبق أن خصني باستشارته إياي والتماس رأيي فيما يتعلق بملاءمة الهدية التي طلّب مني أن أكون الوسيط في تقديمها ، لذلك لا أتصور أني انتهكت مبادئ الأدب والتربية السليمة في تقديم الرأي الذي سردته عليكم في الفقرة السادسة .

١٠ ـ جعلتني التعليمات التي تلقيتها من أجل أن ترشدني في خطواتي أُعلمك أنت بشكل خاص عن طبيعة استقبالي ، فإليك الصور الرئيسية عن هذا الموضوع بالتفصيل :

انطلقت من الأحساء معتمداً على تأكيد بأني سأصل معسكر سعادته في غضون عشرة أيام ، وبعد مسير مُضنٍ استمر خمسة وثلاثين يوماً وصلْتُ منطقة تبعد مسافة مرحلة عن سعادته ، وكان في عنيزة ، وهو يعْرف تمام المعرفة أني كنت برفقة (قفتن آغازي) ، لكنه لم ينتظر وصولي ولم يتخذ احتياطات ليؤمن لي اتصالاً أسرع بسعادته . ونظراً لأنه لم يفوض أي شخص للاتصال بي ، بسبب وضع الجزيرة العربية في تلك الآونة فقد اضطرني إلى التوجه نحو المدينة ـ مع أنه كان بالإمكان تحاشيها ـ ثم أنجزت عودتي إلى البصرة باطمئنان .

١١ ـ لم تظهر سمات التهاني العامة على وصولي إلى آبار علي ، الأمر الذي

يتكشف عن نفور واضح في نفس سعادته ، لكنه كان أنيساً في نقاشه وشرفني بحضوره إلى مقر سكني . أما تصرف سعادته عند مناقشة المسألة الأساسية وتصميه على التماس إشارة القاهرة بالنسبة لجواب الرسالة فإنما يدلان على غرور ذاتي عميق ، اضطرني إلى الموافقة على الانتظار مما سبب لي تأخراً يزيد عن شهرين ، كما ستلاحظ لدى مراجعتك تاريخيْ رسالتَيّ .

١٢ ـ توقعت لدى وصولي إلى جدة أن أجد شخصاً من حاشية معاليه مندوباً لاستقبالي أو لزيارتي بعد نزولي ، لكنه تحاشى هذا الأمر متعمداً ، ولم يوافق على طلبي الذي أكدت فيه على التعرف على وزيره أو (أمين سره) لأتمكن من الاتصال بسعادته عن طريقه ، لذلك لجأت إلى تركيز اتصالاتي مع أشخاص أدنى من جميع الأشخاص المقربين إليه .

١٣ ـ أطنبت في إيضاحي للأمور بقصد إعطائها أفضل قالب لتوضع بين يدي معالي محمد علي باشا فربما يشعر بضرورة دراسة تصرفات سعادته بما يستحق من اهتمام وليعبر عن عدم رضاه عن هذا النوع من تبادل العلاقات لأنه سيعجل في حدوث احتجاجات شديدة اللهجة .

« لي الشرف أن أكون » ....

« جدة » ١٤ تشرين الثاني ١٨١٩ .

السادس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) :

صعد سعادته السفينة في صباح اليوم السادس عشر من تشرين الثاني مودعاً بتحية من جميع المدافع التي كانت على البر والتي كانت على الماء ، الأمر الذي استنتجت منه أن أتراك مصر غيرُ غافلين عن ضرورة إقامة مراسم التشريفات العامة التي يطلقون عليها اسم (فنطزية)[1] . وفي صباح السابع عشر أبحر

(١) إطلاق مدفعي متحرر من قيود الشكل .

سعادته باتجاه قُصير دون أية نية لزيارة ينبع . كُررت التحية في هذه المناسبة حتى فرغ المرفأ من جميع السفن . لم تتجلَّ البهجة التي عبر عنها سكان جدة بعد رحيل الباشا واستبداده على قسمات وجوههم فحسب بل انطلقت حناجرهم تتحدث عنها جهاراً في جميع المجتمعات . وقد عيّن الباشا قبل رحيله الرئيس حجي حسن ، الذي كان قائدَ الأسطول ، ليقوم بالمهام التي كان يقوم بها الحاكم الأخير سيد علي الذي أعفي من منصبه لاتهامه بتخصيص العائدات التي استمدها من ممارسته للتجارة في جدة لمنفعته الخاصة . هذه هي مبادئ العدالة التي يعتبر الباشا نفسه في ظلها مخولاً على المال الذي اكتسبه هذا الرجل بتجارته مع الهند في سفنه الخاصة وبرأسماله الخاص محتجاً بأن وضع مثل هذا الرجل كوضع عبدٍ يعود الحق في ماله لسيده . ساعدت هِراوات الجلادين كُتّاب سعادته في تسوية حسابات (سيد) الذي رأى نفسه مجرداً مما اكتسبه خلال عشر سنوات ، وانقلب إلى متسول يطوف على غير هدى في المدينة التي كان فيها حاكماً في يوم من الأيام .

سررت في صباح اليوم الثامن عشر لِتَلَقّي زيارة من قبل الحاكم الجديد يرافقه السيد عربي جيلاني وعدد من التجار الذين كانوا معتادين على تبادل المحادثات مع الإنجليز . وقد عبَّروا عن أسفهم لأنهم لم يكونوا قادرين على إظهار اهتمامهم بي خلال وجود الباشا لأنه لم يصرح لهم عن رغبته في ذلك ، وقد اعتبروا صمته تحريماً ، ولم يرغبوا في إجراء أية محادثات خاصة خشية أن يستثيروا يقظة الباشا . سبق لرئيس حسن أن زار (كلكوتا وبومباي) خلال قيادته لسفن أسطول الباشا ، وقد عبر عن امتنانه تجاه المعاملة اللطيفة التي لقيها هناك . أما (عربي جيلاني) فقد قدمت أسرته للإنكليز خدمة فريدة من نوعها ، خاصة خلال الحملة التي قاموا بها في مصر عندما تمكنوا من خلال اهتمامهم بشريف مكة مِن الحصول على تمويلات ضخمة من المواشي ودعمٍ للأسطول . لكن سطوة الأتراك

في هذه الآونة تجعل أمثال هذه الخدمات خاضعة بكاملها لنزواتهم ، مع أن الأفراد يكونون أحياناً نزاعين إلى توجيه مصالحهم نحو أصدقائهم السابقين . ويبدو أن الرعب الناتج عن مسدسات الباشا وهراواته أكثر تأثيراً على الناس من الذهب البريطاني ، فإنه على الرغم من جميع توسلاتي لم أستطع أن أحصل على رسول ينقل رسائلي إلى القاهرة مما أجبرني على أن أكون على أتم الحذر بالنسبة للأسلوب الذي أرسلهم به .

قررت أن أبقى في جدة على أمل تلقي جواب من السيد صولط قبل وصول مركب من الهند ، وهو الطريق الوحيد الذي بقي مفتوحاً أمامي الآن لأنه يستحيل الاتصال ببصرة أو العودة من أي طريق آخر ، وليست هناك أية ضرورة فعلاً للقيام بمثل هذه المحاولة المحفوفة بالمخاطر ، فهي لا تخدم أية مصلحة عامة .

أولاً : لو كان بإمكان المراسلين أن يعودوا من الرس إلى بصرة فالقطيف ثم ما يليها لعلمت الحكومة مسبقاً بإخفاق المهمة ، من جهة أخرى لو أخفق هؤلاء الرجال بالمحاولة ما كان ليبقى أمامي أي أمل في النجاح .

ثانياً : ينبغي أن يكون وصولي إلى الخليج بعد اختتام الحملة بوقت طويل .

وجهت رسالة[1] إلى الشريف السيد ألفنستون عضو المجلس في بومباي مفصلاً النقاط المختصرة السابقة .

الآن وقد انتهت شؤون مهمتي فسأسعى إلى جمع مخطط عن الإجراءات التي قام بها الأتراك في الجزيرة العربية بحيث يكون أقرب ما يمكن إلى الصحة من

(١) أرخت هذه الرسالة في جدة ، الثامن عشر من تشرين الثاني نوفمبر ١٨١٩ ، وقد وجهت إلى كلكوتا (راجع الملحق ب) .

الملاحظات التي دونتها في مناسبات سابقة وفي روايـات أوثق مَنْ مَثَّلَ على مسرح آخر الحملات التي قام بها سعادته ، وذلك بمقارنة التقارير المختلفة عن معـاركهم كما رويت عن أكثر الضباط والأشخاص ذكاء ممن تورط في هذه المآثر مبتـدئـاً بوصف مختصر لإبراهيم باشا . (١٣)

هو أكبر أبناء نائب ملك مصر ، أنجبته أرملةٌ تزوجها معـاليـه ، تكون أختـاً لمصطفى بك ، وهو ضابط متفوق . يقال إن إبراهيم بـاشـا وُلـد بعـه شهور قلائل من زواج والديه ، مما يؤيد الرواية التي تقول : إنـه ليس سوى ولـد متبنى لمحمـد علي . وعندما ترعرع أمضى سنـةً كرهينـة في إستنبول نُقل بعـدهـا لاستلام مركز (دفتردار : رئيس ديوان) في القاهرة فأبدى براعـة في شؤون الرِّيع ، لكنـه كان مُفرطاً في إدمانه على الخمر وجلفاً مع الأشخاص المستخدمين عنـده . وعنـدمـا شَن محمد علي باشا حملتَه الأخيرة ضد المماليك في مصر كان إبراهيم بك على رأس ثلاثمائة فارس . وقد اشتهر بأنه جندي جريء ، إذ انتهت تلك الحملة بقتل جميع المماليـك الذين سقطوا في يـد البـاشـا واختتمت بقتل وحشيٍّ لكل من سكن القـاهرة وقرى مصر العليـا منهم . ثم أُرسل لِجَمْع الريوع ، ولتحويل القرى إلى المـزارعين الجـدد بمسـاعـدة عـدد من الموظفين الأقبـاط الـذين أفلحوا في اختلاس مبـالغ طـائلـة ، وعندما عاد إلى القاهرة وجد أنـه معين لقيـادة الجيش الـذي تقرر إرسـالـه لطرد المماليك إلى ماوراء إبريم فنفذ هذه المهمـة وعـاد إلى أسْنـة مع عـدد من المسـاجِين ورجال آخرين قبلوا حماية البك الشاب . وهنـا فُصلوا عن بعضهم بعضـاً ووضعوا في بيوت أشخاص متفرقين بوصفهم يخصون البك الشـاب ، لكنـه أرسل بعـد فترة قصيرة أمراً من القاهرة إلى محمد أفندي (ابن الوزير الحـالي لإبراهيمَ) ، وهو الآن بوظيفة (حامل الأختام) بأن يفنيهم عن آخرهم ، فأطـاع الأفنـدي أوامرَ سيـده وباشر الذبح فيهم بيده . وبعد هذه الإجراءات نُصِّب حاكماً عاماً لمصر العليا (عام ١٨٠٩) واحتفـظ بمركز دفتردار . زاد خلال فترة حكمـه من مقـادير الريوع وفقـاً

لأوامر أبيه وأنفق مبالغ طائلة من أجل تطوير الثقافة وتوسيع رقعة انتشارها . لكن جميع تصرفاته اتسمت بالعنف والقسوة في حفاظه على النظام ، ففي إحدى المناسبات أمر البك الشاب بأن يشوي أحد الأقباط على سَفّودٍ ، واتهم أحد القبط بالاختلاس فأمر بجمع كومة من القش والخشب المقطع المغمور بالمازوت وتقدم (الخوجا سليمان) فأضرم النار بالكومة بمساعدة أحد جلاديه . ولسوء الحظ أن هذه الوحشيات لم تكن مقصورة على أشخاص مرتكبين لجُنُحات معينة بل امتدت في عدة مناسبات حتى وصلت إلى المقربين من أسرته ، ولو أردت أن أروي عن المجازر الكثيرة اللاإنسانية التي تكشفت لي مع تفصيلٍ لدقائق ظروفها وأسماء الأشخاص المتورطين فيها لازداد هذا الكتاب إلى حجم هائل .

وفي عام ١٨١٣ نُصّب إبراهيم بك (باشا ذو حاشيتين) وعُيّن للخراج ، وقيل إن قسوته في تصرفاته تعود إلى المسؤولية التي حملها في هذا المنصب وأمله في الحصول على ترقية في المستقبل ، فهذان الأمران أثرا بشكل حساس جداً على سلوكه . كان مدمناً على الخمر واللهو ومتابعة الزي الأوروبي فيضع زجاجة الخمر والكأس على طاولته وتراه متداعياً على كرسيه لكنه كان يتحرى أقصى ما يمكن من السرية في أمثال هذه الشؤون .

وفي عام ١٨١٥ عين قائداً للجيش الذي تقرر أن يشق طريقه داخل شبه الجزيرة العربية وكانت المجموعة الأولى من الجنود قد وضعت نفسها تحت تصرفه بصفتهم متطوعين . لكن العدد لم يكن كافياً لذلك أصدر أمراً نصحه به إبراهيم[١] (وكان حينئذ وزيره) يمنع أي عسكري من استلام أمر إعفائه من الخدمة وإجبار جميع الجنود على المتابعة . وكانت الخطوة التالية تغيير سُرُجِ خيل الفرسان واستبدالها بأمثال تلك التي يستعملها المغربيون أو البدو الأجانب لتحل

---

(١) فرّ هذا الرجل سراً فيما بعد واستخفى ، واستبدل بالوزير الحالي سليمان آغا .

محل السَّرْج المملوكي المستعمل في القاهرة ، ثم استبدلت هذه ثانية بسُرُج رومانية ، لكنها بقيت دون استعمال واستبدلت بسرج من الطراز البغدادي ، كما أجبر كل جندي معه حصان على أن يتزود بجمل لنقل أمتعته ولاحتمال أن يحتاجه للركوب في بعض الأحيان لأن الحصان المصري لا يتحمل المشقات ومشيته بطيئة لاتؤهله إلى أن يرغب به العرب ، وكان من الضروري أن تكون الجياد في أعلى درجة من النشاط في جميع مراحل المسير . وبما أن الحكومة لم تتحمل أيّ جزء من تلك النفقات فقد كثر لغط الجنود على الباشا الذي عرضهم إلى نفقات لم يسبق لها مثيل .

وبعد إشراف سعادته على ركوب المشاة ومسيرهم في طريق قصير نحو ينبع عاد إلى القاهرة ليرتب أموره مع والده نائب الملك تاركاً فرسانه بالقرب من القاهرة على أُهبة الاستعداد للانطلاق وقد قرر منذ البداية أن يتوجه مائتان فقط من السويس إلى ينبع عن طريق البر بينما سلك سعادته طريق قصير ، وكان يشرف على خدمته بعض المماليك فقط ، ولدى دخوله أرض (محمد)[1] المقدسة صمم سعادته على اعتزال اللهو والمسكرات فأهدر كل ما كان مختزناً عنده منها مما أتى به من القاهرة ، وكان ذلك قبل انطلاقه نحو المدينة .

أمر الباشا بأن يقام معسكره في ميلقا بالقرب من ينبع حيث بقي الجند بانتظاره هناك مدة أربعين يوماً يترقبون دعمهم بالجمال وغيرها من قبيلة جُهينة البدوية والتي تحتل الجبال الممتدة من المدينة إلى ينبع مع قبيلتي ميمون (من حرب) وعوف (من حرب) وحتى مكة من جهة الجنوب ، فاضطر أخيراً إلى إرسال قوة ضد أول قبيلة منها فوضعت يدها على ألف من جمالها وساقت ألفي رأس من أغنامها وقتلت مائة وخمسين من رجال القبيلة بينما جُرح اثنان فقط من مجموعة الباشا .

---

(١) ﷺ .

فمن هذه الواقعة وحدها يستطيع المرء أن يخرج بتقييم عن عدم التوازن بين الطرفين .

أمر الجيش المؤلف من مائتي فارس تركي ومائتي فارس بدوي مغربي وتسعمائة من المشاة بالإضافة إلى ثلاثة مدافع بالتحرك نحو الحناكية والتحقت به مجموعة أوزن علي المؤلفة من أربعمائة فارس ماهر كانوا حتى ذلك الوقت يشكلون قيادة منفصلة في ظل قائدهم الذي يعتبر ضابطاً بارزاً ، وقد سبق له أن تعهد حماية المدينة بمساعدة بعض الجنود الآخرين وذلك عندما غادرها طوسون باشا متوجهاً إلى مصر . فقدت قوات الباشا حوالي أربعمائة من رجالها خلال إقامتها في ميلقا بسبب رداءتها من الناحية الصحية . فهي تشبه ينبع في جوها . ثم أرسل الباشا بعد إقامته خمسة وعشرين يوماً في الحناكية قوة ضد قبيلة حرب فسلبت منها ألفاً وخمسمائة جملاً واستاق الجنود ستة آلاف شاة وكميات كبيرة من التمر .

رأى كثير من شيوخ البدو أن يندمجوا مع الباشا خوفاً من قسوة رجاله الساعين إلى النهب وعندما اتحد الباشا مع أولئك العرب أرسل كتيبة أخرى ضد قبيلة عتيبة التي تحتل مابين الدرعية ومكة من الصحراء ، وعندما وصلتهم أخبار عزمه على الإغارة عليهم لجأوا إلى الفرار واستاقوا معهم الأغنام والجمال ، لكن سبعين شخصاً منهم وقعوا في الأسر بين يدي الباشا المغضب الذي استهل ذبحاً بأولئك التعساء بسيفه الخاص الضالع ، فقد كان هذا الإخفاق حاسماً بالنسبة للأتراك الذين عانوا شقاءً كثيراً وهم في طريق عودتهم بسبب النقص في الماء والمؤن ، إذ كانوا يتوقعون أن يحصلوا على كميات كبيرة منها بنهبهم خيام البدو الذين سبقوهم إلى الآبار فسدّوها وأتلفوا كل شيء لا يطيقون حمله .

تلقى الباشا وهو في طريق عودته إلى الحناكية خبر تعيينه باشا بثلاث حواشي لأنه حاز لقب باشا جدة بعد وفاة أخيه طوسون ، فصار من الضروري أن يعود إلى المدينة ليستلم المعطف المزركش بالفراء ويعلن هذا القرار ، كما التقى

به وهو في طريق عودته إلى الحناكية شيوخ قبيلة عنيزة مع رجال كثيرين آخرين حيث تعاهدوا على ميثاق أمن متبادل ، لذلك شيّد سعادته مستودعاً للذخيرة في هذه المنطقة .

كانت المغامرة التالية موجهة إلى عرب جبل شمر حيث شكل من أجل هذا الغرض كتيبة مؤلفة من ستمائة فارس تركي عُينوا حراساً للمؤخرة ليدفعوا قوة قوامها ألف بدوي على الخيل وخمسة آلاف بدوي يمتطون الجمال نحو الأمام ، وهم مجموعون من تلك القبائل التي التحقت به . ونظراً لأن البدو كانوا يشكلون طليعة الجيش فقد قتل منهم مائتان وجرح ثلاثمائة وفقدوا عدداً كبيراً من خيولهم وجمالهم ، بينما لم يقتل من الأتراك سوى خمسة ولم يجرح سوى عشرة . لم يكتسب الأتراك سوى اليسير من الناحية المادية في هذه الحملة ، فإذا أُلحقتْ إلى اسم الباشا موجة رعب أخرى تيقن البدو بأنهم قد خدعوا بشكل فاضح .

وعندما احتج شيوخ العرب على هذا التصرف أمر الباشا أوزن علي مع جزء من قواته ومدفعين بالتقدم إلى ماوية لإرهاب جماعة الوهابيين الذين بدأوا بمهاجمة مخيمات أولئك البدو . أرسل شيخ قبيلة مطير ـ الدويش الواقعة إلى الشرق من عنيزة اقتراحاً إلى الباشا يعبر فيه عن رغبته بعقد اجتماع معه في ماوية فتوجه سعادته إلى هناك وبينما هو في الطريق وصله خبر عن حصول معركة قتالية بين قوات أوزون علي والوهابيين الذين هُزموا هزيمة منكرة في تلك البقعة ، سُجلت في اليوم الثاني من كانون الأول ، ووصل الباشا في الوقت المناسب فقط ليقضي على حياة السجناء الذين سقطوا في أيدي رجال المنتصر ، وبهذا زاد عدد الآذان التي رغب سعادته في إرسالها إلى القاهرة تقدمةً لمعاليه ، إذ جعلتهم صعوبة نقل الرؤوس يستبدلونها بأزواج من الآذان ، وقد ذكر أن عدد الوهابيين الذين ذبحوا تجاوز عدد جنود أوزون علي . وفي هذا اليوم تقرر مصير عبد الله لكنه هرب إلى الرس ومنها سلك طريق عنيزة ثم إلى الدرعية ، ولم يظهر ثانية على مسرح الأحداث .

جمع الباشا كل قواته في ماوية بعد أن تلقى بعض التعزيزات فوصلت إلى ألف وأربعمائة من المشاة وستمائة فارس وثماني قطع مدفعية عادية ومدفع قاذف ومدفع هاون ، بالإضافة إلى مائة رجل مختصين بسلاح المدفعية ، كما يمكن أن يصل عدد المشاة إلى أربعمائة أو خمسمائة وأرسل ضابطاً إلى الفرسان القادمين من القاهرة ليبلغهم أمرَ التحاقهم بالجيش .

أرسل شيخ (مطير) ابنه ليهنئ الباشا بالانتصار الجديد ، فرُتبت الأمور بينهما وأسفرت عن التحاق هذا الشيخ بالباشا حيث استقبل بكل علامات السمو والتشريف . كان الباعث الذي دفع الشيخ إلى الاندماج مع الباشا ضد عبد الله باعث حزازة أو كراهية ناتجة عن قتل عبد الله لإثنى عشر شيخاً أو مسناً من قبيلته وهم من أقارب الشيخ الحالي (١٤) . وعندما أصبحت الجمال والمساعدات بمختلف أنواعها غزيرة وفائضة عن الحاجة باشر الباشا بنقل المستودعات والمؤن إلى الأمام واستعد لمحاصرة رَسْ . وقد قام سعادته خلال فترة الراحة هذه بانتزاع مؤن إحدى القبائل الصغيرة التي تنضوي تحت الأسم العام لقبائل عنيزة ، وكان ذلك أن هذه القبيلة أُمرت بالتجمع والالتحاق بالباشا ، وقد أُعطوا مهلةً مقدارها ثمانية أيام ، لكن هذه الفترة كانت قصيرة جداً بالنسبة للمسافة التي شرعت في قطعها ، وقد قيل : إن هذا الكلام حق وعادل ولكنه لم يُقبل كحجةٍ مقنعة ، وقد التقى سعادته بالقبيلة وهي في طريقها للالتحاق به ، على الرغم من ذلك حرمهم من كل مالديهم من أغنام ووزعها على الجنود الذين وصلوا مؤخراً من القاهرة .

وغذ سعادته السير مع قواته حتى وصل تلك البلدة التي قال : إنه مصمم على أن يستولي عليها قبل أن يعطي إذنه بإقامة معسكره وقبل أن يترجل فرسانه عن خيولهم ، لذلك أمر (طوبشي باشي) بدفع سلاح المدفعية إلى الأمام حتى يصل إلى بُعد ثماني خطوات عن الأسوار وأن يباشر الرشق المدفعي باتجاه أقوى المعاقل .

ونظراً لكون جنوده مكشوفين ولتعرض رجال المدفعيـة إلى رشق كثيف من نيران الأسلحة الخفيفة فقد تجاوز القتل في الأتراك عشرة أضعاف ماقتل من المحـاصَرين الذين دافعوا عن المدينة بمعنويات عالية . مرت ثلاثة أيام وسعادتـه يرشق نيران مدفعيته على هذا المعقل وعلى السور المحاذي له والـذي ذُكر أخيراً أنـه خُرق ، أمر بالهجوم ، ولكي يتمكن المشـاة من عبور الخنـدق أمر بصنع حزم كبيرة من عيـدان طويلة لفروع أشجار النخيل وملء عدد من الأكياس بالقش . تم انتقاء ستمائة من المشـاة من أجـل الهجـوم ، فرمى هؤلاء الرجـال بـأنفسهم في الخنـدق ، لكنهم لم يستطيعوا أن يصعـدوا إذ تبين أن حـزم العيـدان والأكيـاس لم تكن كافيـة وفتـح العدو ناراً مـدمرة من فوق الأسوار على الجنود وعلى المواد السريعـة الاشتعـال التي تحيط بهم ، وصار الباشا بمعـاونـة مماليكـه يرمي بـالرصـاص كل جنـدي يحـاول الانسحاب . وكانت نتيجة ذلك أن عانى المشاة التعساء من خسائر فادحـة . وقـد أصدر أمره بحرمان أولئك الذين قتلوا من حقهم في الدفن بسبب تأجج غضبه من الهزيمة . وامتد حصار رَسْ ثلاثة أشهر ونصف ، وهي فترة أبدى فيها وهابيو رَسْ فناً وعلماً أكثر مما أبداه القائد التركي . كلفت بطاريات المدفعية التي شكلها الباشـا (اثنين وخمسين ألف كراون ألماني) ، واستهلكت أحمـال أربعمائـة جمل من ذخيرة البنادق لإطلاق النار إلى داخل البلدة ، ورمى رجال المدفعية ثلاثين ألف قذيفة بلا جدوى . شيدت منصات من أشجـار النخيل إلى ارتفـاع منـاسب يمكّن الجنـد من الرمي إلى داخل البلـد وقُرِّب المـدفع بحيث لامس حـافـة الخنـدق . ثم جربوا هجومين آخرين لكن عدوهم استطاع أن يصـدهم في المرتين ويُفقـدهم عـدداً كبيراً من الرجال . وعنـدمـا رأى البـاشا أنـه عـاجز عن إنجاز مهمتـه اضطر أخيراً إلى الـدخـول في مفـاوضـات وإلى رفـع الحصـار . لم يُسمح لأي جنـدي من جنوده بالتغلغل في المدينة ، وسمح لهم بشراء كل مايحتاجون إليه من السكان ، بينما تبقى الرس في حالة حياد إلى أن يتقرر مصير عنيزة . قتل في هذه المعركة تسعمائة تركي وجرح ألف وآلت بهم الأمور إلى محنة شنيعة . أما المحاصرون من سكان الرس فقد

فقدوا خمسين قتيلاً فقط وسبعين جريحاً . وحالف حظ طيب حاميتين كانتا تنقلان كميات كبيرة من المؤن بالوصول بسلام ، وهذا يدل بلا شك على قلة اليقظة والاحتراس من جانب الأتراك لأن المنطقة منبسطة ومكشوفة بكاملها ، وقد أكد سكان رَسْ أن التراب الأصفر الذي شيدت منه أسوارهم يتميز بالالتصاق والتماسك السريع إلى درجة أنّ قنابلهم لم تؤثر فيه . (١٥)

التفت سعادته بعد ذلك إلى (الخبرا) التي استسلمت بعد حصار يوم واحد وسار من هناك باتجاه عنيزة التي ترك فيها عبْد الله موقعاً عسكرياً ، ونظراً لأنه ولّى إلى درعية فإن مشايخ بلدة عنيزة دخلوا في مفاوضات ، لكن حصنهم كان قد نسف بالمدفعية فاندلعت النيران في مستودع للذخيرة كان مُصمّماً فوق أحد الأبراج مما فسح لهم الدخول بسهولة إذ استسلم الموقع العسكري وسُمح لمن فيه بالمغادرة مع السلاح والمتاع ، وقد استغرق هذا الأمر خمسة أيام .

ضَرب بعد ذلك حصاراً على بريدة فاستسلمت خلال ثلاثة أيام كان يدعى شيخ هذه المدينة (حجيلان) وهو في العام المائة والعشرين من عمره وذكر أنه كان لمشورته وزن عند الوهابيين لكن تقدمه في السن وضعف حاله حالا دون تمكنه من إقامة متراس في وجه الباشا ، وكان الوهابيون يزدادون تشاؤماً يوماً بعد يوم وزاد من فزعهم انسحاب عبد الله إلى الدرعية حيث بقي فيها مغلقاً بابه دونه وخامداً لا يقوم بأي نشاط ، ثم استسلمت جميع القرى التي في هذه المقاطعة .

بقي الباشا شهرين في هذه المنطقة ينتظر التعزيزات ليتمكن من التقدم نحو شقرا ، وعندما اقترب من هذه البلدة باشر من اليوم الثاني بقطع مزروعات النخيل ، الأمر الذي دفع السكان إلى إبعاد خيراتهم عن موقعهم العسكري الذي أُجبر على الاستسلام تاركين أسلحتهم وأمتعتهم في الحصن ، وقد سمح لهم بالرحيل . ومكث الباشا في هذا المكان في حالة ركود مدة ثلاثة أشهر ينتظر التعزيزات والمؤن .

تحرك بعد ذلك إلى ضرما التي كانت في درجة عالية من الازدهار وهاجمها في اليوم الرابع ، وقد صُد في بداية الأمر لكنه احتل المدينة . التجأ ثلاثمائة من الموقع في بيت ثم استسلموا وسمح لهم بالرحيل بلا أسلحة تحت إمرة زعيمهم المسمى سعود وهو خال عبد الله . وهنا عاد مزاج الباشا إلى ما كان عليه من ميل مألوف إلى الغضب ، فقد استخدم الجنود سبعة أيام كاملة في تذبيح سكان هذا البلد ، وقدمت لهم المكافأة المعتادة ومقدارها أربعة كراونات ألمانية لكل زوج من الآذان يقدم في هذه المناسبة ، وقد سنحت الفرصة لكثير من الجنود أن يملؤوا جزادينهم دون أن تمتحن شجاعتهم ، حتى أن الباشا نفسه كان يُظهر مهارته في إطلاق نار مسدسه كما كان يفعل أبخس جندي .

أختتمت هذه الأفاعيل في بداية شباط (فبراير) عام ١٨١٨ حيث كان الطقس بارداً والأمطار تهطل بغزارة .

استعد سعادته للهجوم على الدرعية وأرسل أوامره إلى التعزيزات التي كانت على الطريق للالتحاق به ، وكانت تتألف قواته من مدفعَيْ هاون ومِدفع سويدي قصير ومدفع قاذف ، وأربع قطع مدفعية خفيفة زنة إحداها خمسة كيلو غرامات وخمس بنادق تركية وواحد وخمسين رامي بندقية ومائتي مهندس وواحد وعشرين فنياً وأحد عشر زَرّاعاً للألغام ، ووصل العدد الإجمالي للمشاة إلى أربعة آلاف وثلاثمائة بينهم ألف وسبعمائة وخمسة وعشرون من الأرناؤوط والباقي أتراك ، ووصل عدد المغاربة أو الأجانب إلى ألف وثلاثمائة رجلاً ، كما وصل فيلق أوزون علي إلى أربعمائة وفيلق رشوان آغا إلى ثلاثمائة ، يضاف إلى هذا كله الخيول الأجنبية التي تصل إلى أربعمائة ، وكان مجمل تعداد الخيل ألف وتسعمائة وخمسون .

الفرسان، الأتراك والأرناؤوط التابعون للباشا	٨٥٠
الفرسان، التابعون لأوزون علي	٤٠٠
الفرسان، التابعون لرشوان آغا	٣٠٠
	١٥٥٠
الفرسان، الأجانب	٤٠٠
	١٩٥٠
المشاة، أرناؤوط	١٧٢٥
المشاة، أتراك	٢٥٧٥
	٤٣٠٠
المشاة، أجانب	١٣٠٠
العدد الإجمالي	٥٦٠٠

استهل الهجوم على الدرعية من جهة الشمال أو بالأحرى من قرية تسمى فيزل التي تتكون من حدائق متناثرة مع البيوت ومحمية بسور وأبراج . وقد تم احتلال هذه القرية بعد سبعة أيام حيث أُجبرت قوات عبد الله على الالتجاء إلى السور الذي فصل قرية (فيزل) أو (جنين الفيزل) عن أوسع تقسيمين من تقسيمات درعية . ارتاح الباشا عدة أيام في هذا المكان مما فسح للأعداء فرصة تقوية أنفسهم في هذا الموقع الجديد ، الأمر الذي كلف الباشا جهود سبعة أشهر . وقد حصل حادث خطير في جانب الباشا ، فقد نُسف مستودع أسلحته وبقي جنود المدفعية بلا ذخيرة مدة تقارب الشهرين . أما القرى المجاورة لدرعية فقد تهيأت للتخلص

من هذا الرباط عندما رأت أنه قد طال فأمرت جنودها بالانتشار ليبقوا خاضعين للمراقبة لكنهم مع ذلك تراجعوا عن جزء كبير جداً إلى درجة أنه لم يعد بإمكان من تبقى منهم تغطية هذه المسافة الواسعة وتطويقها فوجد الباشا نفسه مرغماً على بدء الهجوم فأمر جنوده بالهجوم على أحد جوانب (طريف) ومن حسن حظه أن العدو توقع الهجوم من الجانب المقابل ، ويسمى سَيْل حيث استعد للمقاومة هناك ، فتقدمت جنود الباشا وربحت طريف دون إطلاق رصاصة واحدة . وقد كان هذا الظرف مواتياً للغاية . ذلك لأن القسم الأعظم من فرسانه مرَّ عبر الوادي الضيق الشديد الانحدار الذي يعتبر فخاً لكل عدو . كانت المقاومة من جانب سَيل أكثر عناداً ، فقد صمدت هذه البلدة ثلاثة أيام لكن المهاجمين نجحوا أخيراً لأنهم أكثر عدداً . وعندما كسب الأتراك مدينة فيزل هاجر عدد كبير من عرب درعية ولم يعودوا إليها ثانية . وأصبحت قوات عبد الله ضعيفة من ذلك التاريخ إذ بقي معه خلال هذا الهجوم الأخير ألفان من الآلاف الأربعة الذين بدأوا مقاومة هجوم الأتراك فاضطر عبد الله للتراجع إلى المكان الوحيد الذي بقي أمامه وهو حصن أسرته الواقع على أحد أطراف (طريف) حيث اعتصم هناك مع مائتين من رجاله ، وهم فلول قواته ، وفي هذا المكان تحملوا قذف قنابل الباشا ثلاثة أيام ثم طلبوا المفاوضات .

وعندما قام عبد الله بزيارة الباشا وضع عدة شروط للتفاهم ، فطلب العفو عن الجنود الذين بقوا مخلصين معه بالإضافة إلى إخوته وأسرته على اتساعها ، والحفاظ على المدينة وسلامة شخصه بالذات . تكشف سلوك الباشا طيلة فترة هذه المقابلة عن قمة في الغطرسة على الرغم من أنه لم يَهزِم بشكل كامل بعد . أما الأمور التي وضعها الباشا فكانت : العفو عن الجنود وعن إخوته وأسرهم ، أما المدينة فلا يعطي أي تعهد تجاهها ، وأما بالنسبة لسلامة شخص عبد الله فإنه يتعهد سلامته حتى تاريخ وصوله إلى القاهرة . (١٦)

عاد عبد الله إلى حصنه ليفكر ملياً بهذه النذارات[1] التي كتبت عليه في مستقبل أيامه . وفي الرابع من أيلول ١٨١٨ سلم نفسه ليدي الباشا .

تجهز عبد الله وأسرته من أجل الرحيل إلى مصر وتمّت ترتيبات إرسالهم إلى هناك . وقد تلقينا تقارير عن مصير عبد الله ونحن في الهند . لكن أحد أبنائه فكر في الأمر وهو في الطريق وتيقن أن الشقاء يتربص به وبالمجموعة كلها فعزم على أن يخلص نفسه واستطاع تدبير أمر هروبه خلال المسير ، ولم يُكشف غيابه عن الركب حتى اختفى كل أثر للطريق الذي سلكه ، فقال بعضهم إنه اتجه شمالاً وقال آخرون إنه فرَّ إلى الجنوب والتحق بالبدو الموجودين عند حدود اليمن ، وهم مجموعات لاتزال تحافظ على أواصر صداقة مع الوهابيين . وقد حققتُ في أمر هذا الرجل مراراً لكني لم أستطع الوصول إلى أية معلومات ، وأكد البدو جهلهم التام لموضوع هروبه خيفة أن يَطْلبوا منهم تعريفهم بالمكان الذي لاذ إليه ، ولم يكن الأتراك يتطرقون إلى هذا الموضوع مطلقاً في أحاديثهم بل طُمس بشكل كامل ولم يرسل أي تقرير عنه لمحمد علي باشا . وقد أنكره إبراهيم لأنه لم يكن يرغب في أن يُحتجز في هذه المنطقة للقيام بمهمة مطاردته ، وحيثما طرح هذا الموضوع في جلسات السمر الخاصة وصف هذا الرجل بأنه أحمق ومعتوه بهدف تخفيف عواقب انتقاد هذا الحدث الذي بدا لي في غاية الأهمية[2] .

لو أن عبد الله فرَّ من درعية وتباعد أفراد عائلته لتوجب على الأتراك أن يبقوا في الجزيرة العربية وينتشروا على شكل مجموعات صغيرة لاقتفاء آثارهم ولكان نجا بعضهم بعد أن يكون الأتراك قد استُنزِفوا . كان جميع أفراد هذه

---

(١) النذارة : عكس البشارة ، جمعها نذارات . (المترجم)

(٢) الذي فر هو مشاري بن مسعود شقيق عبد الله وليس ولده وقد هرب من العسكر عند الجديدة بين المدينة المنورة وينبع وعاد إلى الدرعية ودعا لنفسه ، لكن غدر به محمد بن معمر الملقب بالأعرج وسلمه للعسكر ومات في سجن عنيزة وقيل في العراق .

العائلة مدركين تمام الإدراك أن مصيرهم سيتقرر في اللحظة التي يسقطون فيها بين يدي الباشا . وإنه ليبدو أن هذا الذي يطلق عليه اسم الأحمق هو الرجل العاقل الوحيد بين أفراد أسرته .

ظهر اعتراض على هذا الرأي الأخير بحجة أنه لم يكن أفراد هذه الأسرة يتوقعون أن يحميهم بدو الجزيرة العربية من اللحظة التي قضي فيها على نفوذهم لأن البدو كانوا مكرهين على اتباع تلك العقيدة ، أو أنهم على الأغلب موالون إليها طالما أن الطائفة التي تعتنقها لاتزال قوية ، أو تبعوها من خلال تشوُّفهم إلى غنيمة ، فبسبب هذه الصفات الخاصة التي تميزوا بها استطاع سعيد أن يصل إلى الحصول على منفعة مستمرة منهم فصار نادراً ما يسمح لهم بالبقاء خاملين لأن إهمالهم يعود بالضرر على قضية عبد الله الذي حصر نفسه بشكل خاص ضمن الحصون والمدن عوضاً عن أن يطبق على مؤخرة القوات التركية ويمنع عنهم المؤن لكن أفدح خطأ ارتكبه بدا في تقديمه لهم تلك الضحايا في معركة ماوية .

عندما أزيحت دعائم العقيدة الوهابية من الجزيرة العربية صرح بدو نجد وكل أولئك الذين اجتمعتُ بهم من البدو دون استثناء أنهم على مذهب أهل السنة ، وهم حريصون جداً على عباداتهم ولا يهملون أياً من الصلوات المفروضة مهما كان المسير طويلاً في أسفارهم وتحت أشق أنواع الحرمان والعِوز . ويظهر تناقض غريب عند مقارنة هؤلاء البدو مع الأتراك الذين يتسمون بثقافة روحية أكثر لكنهم لا يسمحون للدّينِ أو للصلوات أن تتعارض مع راحتهم واطمئنانهم أبداً .

ألحتّ آنفاً أني التقيت مع بعض الأشخاص الذين لا يزالون يجاهرون بأنهم على تلك العقيدة في منفوحة والرياض ، وهم بقايا سكان درعية السابقين ، لا العرب البداوة ، وكان عددهم ضئيلاً . وقد عرفت منذ ذلك الوقت أن (القشيف) قد فكر ملياً بالدمار الذي لحق بتلك المدن خلال فترة تأخرنا

الاضطراري في ذلك المكان . وقد منعه المصير المشكوك فيه لمدينة سلمية من أن يضع أهدافه موضع التنفيذ ، وعندما التحقت تلك المجموعة تحرك بأقصى ما لديه من سرعة ليلحق بالباشا يدفعه خوف مستمر من أن يُترك لقدره فيحاصَر ويُعزل . أما الباشا فقد قام بخلاف ما وعدَنا به عندما انفصل عنا وانطلق نحو (الرس) ، ومن هناك إلى المدينة المنورة .

وعندما تمكن إبراهيم من وضع يده على الدرعية دخل القلعة ودخل بيت عبد الله مع بعض خدمه الموثوقين ولم يسمح لأي فرد من عائلته أن يحمل شيئاً يمكن نقله إذ كان يتوقع بلا شك أن يجد بعض النفائس ، الأمر الذي اعتقد أنه خاب أمله به . ويُعتقد أن مجموعة هائلة من الكتب قد كُدست وأرسلت إلى المدينة المنورة ابتهاجاً بالنصر ، ليفحصها المختصون في العلوم الدينية قبل السماح بقراءتها .

سُمح للجند بدخول مدينة الدرعية وانتقاء أحياءٍ ينهبونها لأنفسهم ويسيؤون للسكان القلائل الذين بقوا فيها حرصاً على بيوتهم وحدائقهم . وقد قبض الباشا على الأشخاص الذين شك في أنهم أخفوا أموالهم وثرواتهم واستطاع بلجوئه إلى أنواع مختلفة من التعذيب والبراعة في الخِداع أن يحصل على مبالغ كبيرة .

وإن إحدى الوسائل التي اتبعوها لاكتشاف الرجال الأثرياء لجديرة بالملاحظة[1] رد الباشا الأراضي التي كانت في يوم من الأيام تابعة للمساجد

---

(١) يتوقع أن إمام مسقط قد ألمح إلى هذه الأحداث خلال نقاشه في مايو (أيار) ١٨١٩ على الرغم من أنه لم يكن بعد مطلعاً على دقائق الأمور . وعندما وصلت إلى بوشير روى لي الفرس رواية تختلف كثيراً عما سمعت في مسقط من قبل . فكان في الرواية الأولى حرص على إظهار شخصية الباشا بأقبح صورة ممكنة بينما مُجدتِ الثانية بنزاهته في إعادة توطين قبيلة بني خالد وتسويدهم في الأحساء طامسة الظروف التي دفعت الباشا إلى القيام بهذا العمل . كان الفرس يُسَرّون في الخداع ، حتى في خداع آرائهم الخاصة في سبيل اختلاق حجة مناسبة على أمل أن تتهيأ لهم بسببها حرية الوصول إلى مكة والمدينة فيما إذا عرفت عنهم . سادلير .

والمؤسسات الدينية على أشخاص[1] من مذهب أهل السنة ممن كانوا يبشرون بذلك المذهب ، كما اقترح إعادة الحدائق ومزروعات النخيل والأراضي الأخرى إلى أصحابها الأصليين دون أن يمسهم أذى بشرط أن يفتدوها بمال . وافق هذا البعض على الاقتراح فقبض عليهم الباشا وأجبرهم على دفع المبلغ مدعياً أنه متأكد من أنهم يملكونه وهو في حوزتهم وإلا فلن يوافق لهم على المنحة ، كان مدركاً تمام الإدراك أن أوامر الباب العالي اقتضت تدمير الدرعية تدميراً كاملاً وأن ما يمكنه أن يفعله إنما هو تأجيل التنفيذ إلى أن يُنشر الأمر بشكل علني فقط . وفي هذا الظرف رأى السكان التعساء أن يوفروا ثرواتهم ووسائل تأمين حياتهم للمرة الثانية فاستغل الباشا هذه الفرصة ليبتز منهم كثيراً من الأموال ثم دمر الدرعية تدميراً كاملاً فقطع كل شجرة نخيل في جوارها وأحرق كل جذع وكل عصا خشبية في بيوت السكان .

أما عمليات التقدم الأخرى التي قام بها سعادته حتى تاريخ مغادرته جدة فهي مذكورة بالتفصيل في اليوميات .

زار خليل باشا جدة خلال فترة إقامتي الاضطرارية هناك عندما كنت أترقب فرصة عودتي إلى الهند . وهو باشا ذو حاشيتين وتابع لأوامر محمد علي ، وكان قد أُرسل جيشٌ تعداده (خمسمائة وألفان) من الأتراك والأرناؤوط تعزيزاً لإبراهيم الذي سبق أن طلب مزيداً من المساعدات في الوقت الذي امتد فيه حصار الدرعية ، ولم يصل هذا الباشا إلا بعد سقوطها حيث لم تكن هناك حاجة إلى خدماته ، ونظراً لأن الجنود قد أرسلوا عن طريق البحر الأحمر بتكاليف باهظة فإن محمد علي قد صمم على أن يستخدمهم ضد عرب أبو عريش الذين أفسدوا ولاء حكومة تهامة وجزء من اليمن . وقد سقطت في أيدي الأتراك بلدة

---

(١) الوهابيون من أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ولا صحة لمزاعم الأتراك الباطلة . المحقق .

قنفذة ولحية وأماكن كثيرة أخرى على الساحل ، كما تمكنوا من امتلاك أماكن كثيرة في الداخل .

وقد سُجن آخر زعيم يمني وهابي خلال إقامة هذا الباشا في جدة ، وهذا الزعيم هو محمود بن محمد . أُتي به مكبلاً بالأغلال إلى جدة ، ومن هناك أرسل بسفينة متوجهة إلى مصر ليمثُل بين يدي محمد علي .

وعندما تقلص الوجود الوهابي في اليمن وتهامة دخل محمد علي في محادثات مع إمام صنعاء الذي يعود الفضل إلى والده في تخليص هذه المناطق من الموالين للوهابيين . وقد كان من دواعي سرور الإمام الحالي أن يوافق على اقتراح ربما يفيده في استرداد الإقليم الذي لم يتمكن هو نفسه من تخليصه ، فقد بقي في حالة عصيان مسلح سنين طويلة . وكانت البنود الأخيرة تقتضي إعادة جميع المناطق الداخلية التي كانت تابعة بحق للإمام السابق ، فكان على الأتراك أن يُخْلوا كومفيدة ولحية والموانئ التي كانوا يحاصرونها وأن يكفوا عن جميع الأعمال العدائية الأخرى .

وافق إمام صنعاء على دفع لَكٍّ واحد من الدولارات ضريبة سنوية . وقد طلب الباشا هذا الأمر انطلاقاً من خلفيتين اثنتين ، أولاهما كونه ادعى أن الأئمة السابقين كانوا يدفعون الضريبة للسيد الكبير إما مالاً وإما على شكل قهوة عن طريق سلاطنة مصر ، ثانيهما أنه دفع تكاليف حربية باهظة لاسترداد ما يقرب من مقاطعة كاملة لم يسبق لها أن دَفعت أي ريْع منذ سنين طويلة لإمام صنعاء ، فوافق الإمام على الاقتراح الثاني لأنه رفع عن كاهله مخاوفه من أفكار الأتراك الذين يعتبر وصولهم تهديداً لاستقلاله ، والذين كان يذمهم ويكرههم مثلما كان يَذمُّ الوهابيين . سحب خليل باشا ماتبقى من جنده وهم في حالة كبيرة من البؤس والمرض إلى مكة ، حيث أُمر بالتمركز هناك ، وكان يزور جدة بين الفينة والفينة .

جدة ـ غمرني السرور بعد ظهر اليوم الثالث والعشرين من كانون الثاني عندما رأيت مركباً إنكليزياً يقترب من جدة ، حيث تبين أنه الطراد الذي عبر قُصير وهو الآن في طريق عودته إلى مخا . وكان قد حالفه سوء الحظ مما عاناه في طريقه ، لأنه لولا ذلك لاستطاع حمل مسؤولية اتصالي بالسيد صولط الذي لم أتلق منه جواباً على الرغم من أن الأشخاص الذين وجهت معهم رسائلي أخبروني أنها أرسلت إليه مع أن رسائل كثيرة كتبت من قبل إبراهيم باشا بعد وصوله إلى القاهرة قد وصلت إلى جدة .

وكان من دواعي سروري العظيم أن أسمع رأي معالي محمد علي باشا بالنسبة لأحداث جدة ، وما هو الضوء الذي يرى من خلاله سلوك ابنه ، لكني لم أستطع أن أتأكد فيما إذا كان بإمكاني أن أصل إلى مُخا بواسطة نقلٍ أخرى وقبل إبحار (أميرويلز) . صممت ألاّ أفوت هذه الفرصة المواتية التي تهيء لي عودة إلى بومباي لأقدم تقريراً عن نتيجة مهمتي ، وأنا مدرك تماماً أنه لا يمكن أن يتعهد ترتيب النقاط التي سيتم نقاشها شخص أفضل مركزاً من القنصل العام من أجل تكييفها .

وصل المركب أميرويلز إلى مخا في الحادي عشر من شباط بعد عبور عانى فيه من عواصف شديدة ، وقد اضطررنا إلى التأخر لأننا كنا ننتظر جواب الرسالة[1] التي أرسلت إلى صنعاء حتى الثامن والعشرين من آذار حين نشرنا شراع المركب متجهين إلى الهند ، وقد وصلنا بومباي في الثامن من أيار (مايو) .

علمت لدى وصولي أن آخر رسالة تلقوها مني كانت تلك التي وجهتها من

---

(١) أرسلت هذه الرسالة إلى مخا في الخامس والعشرين من كانون الأول (سبتمبر) وينبغي لهذه الرحلة أن تنجز خلال ثلاثة عشر يوماً بشرط عدم حصول أية عوائق ، لكن عوائق كثيرة برزت لتؤدي إلى التأخير ، وقد سُلّمت مذكرة دبلوماسية إلى الحكومة مرفقة بنسخة . (سادلير) .

الأحساء أما بالنسبة للحجاج الذين حاولوا عبور الصحراء في طريق عودتهم إلى الخليج فإن كثيراً منهم أهلكه الجهد .،وأما القلة الذين وصلوا فقد جُردوا من كل ما يملكون ، حتى من قمصانهم ، وعاملهم البدو بأسوأ أسلوب همجي . وكان خادمي من بين القلائل الذين وصلوا ، وقد جُرد من كل ما في حوزته : الرسائل ، الأوراق ، وكل ماسوى ذلك . أما البدو الذين أرسلْتهم من رس فلم يرسلوا رسائلهم نظراً لأنه لم يدفع لهم سوى جزء من أجور النقل لأن المبلغ المتبقي وهو الجزء الأهم يصبح مستحقاً للدفع في القطيف عندما ترسل الرسائل ، لكنهم كانوا واثقين من أن بقية الأجور ستدفع ، لذلك أميل إلى الظن بأنهم نُهبوا من قِبل بدو القبائل الأخرى الذين سيضطرون إلى المرور من مخيماتها .

وإني لأعتبر أن الأوراق التي سرقت من خادمي هامة جداً ، فهي تحوي أسماء جميع الأماكن التي مررنا بها ، مكتوبة بشكل صحيح وباللفظ العربي ، بالإضافة إلى أسماء القبائل وفروعها وبشكل أوضح هو عبارة عن بيان للقبائل الأصغر التي تشكل أَسَرُها القبائل الرئيسية الكبرى بالإضافة إلى بعض الملاحظات المتعلقة بها .

كان هذا الرجل ينتمي إلى بوشير وهو من الشيعة . فبعد أدائه للزيارة في المدينة توجه إلى مكة على وعد بأن يلتحق بي في ينبع حيث يكون قد اعتبر حاجاً لإنهائه جميع شعائر الحج وهم مسؤولون شرعاً عن القيام بذلك . ويضمر الأتراك من الكراهية تجاههم مثلما يضمرون للمسيحيين ويعتبرونهم أرفاضاً . ومن سوء حظ خادمي أن سمع كلام (خانِ فارسي)[1] سبق له أن قام بسياحة في مصر يحمل رسائل وهدايا لمحمد علي باشا من ملك الفرس ليطلب من محمد علي حماية الحجاج الشيعة الفارسيين . فرافقه خادمي إلى المدينة حيث فارق ذلك الرجل العظيم الحياة . ومن هنا تابع طريقه ليشق الصحراء ثانية إلى الخليج الفارسي

(١) لقب خلفاء جنكيز خان ، يلقب به الزعماء المحليون في بلدان آسيا الوسطى (المترجم) .

برفقة قافلة حجاج دفعت لإبراهيم باشا مبلغاً كبيراً ليؤمن لهم الحماية حتى يصلوا إلى حناكية ، وهو الموقع العسكري الأمامي للأتراك ، الذين لا يجازفون بتخطي هذا الحد مقابل أية مكافأة يمكن أن تُعرض عليهم . فعاد الأتراك إلى المدينة فوراً تاركين حجاج بصرة والحجاج الفرس لرحمة البدو الذين باشروا بنهب أموالهم وتجريدهم من كل مامعهم . ولعدم تمكنهم من الاهتداء إلى طريق المدينة لم يعد لديهم خيار سوى الخضوع والاستسلام . استطاع محمد علي باشا أن يلجأ إلى الخداع ليجعل من نفسه شخصاً محترماً وذا شأن عظيم في العالم الإسلامي من بداية الفترة التي أصبح فيها حامياً لأرض محمد[1] المقدسة . وهو يتلقى أبلغ رسائل التملق كل عام ترافقها أنفس الهدايا من مختلف أمراء المسلمين ، حتى من الهند ، ومن أبعد الأصقاع الإسلامية . وقد أرسل جلالة ملك بلاد فارس عدة رسائل قبل تلك التي أرسلت هذا العام أملاً في اكتساب امتيازات جيدة عند الباشا وليحصل من خلال نفوذه على موافقةٍ لبعض الأشخاص بزيارة المدينة باسمه ، وليؤدوا نسكهم هناك ويقدموا العطايا والهبات عند ضريح الرسول[1] لكني أستطيع أن أؤكد أن جلالته لن ينجح في الحصول على ضمان لهذا الغرض . وبما أني أضمر لملك الملوك أسمى درجات الاحترام فإني أنصحه بأن يطلب الخلاص عن طريق (عليّ)[2] حيث ستقبل منه ماسة وزمردة وياقوتة وفيروزة عند ضريحه بكل رضى ومن خلال شفاعته تفسح أمامه فرصة طيبة لجعل المددِ الإلهي يؤجل له زيارة عزرائيل ، حيث يعتبر عطاء أي مقدار من المال مهما كان ضئيلاً عند ضريحه لدى اقتراب ملك الموت خيانة عظمى وإني لأخشى فيما إذا دار الزمان ووقع هذا الملك المقدس في يدي محمد علي أن يكتشف في ذلك الوقت المتأخر أن الباشا كان واحداً ممن هم أنشط وكلاء ذلك الملاك : عزرائيل ، وأمهرهم .

---

(١) ﷺ .

(٢) رضي الله عنه .

ملحقات

تعليمات

القسم السري

إلى الكابتن سادلير ،

سيـدي ١ ـ نظراً لأن الشريف حـاكم المجلس رأى أنـه من الضروري تكليف ضابط ، بمهمة إيصال رسالة سرية من سعادة النبيل الأعظم الحاكم العام إلى سعادة إبراهيم باشا (ابن باشا مصر) الذي يقود في هذه الآونة الجيش التركي المستخدم في الجزيرة العربية ضد نفوذ الوهـابيين المقيمين في السـاحل الغربي للخليج وللاتفـاق على الترتيبات الضرورية مع سعادته بهدف سحق ذلك النفوذ بشكل كامل فإن لي الشرف أن أعلمكم بما يلي :

نظراً للثقة العظيمة التي يضعهـا الشريف في حصـافتكم وتعقلكم فـإنـه قـد سُرَّ بأن يعهد إليكم بهذه المهمة .

٢ ـ سبق لعلمكم أن سعادة إبرادهيم باشا قد حالفـه الحـظ قبل أشهر معـدودة مضت في السيطرة على درعيـة والقبض على سلطـان بن سعـود[1] زعيم الـوهـابيين الأول ، وأن سعادته تابع انتصاراته حتى شواطئ الخليج عـازمـاً ، كما هو معتقـد ، على إبادة قبائل القرصنة نتيجة للأعمال الوحشية التي ارتكبوها بحق رعايا البـاب العالي للدولة العثمانية ، ولسوء الحـظ أن هـذه الوحشيـات لم تقتصر على هؤلاء بل

---

(١) عبد الله بن سعود .

امتدت إلى دول أخرى على هذا الجانب من الهند . يرغب الحاكم العام من وراء إنجاز هذا الهدف أن يُعلِم سعادته بتأييد الحكومة البريطانية له ومساعدتها إياه ، لذلك هي تواقة إلى إجراء اتصالات مع إبراهيم باشا بغرض أخذ العلم من سعادته عن الطريقة المثلى التي يمكن أن تطبقها قواتنا العسكرية البرية والبحرية للانضمام إلى الجيش التركي بقصد تسهيل عمليات سعادته لمحو الجواسيين ولكي تُوجه إليهم العقوبة التي تستحقها تلك الوحشيات ، كما تستحق زيارة قواتنا طالما ترتكب مثل تلك الجرائم الفريدة من نوعها .

٣ ـ لاشك أنك ستكون سعيداً في إبحارك على متن طراد الشركة الموقرة المسمى (ثيتيس) حيث وجهت التعليمات إلى قائده باستقبالك ونقلك إلى أحد الموانئ الواقعة على الخليج والخاضعة للقوات التركية وربما يكون هذا الأمر ملائماً لك ومنسجماً مع المعلومات التي قد تتمكن من الحصول عليها في مسقط لتساعدك على القيام باتصال سريع مع إبراهيم باشا وأنه لدى مقابلتك لسعادته عليك أن تقدم له الرسالة المذكورة آنفاً مع السيف المعد لسعادته ، بالإضافة إلى رسالة من الشريف بحق صاحب الرئاسة تحمل عنوان سعادته ، والتي توجد نسخ عنها باللغة الإنكليزية واللهجات المحلية ، وقد وجَّهت إليك هذه الرسالة لأحيطك علماً بذلك .

٤ ـ إذا كان سعادة إبراهيم باشا راغباً في الاستفادة من المساعدة البريطانية ، وهذا أمر قد يكون شبه مؤكد ، فإنه سيُجري مباحثات معك بكل رحابة صدر لبحث الخطط التي ربما يكون قد هيأها ، وأنت مفوض في أن تؤكد لسعادته أن الوقت قد يكون مواتياً للتعهد بإجراء عمليات من هناك بعد انتهاء الرياح الموسمية مباشرة ، وسنكون على استعداد لإرسال سفن حربية وقوات عسكرية كافية إلى الخليج للتعاون مع سعادته في إخضاع رأس الخيمة بحيث تعود بعد أداء مهمتها وتبقى المنطقة محتلة من قبل قوات الجيش التركي ، بالإضافة إلى أنه

ينبغي على سعادته أن يوزع قوات ذات كفاءة عالية لتخدم في تغطية الحصار .

٥ ـ إذا كان سعادته مخططاً للقيام بفتوح أخرى فإنه لن يكون من الضروري بالنسبة لك أن تعطي أي عهد عن الحكومة البريطانية لتأمين أية ضمانات لفتوح من هذا القبيل دون تلقي تعليمات أخرى من الحكومة .

٦ ـ ستسعى خلال إقامتك مع سعادته إلى التحقق من امتداد ومواصفات القوات التابعة لسعادته ومن مدى وطبيعة المساعدة التي يفكر في الحصول عليها من الحكومة البريطانية .

٧ ـ نظراً لضرورة زيارتك مسقط وأنت في طريقك إلى الخليج ، فإنك ستقوم عند نزولك في ذلك المكان بالتماس مقابلة مع الإمام تطلعه بها على طبيعة الاتصالات التي فوضناك بفتحها مع إبراهيم باشا ، وبنفس الأسلوب ستتحقق من معاليه عن طبيعة ومدى المساعدة التي يتمكن من تقديمها لتطهير موانئ القرصنة .

٨ ـ يتطلب مني رئيس المجلس أن أبلّغك معلومات عن نسخة من رسالة كتبها لمعالي الإمام وسترسل إليك النسخة الأصلية عنها قبل انطلاقك لإعلامه عن المهمة التي عهد بها إليك ، بالإضافة إلى نسخة عن رسالته الخاصة لمعاليه التي أرسلها في الخامس عشر من كانون الثاني مع خلاصة رسالة من الكابتن تايلور في مسقط مؤرخة في التاسع والعشرين من نفس الشهر .

٩ ـ ستسعى خلال سكناك في المخيم التركي بأقصى ما يمكنك من مراعاة لذوق الباشا ومشاعره إلى التحقق من أفكاره بالنسبة لمواصلة فتوحه على الشواطئ العربية من الخليج دون إظهار أي اهتمام محسوس بالموضوع .

١٠ ـ ستجمع أيضاً كل ما يمكن من معلومات فيا يتعلق بطبيعة ومصادر المنطقة ، وأعداد وامتداد البلدان التي في الداخل ، وكذلك بالنسبة لأية نقاط ترى أنها ذات أهمية من ناحية كونها مرتبطة ببلد معروف على نطاق ضيق جداً كهذا .

١١ ـ بعد إنهائك لجميع خططـك وحصولـك على هـذه المعلومـات من سعـادتـه ـ وهي المعلـومـات التي ربمـا يرى أن من مصلحتـه نقلهـا إلى سعـادة الحـاكم العـام أو لرئيس المجلس ـ ستعود إلى هـذا المكان وأول عمل تقوم بـه هـو إيضـاحـك للضـابـط المسؤول عن سفن جلالته وسفن الشركة الموقرة المستعملة في الخليج وعن الخطط التي يحتمل أن تكونوا قد اتفقتم عليها ، فلعله يتمكن من تنظيم مخططه لتعزيز الإجراءات التي ربما سبق تقريرها من أجل بلوغ الأهداف التي تبادلنا الرأي من أجلها .

١٢ ـ يَسُر الحاكم أن يسمح لـك بسحب مبلغ ثمـانمـائـة روبيـة كـدخل شهري خاص بك خلال إقامتك بهذه المهمة اعتباراً من أول الشهر الجاري ، كما عليـك أن تسجل نفقاتك بكل دقة إذ يتوجب عليك أن تكون حريصاً على تحـديـدهـا ضمن أضيق ما يمكن من حدود .

١٣ ـ أُطْلِعَ المندوب السامي في بوشير والمندوب السامي في بصرة على مهمتك الموجهة إلى المعسكر التركي وأمرا بأن يقدما لك أية مساعدة ربما تحتاجهـا ، فـادن من ذينك الضابطين بطريقة مناسبة ، إذ ربما تجد ذلك الأمر عمليـاً جـداً وملائمـاً من أجل اعتماداتك المالية الأساسية لمواجهة نفقاتك .

١٤ ـ هُيئت مجموعـة من الهـدايـا من أجل الضبـاط الأتراك الـذين يُتوقع أن تلتقي بهم في طريقك والذين يمكن أن يساعدوك خلال تقدمك لـدخول المعسكر التركي والخروج منـه . كما ينبغي عليـك أن تحتفـظ بخـط الرجعـة فتـدون أسماء الأشخاص الذين قدمت لهم الهدايا ، فإذا لم تجد منـاسبـة للتوزيع أرسل مـاتبقى منها إلى المستودع لدى عودتك إلى بومباي .

توقيع : نيونهام

وظيفته : السكرتير الأول

قلعة بومباي ، ١٣ نيسان (أبريل) ١٨١٩

نسخة

إلى إبراهيم باشا ،

كتبت في ٢ كانون الثاني (ديسمبر) ١٨١٩

سررت لدى اطلاعي على المعلومات التي وصلتني موخراً عن النجاح الرائع للقوات المسلحة التابعة للإمبراطورية العثمانية حسب التوجيه الخاص لسعادتكم . وبما أني علمت تفاصيل استيلائكم على درعية فإني أغتنم الفرصة وكلي شوق إلى تهنئتكم على الجرأة المُتَّقدة والتصميم الثابت اللَّذين تميز بها جيشكم في مسيره بهذا الشكل المبكر والمشرف الذي أسفر عن النتيجة التي تدعو إلى الفخر المتمثلة في الهزيمة التامة والدمار الكامل لدولة ذات سيادة عقب تألقها السريع وغير المتوقع الذي رقى بها إلى منازل عالية جداً ، حيث تُرك أمر إذلالها لسعادتكم . إن الخلفية التي تكمن وراء تقديمي هذه التهاني لكم وعهدي بكونها مفعمة بالإخلاص تظهر في ظرف يحالفني فيه الحظ الطيب بانشغالي بالمراسلات التي هي في غاية الود مع والدكم المحترم محمد علي باشا نائب ملك مصر ، ولا بد لمشاعر الاحترام والتبجيل التي تعتلج بها نفسي تجاه معاليه ، والتي يعتقد بشكل جازم أن صداقته الثابتة ونيته الطيبة تجاه الحكومة البريطانية قد عززتها وقوتها من أن تقودني دوماً إلى الابتهاج بالنتيجة الرائعة للجهود التي دُفع بها تحت أنظاره . لكني أؤكد لكم أن سروري قد ازداد كثيراً بتقديم التهاني في المناسبة التي التحم فيها مجد نجله مع النجاحات التي حققتها القوات المسلحة .

ولقد ذُكر لي أن سعادتكم يهدف الآن إلى استخدام الجنود المنتصرين في إخضاع الزعامات العنيدة الأخرى حتى تُذعن إلى الطاعة ، والجواسميين بشكل أساسي . ولقد وصلتكم بكل تأكيد معلومات عن القرصنات الجريئة وعمليات الابتزاز التي ارتكبتها القبيلة المذكورة في الخليج ، بالإضافة إلى الأعمال الوحشية

التي مارستها جماعاتهم ، مما وضعهم في صورة أعداء للحكومة البريطانية أيضاً . ولقد دفعتنا هذه الأحداث إلى التفكير في القيام بإجراءات لتأديبهم في أقرب وقت ممكن . ولقد فكرت ملياً فوجدت أنه يمكن الوصول إلى تحقيق هذا الهدف بسياستكم ومن خلال مفاوضاتنا المزمعة التي سيتم تنفيذ بنودها بشكل مناسب عن طريق توحيد جهود الحكومتين . فيبدو لي أن التعاون المشترك بين الجيش الذي يقوده سعادتكم وبين القوات البحرية والبرية التي ستجهزها الحكومة البريطانية هو السبيل المرغوب والمنتج إلى أقصى حد . وفي حال ميل سعادتكم إلى الموافقة على هذا الإجراء فإني أرجو منكم الإدلاء بآرائكم إلى حاكم بومباي السيد (نيبيان) المحترم فهو مطلع على جميع آرائي بالنسبة لهذا الموضوع ، كما ألتمس منكم أن تعتبروا معلوماته بالنسبة لطريقة التعاون وتحديد الزمن الأمثل لوضعها موضع التنفيذ تماماً كأنما صدرت عني بالذات .

وفي حال تطبيق المخطط الذي تشرفتُ باقتراحه ليكون قيد دراسة سعادتكم فإنه سيُتفق على تفاصيل التسوية بأسرع وأنسب ما يمكن بين سعادتكم أو بين ضباطكم العاملين ذوي الرتب العالية ورجال من جانب الحكومة البريطانية أسندت إليهم سلطة واسعة وتعليمات من قبل الشريف حاكم بومباي .

ألتمس قبول سعادتكم للسيف الذي سيرسل لكم من كلكوتا مع هذه الرسالة ليكون تذكاراً متواضعاً يرمز إلى احترامي وتقديري لكم ، وسينقل إليكم عن طريق حاكم بومباي .

(نسخة طبق الأصل)

التوقيع : ج . آدم ،

السكرتير الأول للحكومة

(نسخة طبق الأصل)

التوقيع : و . نيوتهان ،

الذي يعمل كأمين سر أول .

إلى سعادة إبراهيم باشا :

على الرغم من أني لم أتشرف بمراسلة سعادتكم بشكل مباشر وأني لست معروفاً لديكم شخصياً أجدني لا أستطيع أن أحجم نفسي عن اغتنام الفرصة المتاحة لي لتوجيه رسالة إلى سعادتكم مع رسالة النبيل الأعظم الحاكم العام مقدماً لكم أحَر التهاني لنجاحاتكم الرائعة التي كانت شاهداً على حيويةِ وسرعةِ إجراءاتكم في تحطيم النفوذ الوهابي وعلى بسالة جنودكم ، الأمر الذي لم يخفق في لفت الأنظار نحو ذكائكم المهيب وجعل سعادتكم محط إعجاب واستحسان والدكم المحترم الذي اعتدت على تبادل الرسائل معه .

لقد جعلتني تلك المزايا الرائعة التي اكتسبها سعادتكم والتقدم السريع لجيشكم نحو شواطئ الخليج ، أتوقع أنكم ستواصلون زحفكم لقمع نفوذ الجواسميين الذين يمارسون غزو الخليج منذ زمن بعيدٍ ، وقد امتدت عمليات قرصنتهم إلى سواحل شبه الجزيرة العربية ومِكران بشيء من النجاح .

إنه لن يغيب عن علمكم أن الأعمال الوحشية الفريدة من نوعها التي يقوم بها الجواسميون مع قبائل قرصنة أخرى على صلة بهم قد جعلت الحكومة البريطانية تصمم على اللجوء إلى مثل هذه الإجراءات التي قد يكون لها أعمق الأثر في توجيه ذلك النوع من التأديب الذي تستحقه أعمالهم الإجرامية ، وستتوجه القوات البحرية والبرية المعينة للقيام بهذه المهمة إلى الخليج بعد انتهاء الرياح الموسمية وبمجرد أن يصبح الطقس ملائماً لهذا الغرض وبعد تلقي إشارة من سعادتكم حول هذا الموضوع الهام . سينقل هذا الضابط رسالة لسعادتكم من سعادة النبيل الأعظم الحاكم العام . وقد سبق أن ألمحت لكم عنها ، وكلي قناعة بأنه لن يواجه أية صعوبة في كسب رضى سعادتكم عن الترتيبات التي تقوم بها الحكومة البريطانية وفي الاتفاق معكم على مثل هذه الخطة في عمليات موحدة بحيث تؤمن تحقيق الأهداف التي تقوم بدراستها الآن بشكل كامل .

أما الآن وقد نقلت لسعادتكم وجهة النظر العامة للحكومة البريطانية فإني واثق من أن سعادتكم سيأذن لي بتفويض الكابتن سادلير بمناقشة الجزئيات ، وتفضلوا بقبول تأكيدات الاحترام والتقدير التي ترافقه .

(توقيع) : إيفان نيبيان

قلعة بومباي م الخامس من نيسان (إبريل) ١٨١٩

(نسخة طبق الأصل)

(توقيع) : و . نيونهام ،

السكرتير الأول

نسخة طبق الأصل عن رسالة من الشريف بحق السيد إيفان نيبيان ، بارت ، حاكم بومباي ، إلى إمام مسقط ، مؤرخة في الثاني عشر من نيسان (أبريل) ١٨١٩ .

يسرني أن أعرب عن شكري تجاه رسالة معاليكم الكريمة في جوابكم للرسالة التي عهدت بها إلى الكابتن تايلور لينقلها إلى معاليكم ، وإني لسعيد تجاه المعلومات التي تحملها من حيث الإجراءات التي ينبغي أن تطبق من قبل حكومتنا لمحو قوات القراصنة في الخليج ، إذ تبين أنها حازت رضا معاليكم .

وإني لأجترئ الآن على تقديم الكابتن سادلير لمعاليكم ، فقد أُرسل كمفوض إلى سعادة إبراهيم باشا بهدف الاتفاق معه على خطة تعاون مشترك ضد رأس الخيمة ، وإن هذا الضابط ليتمتع بالثقة التامة للحكومة ، وسيكون مستعداً لتبادل الآراء مع معاليكم بالنسبة لأيّة نقطة لها صلة بهذا الموضوع .

(نسخة طبق الأصل)

(توقيع) : وليام نيونهام

العامل كأمين سر أول لدى الحكومة

(نسخة طبق الأصل)

(توقيع) : ب . ت . غودوين ،

السكرتير والمترجم في مكتب مراسلات الدولة .

آ ...

إلى الشريف السيد إيفان نيبيان ، بارت ، .

سيدي المحترم :

لي الشرف أن أُعلمكم أنه بعد مرور أربعةٍ وعشرين يوماً حافلة بأقسى أنواع المشقات رَسا طراد الشركة الموقرة ثيتيس في خليج مسقط في مساء السابع من أيار (مايو) . أما السفينة كيرلو التي أبحرت من بومباي بقيادة الكابتن والبول بعد عشرة أيام من رحلتنا فقد وصلت هذا المكان في الصباح الباكر من اليوم التالي . وقد تشرفت بزيارتي الأولى لمعالي الإمام بصحبة الكابتن والبول والملازم أول تنر حيث قدمت رسالتك لمعاليه . تلقى معاليه المعلومات التي وصلته بكل رضى وعبَّر عن تقديره البالغ للتحالف الودي والتفاهم المتبادل بشكل مطرد بين أسرته وحكومة النبلاء التي بتلقى منها أمثال هذا الدعم المستمر . وبما أنه كان من الضروري أن أفسح لمعاليه فرصة دراسة رسالتك فقد اتجه نقاشنا نحو مواضيع أخرى . ولقد ذكر لي وزير معاليه الشيخ علي بن فازيل الذي فوضه الإمام لاستقبالي ولترتيب أمر المقابلة أنه أمر بأن يذكر لي رغبات الإمام في هذه المناسبة . كان الحضور من جانب الإمام وزير معاليه وشقيقه سيد سالم ، وقد عرَّفني الإمام بكلا الشخصين وبمركزيهما اللائقين .

نقل معاليه للكابتن والبول المعلومات التي وصلت إلى مسقط عن عودة اثني عشر مركباً للجواسميين ، التي تم تتبع أثرها حتى باب المندب . ويبدو أن اثني عشر مركباً من القوارب السبعة عشر التي أبحرت من رأس الخيمة قد جاء ذكرها في فزيرة وهو مرفأ صغير واقع بين خور شلحا وخور فيكان المكان الذي احتلته

قراصنة الجواسميين ؤخراً ، حيث نزلت هذه القوارب الإثنا عشر قبل أربعة أيام للحصول على معلومات ، ولم يعد عليهم طرادهم إلا بفائدة ضئيلة جداً حيث ذكر أنهم لم يكسبوا سوى زورقين صغيرين ينتميان إلى سوكروتا قيمتها بخسة جداً .

دفعت هذه المعلومات الكابتن والبول إلى التصميم على الاشتراك مع مراكب الإمام التي تطوف عند رأس مسندوم في البحث عن السفن العدوة ، وعندما أرسل معاليه رسائل إلى قواد تلك المراكب تم إرسال المركب كيرلو في مساء اليوم الثامن من الشهر الجاري .

زارني وزير معاليه مساء الثامن وخاض نقاشاً مطولاً بصدد موضوع الحملة المزمعة فعرفت أنه عبارة عن استهلال للتحقيقات التي أمر بإجرائها لمعرفة هدف مهمتي في المعسكر التركي ، وعلى الرغم من أنه سعى إلى أن يخفي قلقه وفضوله كان واضحاً أن تفكيره ، أو بالأحرى تفكير سيده ، لم يكن مرتاحاً تمام الارتياح تجاه هذه المهمة . أكدت له أن الحكومة البريطانية في غاية الشوق لأن تشهد تفاهماً متبادلاً بين القائد التركي ومعالي الإمام وإن العلاقات الودية التي استمرت بين معالي محمد علي باشا والحكومة البريطانية قد تعتبر أفضل ضمان لتدعيم هذه الصداقة ، وأني على ثقة بأنها ستكون أكثر التحاماً وتماسكاً بين الإمام وإبراهيم باشا الذي خولته جهوده ودأبه في عمليات إفناء الوهابيين إلى أن يكسب التمجيد والاحترام ، وأنه لابد أن يكون للنجاح الذي لازم قوات إبراهيم باشا حتى الآن تأثير كبير على الوضع السياسي لهذا البلد ، وساعدت على استتباب الأمن والهدوء في مناطق نفوذ معالي الإمام ، بالإضافة إلى زيادة نسبة السرور والأمان بين سكان الأقاليم المجاورة بشكل عام . وبما أن سعادة إبراهيم باشا على علم ولا شك بعلاقات الصداقة القائمة بين الحكومة البريطانية ومعالي الإمام فإنه لم تعد هناك ضرورة للدخول في مناقشة نقاط يستبعد احتمال إثارتها أو التفكير فيها . وأخيراً

طلبت منه أن ينقل وجهات نظري حول الموضوع إلى الإمام ، وأن يلتمس لي مقابلة معه في اليوم التالي ، وقد وعدني بالقيام بذلك .

زارني الوزير مرة ثانية في صباح اليوم التاسع وأثار الموضوع نفسه الذي استهله في اليوم السابق فلم آلُ جهداً في توضيح كل ما أمكنني أن أضع من حجج تساعد على إقناعه بأن أمثال هذه الظنون ليست ذات قيمة ، ثم أبلغني خبراً تلقاه في مساء اليوم الثامن بعد زيارته لي مفاده أن حصن بريمي (الواقع على بعد مسيرة يومين من رأس الخيمة نحو الداخل ويبعد نفس المسافة عن الشارقة) قد اضطر إلى الاستسلام والخضوع إلى أحد ضباط الإمام الذي فُوِّض لتقديم الشروط والنقاط التي يمكن أن توضع للتفاهم مع (بتال الوهابي) ، وكان هذا الزعيم قد أُحرج في سحب مصالحه من أشياعه السابقين الذين كانوا ينوون تدبير الإطاحة به ، وربما إلى موته ، وفي ظل هذه الظروف أدرك أنه من الحكمة إقامة تسوية مع الإمام الذي وعده بالحماية . وهو من ناحية أخرى وجد نفسه تحت تأثير ضغط (سلطان بن صقر وراشد بن حميد) اللذين كانا مندمجين أصلاً في حلف غير رسمي مع جواسمي رأس الخيمة ، لكنهما فَصلا أملاكهما في الوقت الحاضر كما يفيد كلام الوزير ، فسار (بتال) وفق الطريق الأمثل الذي ينم عن تعقل وتدبر أكثر حيث استسلم للإمام وأقسم زعماء إقليم بريمي على ولائهم للإمام فأُرسل ضباطه ليفرضوا سيطرتهم على المنطقة . ويرغب سلطان بن صقر زعيم شقرا ورشيد بن حمد زعيم عجمان في حث الإمام على التخلي عن بريمي لصقر الذي قال إنه سيحتفظ به للإمام ، فهما يرغبان في اكتساب صداقة علنية معه في الوقت الحاضر . وقد أدليت ببعض الملاحظات بالنسبة لخطورة أن يُخدع معاليه بالمظاهر الزائفة ، فنصحت الوزير بأن يكون حذِراً عند إقامة تسوية مؤقتة يستغلها ذينك العدوان للمجتمع لحَجْب أنفسهم في الوقت الذي يتوقعان فيه أن تسدد إليهما العقوبة التي يستحقانها .

أخذت رأيه في أن أرافقه إلى الإمام لأعلن له عن قبولي لما اتفقنا عليه بالأمس لكنه اعتذر عن ذلك في هذا الوقت وقال إنه من الأفضل أن تؤجل الزيارة إلى المساء لأن الإمام الآن في مجلس عام لاتناقش فيه مثل هذه المسائل ولأن الإمام كان يتوقع وصول زعيم بريمي في صباح العاشر فربما يرغب في تأجيل المقابلة الثانية إلى ذلك الوقت ، لكني اعترضت على افتراضه هذا لأني كنت أرغب في أن أنقل إلى معاليه التوقعات التي تفكر بها الحكومة البريطانية بصدد الدعم الودي الذي ستقدمه له في الحملة القادمة ، وهو الأمر الذي يشكل موضوع مهمتي إلى مسقط ، فوعدني الوزير بترتيب مقابلة مساءً ، لكني وجدته عندما أتاني في حدود الخامسة مساء يميل إلى طرق مواضيع أخرى لا صلة لها بموضوع زيارتي إلى مسقط البتة ، ولا يزال راغباً في تأجيل الإيضاحات التي كنت بحاجة إليها منذ زمن بعيد ، فذكرته بضرورة الالتزام بالوعد الذي أبرم قبل الظهر فغادر على أساس أن ينجزه ، وبعد قليل استدعيت للمثول أمام الإمام ، وهذه دقائقُ موضوع الاجتماع :

حظيت بمقابلة معاليه مساء التاسع حيث كان وزيره الشيخ علي بن فازيل يقوم بزيارته بالإضافة إلى السمسار المعتمد للشركة الموقرة السيد (غولة أنانداس) . علق معاليه بعد وصولي بوقت قصير أنه لاحظ من خلال الرسالة التي قدمتها له أني مأمور بالتوجه إلى معسكر سعادة الباشا في الدرعية لإجراء محادثات وإبرام اتفاقية مع قائده وتذكيره بالحملة المزمعة ، فأجبته على ذلك بالتصديق ، وقال أيضاً إنه اغتنم فرصة فكتب إلى إبراهيم باشا عن موضوع البحرين ونظراً لأنه لم يتلق جواباً فإنه يرى أنه من الأفضل أن ينتظر رد أو إشارة معالي محمد علي باشا لأنه ليس بوسع إبراهيم باشا أن يتصرف في أمثال هذه الأمور دون أوامر مسبقة من والده ، حتى أنه ربما يكون من المؤكد أن يتجاوز التأجيل التاريخ المعين لإبحار الحملة وكان يرغب في أن يعرف ماإذا كانت

ستؤجل حتى عودتي من الدرعية التي لا يتوقع أن تتحقق قبل التاريخ المشار إليه على حسب ظنه ، فأجبت بأنه ما ينبغي أن ينسب إلي أي تأخير لأني سأبذل أقصى مالدي من جهد ، ولا أرى أن تكون هنالك ضرورة للرجوع إلى محمد علي باشا إذا حصل انسجام بين أفكار إبراهيم باشا وأفكارنا . ولم ينتابني سوى اليسير من الشك حول هاتين النقطتين ، فالحملة في حالة استعداد تام للمسير كما ذُكر له . ولا يستبعد على كل حال أن يتعارض عدم عودتي مع هذه الترتيبات . وكان معاليه يسعى المرة تلو المرة إلى إقناعي باستحالة إكمال رحلتي في وقت مناسب قبل الحملة لنقل جواب الباشا . ثم سألني عما إذا سمعت بانتقال إبراهيم باشا نحو غرب الدرعية أو أي مكان آخر ومُلمِحاً إلى أعمال وحشية ارتكبها هذا القائد ، فصرحت له عن جهلي الكامل لهذا الاتهام فأجاب معاليه أني سأُخبر بهذا لدى وصولي إلى هناك ، فاستخدمت كل حجة لأبعد عن ذهن الإمام أي انطباع غير لائق يضره عن إبراهيم باشا عن طريق لفت نظره إلى تصرف محمد علي باشا في مصر وإلى التفاهم المتبادل بين الحكومة البريطانية ومعاليه ، واضطررت إلى تكرار جميع الحجج التي سبق أن أوردتها في الاجتماعين اللذين عقدتها مع الوزير بصدد هذا الموضوع . ثم سألني فيما إذا كان بالإمكان تحقيق هدف الحملة دون تدخل غرباء أو دون التماس مساعدة الجيش التركي ، فأجبته بأنه إذا كان ذلك ممكناً فسيكون من دواعي سروري أن أذعن إلى آرائه وأنقلها إلى حكومتي ، لكني أدركت أنه من الضروري لفت نظره إلى الرسالة الشفوية التي أدلى بها الكابتن تايلور ، وإنه ليبدو من التناقض أن يقوم بتأييد أفكار الباشا وتقديم مراكبه الخاصة إليه بينما هو في نفس اللحظة بالذات يفكر في الصعوبات الكامنة من وراء اندماجنا مع الجيش التركي في نفس المكان والزمان ، وتفكيره بسوء نتائج الاندماج يجعلني أتوقع أنه سيقوم بتقديم أكبر مساعدة ودية ممكنة من طرفه ، خاصة وأنه سبق أن ألمح للكابتن تايلور عن عدم خشيته من نوايا الباشا تجاهه بالذات . لذلك أصبحت على ثقة بأنه كان مرتاح الفكر تماماً بالنسبة لهذه

النقطـة ، وختم الاجتماع بهذه المـلاحظـات التي نقلهـا إلى وزيره صبـاح اليـوم التالي .

تقرر أن تتألف الحملة المعتزمة خلال الأزمة السياسية الحالية مما يقارب أربعة أضعاف الجنود التي كان يستخدمها في حملاته السـابقـة ، بـالإضـافـة إلى تجهيزات بحرية هائلة تزيد كثيراً عن تلك التي كان يُسَر معاليه بمشاهدتها من قبل . لذلـك ينبغي أن تكون المساعدات التي ستتحملها لإتمام هذه الخطة واسعة النطاق بحيث تتجارى مع هذه الأوصـاف لكي تكون الفوائـد النـاتجـة عن هـذه الجهود المتـآزرة فعالة وشاملة دون أية صعوبة ، ولا بد أن معاليه سيكسب نفعاً مبـاشراً من هـذه الإنجازات أكثر مما يكسبه أي زعيم أو متنفذٍ له صلة بالأمر .

لابد أن معاليه مدرك تماماً أن الحكومة البريطانيـة لاتنوي زيـادة أراضٍ أو رُيوع لها من جراء إخضاع الوهابيين أو قراصنة الجواسميين وأن الـذي أثـار رغبـة حكـومتنـا في الانتقـام إنمـا هـو مـا يتعرض إليـه السكان الآمنـون من إهـانـات وإيذاءات من البلدان المجاورة التي تجمعنا بها علاقات صداقة عن طريق التعـامل التجاري المتبـادل ، فَسِلَعُنـا بكل تـأكيـد تستقطب أثراً تجـاريـاً وربحـاً ، فبقـدر ماتتعامل معنا نضمها إلى قوتنا لنحمي تجارتنا الخـاصة بسفننـا الحربيـة ، كما أننـا لسنا منكمشين على أنفسنـا في آرائنـا وسيـاستنـا بل واضعين نصب أعينـنـا أن جميع مناطق النفوذ التي يجمعنا بها تفـاهم متبـادل والتي تمكنهـا مواقعهـا من أن تتحمل تقديم مساعدة ستتقدم للمسـاهمـة في إخضـاع قبـائل القرصنـة بكل مـالـديهـا من إمكانيات .

وإن الرسـالـة التي كتبت لمعـاليـه وأُرسلت لـه عن طريـق الكابتن تـايلـور لتوضح بكل جلاء مشاعر احترام الحكومة البريطانية تجاه شخص معـاليـه وتجـاه كل ما يعتزم أن يقوم به ، بالإضافة إلى رغبتها الصـادقـة في أن تشهـد قيـام تفـاهم ودي بينه وبين إبراهيم باشا .

ذكّرته بعد ذلك بالفوائد التي وصلنا إليها نتيجة ثبات إبراهيم باشا في حربه ضد الوهابيين وبالأسلوب الحكيم الذي ينبغي أن نتبعه لنستفيد مما أحرزه من تقدم ومن اقتراب نحو تحقيق الهدف المقرر . ثم أثَرت النقاش الذي أورده معاليه بصدد احتمال انسحاب الجيش التركي وانتقدنا سوء سياسة المماطلة . وبعد فترة من التأمل ذكر لي معاليه بكل صراحة أنه اتخذ قراراً بالنسبة لهذه النقطة منذ زمن بعيد وهو ملتزم به تمام الالتزام مفاده أنه مصمم على عدم السماح لجنوده بالاندماج مع جنود الجيش التركي على الساحل بأي حال من الأحوال ، هذا بالرغم من تسليمه بصحة الكثير من حججي ، لأن النتائج ستكون حاسمة وذات أهمية كبيرة بالنسبة إليه ، وأكثر من ذلك أنه لا يستطيع أن يكره جنوده على إطاعة مثل هذه الأوامر (المتعلقة بإبقائهم منفصلين عن الجنود الأتراك) ، بل ربما يتحدث إليهم بشكل عام عن عزمه على تقديم الدعم والمساعدة في أي وقت تصل فيه قوات الحملة المزمعة وأنه سيرافق الحملة بنفسه ويُنزل خمسة آلاف جندي لتعمل مع البريطانيين وتنضم إليهم لإنجاز أي هدف تسمح به إمكانيات الجيشين ، وينبغي أن يُفهم بوضوح أنه إذا ما عمل الجيش التركي في الداخل فلن يطلب من معاليه ضم جنوده إليه ، وإذا لم يستدعى الجيش التركي سيسعى معاليه إلى تدبير قوة كافية لتعمل في الداخل . ثم أضاف أنه لا يستطيع أن يخوض في دقائق الأمور في الوقت الحاضر ، لذلك سيؤجل المشاورات التالية إلى الغد . وعلى كل حال منعه رفضه ضم جنوده إلى جنود إبراهيم باشا من تحويل أي جزء من تلك التأكيدات الشفهية إلى نص مكتوب . وفي إجابته على السؤال الذي أكدت عليه بأسلوب لطيف وأشرت به إلى الاستيلاء على رأس الخيمة صرح معاليه أنه لن يتمكن من حمايتها والحفاظ عليها حتى ولو عُرضت عليه ، متذرعاً بما يرافق مثل هذا الإجراء من تكاليف باهظة لاتطاق . ثم أعرب معاليه عن شكره للطف الذي لاحظه من جانبي خلال وضعي لآرائي وحُججي بين يديه لدراستها ، وانسحبت من مجلسه عندما عين اليوم التالي موعداً لاجتماع آخر .

وكان من دواعي سروري في صباح اليوم العاشر أن أتلقى رسالة شفهية عن طريق وزيره تشير إلى أن معاليه قد أنهى دراسة ملاحظاتي التي سُررت بتقديمها لأنظاره مساء اليوم السابق ، وأعرب الوزير عن سروره بمرافقتي إلى حضرة الإمام في الساعة الحادية عشرة أو قبل ذلك بوقت قصير .

التقيت بالوزير وفقاً للتوقيت المقرر ، وبعد أن أبدى بعض الملاحظات ذكر أن جميع العوائق قد تعتبر هامة ، لذلك باشرنا الكلام عن وضع الجواسميين كما هو عليه في الوقت الحاضر .

بيّن لي معاليه أن قوتهم آخذة بالضعف منذ سقوط الزعيم الوهابي ، الأمر الذي أدى إلى ضعف ثقة مختلف زعمائهم ببعضهم بعضاً ، أو بالأحرى إلى عمق تصميم كل منهم على محاولة تطوير مصالحه الخاصة على حساب مصالح جيرانه . وهو يرى أن كَون الأمور على هذا الحال مواتٍ تماماً ، فعدم وجود قائد متبصر ومتنفذ وحالةُ الضيق والضغط اللذين يعاني منهما الجواسميون منذ سقوط الوهابيين يمكن أن تولد نزاعات فيما بينهم ، وقد انضم إلى الجواسميين عدد ضئيل من الوهابيين الذين هربوا من درعية إذ يقدّر أن عددهم لا يزيد عن ثلاثمائة ، والتقديرات التالية تعطي فكرة كاملة عن قوات الجواسميين كما هي عليه الآن ، جمعها معاليه من أفضل مستند على الإطلاق ، وهو يعتبرها موثوقة :

					مشاة
المندمجون من بقايا قوة الوهابيين					٣٠٠
١ ـ تحوي بخا فقط					٢٠
٢ ـ شام ـ شعم					١٥٠ إلى ٢٠٠
٣ ـ رس					٢٠٠
٤ ـ رأس الخيمة :	زوارق كبيرة	٢٥	زوارق صغيرة	٧٥	٣٠٠٠
٥ ـ حمرا : كلهم اندمجوا مع رأس الخيمة					
٦ ـ أم القوين	زوارق كبيرة	١	زوارق صغيرة	٣٠	٤٠٠

٧ ـ عجمان	زوارق كبيرة	٤	زوارق صغيرة	٣٥	١٠٠٠
٨ ـ فشت مع					
٩ ـ الشارقة مع	زوارق كبيرة	١٢	زوارق صغيرة	١٥٠	١٢٨٠
١٠ ـ أبو هايل					
١١ ـ دبي	زوارق كبيرة	٤	زوارق صغيرة	١٠٠	٨٠٠
		٤٦		٣٩٠	٧٢٠٠
أبوظبي (خيران بني إياس)	زوارق كبيرة	٥	زوارق صغيرة	٣٠٠	٣٠٠٠

لكن المرفأ الأخير نادراً ما كان يعتبر مرفأ قرصنة لكونه مفصولاً عن رأس الخيمة منذ زمن بعيد .

يقع خليج (فجيرة) الصغير إلى الشرق من رأس مسندم وهو ميناء يبدو وكأنه مركز مراقبة يشرف على هذا الجانب من أجل الزوارق الصاعدة إلى الخليج . وكما سبق لي أن أوضحت في الفقرة الثانية من هذه الرسالة يستطيع المسافر العربي من فجيرة عن طريق البحر أن يقطع جبال رأس الخيمة خلال أربع عشرة ساعة ، كما يمكن المرور براً عن طريق دبا مشياً على الأقدام أو على الخيل ، وإمرار حتى المدافع الصغيرة الحجم ، حيث يمكن أن تنجز الرحلة خلال يومين .

وإن الترتيبات التي يقوم بها زعيم الشارقة بالإضافة إلى ما يقوم به زعيم عجمان ربما تدفعهما إلى أن يبقيا منفصلين عن زعيم رأس الخيمة خلال الخصومات ، لذلك صرح معاليه أنه سيسعى إلى تحقيق هذا الانفصال على الرغم من أنه ينصح الجميع بأن يتلاقوا لمواجهة نفس المصير الذي يحتمل أن تواجهه رأس الخيمة .

عند ذلك اقترحت على معاليه أنه ينبغي علينا أن نأخذ في عين الاعتبار

الإجراءات التي يجب أن تتخذ في العمليات الهجومية ، وبعد شيء من الإسهاب في النقاش وافق معاليه على الترتيبات التالية التي طلّب مني أن أحولها إلى نص مكتوب وأرسلها إلى مجلسكم الموقر كجواب للاستفسارات التي طلبتم مني تبليغها إياه المتعلقة بطبيعة ومدى المساعدات التي ربما يكون قادراً على تحملها من أجل سحق منفذ عمليات القرصنة .

وكان معاليه حازماً في رأيه بالنسبة لمنع جواسيس رأس الخيمة من التغلغل داخل عمان بإرساله عدداً كافياً من الرجال إلى الممرات الجبلية خلال العمليات الموجهة ضد رأس الخيمة ، وربما لا تدعو الحاجة إلى خدمات أولئك الرجال إذا ما وصل جيش الباشا ، وأما إذا لم يصل فإن معاليه سيكون مستعداً لأن يتعاون براً مع قوة قوامها سبعة آلاف من الجنود المشاة وثلاثون ومائة من الفرسان وخمسمائة وألف جمل للتقدم عن طريق الممرات المؤدية إلى عُمان ، وستتخذ بلا شك التدابير الوقائية المسبقة لمنع استخدام الجنود العرب والأتراك مندمجين مع بعضهم بعضاً وأن تبقى معسكراتهم منفصلة عن بعضها في جميع الأوقات .

وقد بدا أن المساعدة التالية التي يمكن أن يتحملها من جانبه على شكل تمويل بالزوارق لتساعد على تفريغ السفن من الجنود والأمتعة وغيرها من المعدات . ولسوء الحظ تناقص عدد الزوارق التي تتميز بهذا الوصف عن العدد الذي يُحتاج إليه من أجل هذا الغرض إلى حد كبير خلال السنوات القلائل التي مضت . وقد بين معاليه أنه ليس بمقدوره أن يَعِدَ بتقديم أكثر من سبعين زورقاً ، لكنه إذا ما توفرت لديه بعض الإمكانيات فربما يزيد العدد إلى مائة لدى كل منها إمكانية استيعاب ما بين ثلاثين وخمسين رجلاً .

أما بالنسبة للماء وحطب الوقود فقد بيَّن معاليه أنه سيؤمن كمية كافية من كل منهما على حسابه الخاص ، لكن تأمين المواشي والمؤن الضرورية الأخرى لا بد

أن يكون عن طريق ضابط التموين الإنكليزي وعلى نحو سريع ، بحيث يدفع السعر النظامي فقط وإن معاليه بالذات سيمارس نفوذه وصلاحياته لمنع ارتفاع الأسعار .

ثم إن معاليه وافق على استخدام سفينتين تابعتين له من أجل نقل المؤن أو تسهيل أية طريقة أخرى يمكن أن يتم من خلالها إنجاز هذا الأمر على أحسن وجه بحيث ينسجم مع رغبات الحكومة البريطانية التي سيوضع تحت تصرفها سفينتان في أي وقت يُصرح فيه الشريف بحق رئيس المجلس عن رغباته بصدد ذلك الموضوع لمعالي الإمام .

سيتابع معاليه مراسلة حاكم بومباي لإطلاعه على جميع المواضيع المتعلقة بتقدم سير أمور الاستعدادات التي تُهيأ من أجل الحملة ، كما سيقدّم جميع المعلومات التي لها صلة بموضوع أية تغييرات قد تطرأ على أعداد قراصنة الجواسميين ، بحيث تكون الحكومة على علم بالوضع الحقيقي لقواتهم في جميع الأوقات .

ختم معاليه كلامه بتأكيد مُجمل على دعمه ومساعدته ، وبيَّن أن أية إجراءات تتخذها الحكومة البريطانية ستلاقي من طرفه أكبر تأييد . أي إنه ، بغض النظر عن الخصوصيات التي عددت هنا ، سيكون مسروراً بتطبيق آراء الحكومة ، حتى إنه سيولي عناية كاملة لأية ترتيبات أغفلت في الموجز السابق وتحب الحكومة أن تدلي بها .

أصبح لديَّ كل مبرر لأن أتصور بأن معاليه سيستعمل كل جهوده لإتمام الترتيبات لكي يتمكن من تنفيذ تعهداته وتأكيداته التي لي الشرف الآن أن أنقلها إلى مجلسكم الموقر وكلي ثقة بألاً أُعتبر متواقحاً في إدلائي برأيي بالنسبة للبواعث التي أتصور أنها دفعت الإمام إلى التردد في المقابلة الأولى .

وإنه لواضح جداً أن تقدم قوات إبراهيم باشا وقرب مسرح عملياته من حدود

إقليم معالي الإمام يشكلان موضوعين جديرين بإيقاظ مشاعر الحسد والريبة في ذهن الإمام ، خصوصاً عندما يتذكر أن تطلعات الباشا نحو السيطرة على البحرين قد أصبحت أمراً يتوقعه الجميع . ولأنه أيضاً لم يُعط جواباً شافياً للإمام بصدد ذلك الموضوع . لذلك كان يبدو على الإمام منذ اللحظة الأولى أنه يفكر في إقناعي بالإقلاع عن فكرة متابعة مسيري إلى الدرعية ، محتجاً أولاً ببعد المسافة والتأخير الذي سينجم عنه ، وثانياً باحتمال إسقاط الجواسيين دون مساعدة الباشا . ونظراً لأني لم أؤيد تلك النقطة فإنه حاول بالتالي أن يحصل مني على عهد بالنيابة عن الحكومة البريطانية ، لكن جوابي كان حاسماً بالنسبة لهذا الطلب ، وما كان مني إلا أن كررت ذلك الجزء من رسالة الشريف رئيس المجلس لمعاليه ، وأنه لا يمكنني بأي حال من الأحوال أن أتجاوز حدود التأكيدات التي تنقلها إليه تلك الرسالة .

وبما أني أتوقع أن أزور مسقط وأنا في طريق عودتي إلى بومباي في وقت قد يكون من الضروري زيارتها به لرؤية ما إذا كانت هذه الاستعدادات آخذة في التقدم أم لا ، فإني واثق من أني سأحظى بتعليمات ترشدني إلى الخط الذي ينبغي علي أن أتصرف على حسبه في ظل الظروف المقبلة .

أولاً : إذا ما رفض إبراهيم باشا أن يحرك أية مجموعة من جيشه إلى تلك المسافة البعيدة جداً عن الدرعية أو الأحساء ، ما المساعدات الإضافية التي ربما يُحتاج إليها لإنجاز آراء الحكومة البريطانية من جانب إمام مسقط ؟

ثانياً : إذا قبل إبراهيم باشا بالاقتراحات الموجهة إليه ، ما التأكيدات التي يمكن أن تشعرني بأني حُرٌّ في إعدادها لإمام مسقط لتطمئن نفسه ولأضع حداً للشكوك التي يبدو أنه يُكِنها نحو آراء الباشا ؟

وإني لا أتصور من خلال المعلومات التي جمعتها هنا من مصادر أخرى أن

الإمام قد بخس في تقدير قوات الجواسميين ، ولا أستطيع أن أعرف عن طريق أي مستند موثوق ومعتمد بالنسبة لي أن عَرب الداخل سيتقدمون لمساعدة جواسمي رأس الخيمة . فإذا افترضنا أن لديهم ميلاً إلى مشاركة أصحابهم السابقين فإن عدد الرجال الذين سيتمكنون من الحضور إلى الساحة لن يتجاوز ثلاثة آلاف . وإذا كان بالإمكان الاعتماد على الزعيم البريمي وحلفائه فإن ذلك العدد بالذات سيتناقص إلى درجة تؤخذ بعين الاعتبار . ويبدو من ناحية أخرى أن قوات الإمام تصل إلى عشرين ألفاً من الجنود المشاة ، توزع في جميع القرى وعلى طول الساحل ، لكن هذا مع اعتبار أن كل عربي يعتبر جندياً ، وهو مسلح ، لذلك لا يتوقع أن يكون هذا الجيش في متناول اليد عند الحاجة ، ومن الممكن جمع عشرة آلاف من المشاة الذين يصل عددهم إلى عشرين ألفاً في لحظة واحدة ، ومن الفرسان مالا يزيد عما بين ثلاثين ومائة وخمسين ومائة . (١٣٠ ـ ١٥٠) .

ثم إني لن أتجرأ على الإدلاء برأيي بالنسبة لمؤهلات جيش معاليه فقد سبق أن نُقلت فكرة عنها إلى أنظار مجلسكم الموقر عن طريق الضباط الذين توفرت لديهم فرصة أطيب لتكوين رأي عن ذلك الموضوع خلال الحملة السابقة .

ولقد حصل لي الشرف هذا اليوم باستلام رسالة معاليه المعدلة التي بدا من خلالها مسروراً في توثيقه لعهوده ووعوده بالمساعدة . بالإضافة إلى رغبة معاليه في القيام بهذه الحملة وإني واثق من أن الشريف بحق رئيس المجلس (الذي وجُّهتُ رسالة معاليه إلى عنوانه جواباً لتلك التي حصل لي الشرف في تعهدها) سيكون سعيداً وراضياً عن المساعي التي قمت بها لتعزيز آراء الحكومة .

ولي الشرف أن أعلمكم أني استفدت كثيراً من النصائح الرائعة والمعلومات الواسعة التي وصلتني عن طريق الكابتن لوك ، وقد قررت نتيجة لذلك أن أتوجه إلى بوشير في أول فرصة بهدف الحصول على معلومات صحيحة عن مرفأ القطيف

وعن الطريق إلى الدرعية ، حيث آمل أن يحالفني حظ طيب فأجد موقعَ معسكرِ سعادة إبراهيم باشا . ولا توحي التقارير المتداولة هنا بسهولة الوصول إلى الدرعية ، لكني سأكون قادراً على أن أتكلم عن هذا الأمر بيقين آكد بعد وصولي إلى بوشير .

مسقط ١٥ آيار (مايو) ١٨١٩

ب ...

إلى الشريف ألفينستون ،

الحاكم ورئيس مجلس ، بومباي .

سيدي المحترم ،

لي الشرف في أن أعلم مجلسكم الموقر أنه نظراً لإخفاقي في العودة إلى بصرة ، كما سبق أن ذكرت لكم في الرسالة المؤرخة في ٢٦ آب (أغسطس) فقد أصبحت مضطراً إلى التوجه نحو المدينة (المنورة) حيث التقيت بالقرب منها بأحد رجال سعادته وهو بشقر آغازي ، الذي تلقى تعليمات بأن يقودني إلى آبار علي الواقعة على بعد ثلاثة أميال عن المدينة . وقد أطالَ الطريقَ الفرعي الذي اختاره ليحول بيني وبين رؤية مهد رسالة المسلمين وعقيدتهم إلى درجة أننا لم نصل حتى الليل ، حيث قدَّموني لطبيب سعادته من أجل أن يُحسن وفادتي لدى استقبالي ، وهو رجل إيطالي .

زار سعادته آبار علي مساء اليوم التالي (الثامن من أيلول ـ سبتمبر ـ) في ساعة متأخرة ، ونظراً لأن سعادته غير مجهز بأية وسائل للراحة من أجل استقبال عام فإنه ترجل عند خيمة الطبيب ، ووكله بأن يطلب مني أن أقوم بزيارته ، حيث يُستغنى فيها عن المراسم ولا يطرق فيها أي موضوع عملٍ بشكل علني . مثلت بين يدي سعادته فإذا به يستقبلني بكل دماثة ، وعندما عبر عن أسفه بصدد طول الرحلة والمشقات التي لابد أن أكون قد تعرضت لها عبرتُ بدوري عن أسفي لأني لم أحظ بالوصول إلى معسكر سعادته عندما كان في الدرعية

فلو تحقق ذلك الأمر لكانت تهيأت لي فرصة اطمئناني إلى تقديم تهاني السلطات البريطانية في الهند ـ التي انتدبتني إلى سعادته ـ في المنطقة التي كانت مسرح انتصاراته ونجاحه . فأجاب سعادته على ذلك بقوله : إن أحداثاً غيبية وخيبات أمل حالت دون إمكانية الالتحاق به في وقت مبكر ، وإن رحيله من رَسْ تصادف مع عمل هام جداً في المدينة ، ولم يستحسن سعادته عودتي من رَسْ إلى بصرة لأن الطريق لم يكن آمناً ولم يتمكن من إرسال حرس .

وفي صباح اليوم التاسع تشرفت باستقبال سعادته وبتقديم رسالة النبيل الأعظم الحاكم العام ورسالة الشريف بحق رئيس المجلس إليه ، وقد بدا سعادته مهتماً بدراسة كلتيهما . وعندما عرفني سعادته بنفسه ذكر أنه لم يتشرف حتى الآن بتلقي أية رسائل مباشرة من حكومة الهند ، وأنه قد عُرف لدى تلك الحكومة من خلال المراسلات الودية التي كانت متبادلة بين والده وبين السلطات البريطانية في الهند . فأجبت على ذلك قائلاً : إن الاتصالات الحالية تعتبر قاعدة لعلاقات شخصية وودية دائمة ، وإني على ثقة في أنها ستستمر دون أي انقطاع . ثم إني قدمت لسعادته السيف الذي عُهد به إلي . بدا سعادته في غاية السُرور تجاه التهاني الموجهة إليه والهدية التي رافقتها .

بعد تبادل العبارات الإطرائية فترة قصيرة من الزمن أمر سعادته الخدم بالانسحاب حيث تمعَّن للمرة الثانية بالرسائل التي تشرفت بتقديمها . ثم أعلمني سعادته من خلال تبادل الأفكار الذي تلا ذلك أن سياسة القيام بهذه الحملة التي يقوم بها قد أوكلت إلى أبيه عن طريق البلاط العثماني . وكانت التعليمات التي وجهها سعادته بصدد (درعية) قد ضيقت نطاق عملياته العسكرية هناك ، لكن ذلك يعود إلى عدم إطْلاعه على وجهات النظر الأخيرة التي دفعت ذلك البلاط إلى أن يرسل البعثة العسكرية سيراً على الأقدام . وكان سعادته يترقب تعليمات

أخرى بالنسبة لإسقاط الدرعية ، فوصلت من إستنبول تأمر بتدميرها وإخلاء المنطقة كلها ، مع العلم أن الريوع المستفادة منها لم تكفِ لتعويض نفقات الجنود التي دعت الحاجة إليها من أجل حمايتها خلال إقامة سعادته فيها . وخلال ترقبه لهذه الأوامر أرسل بريداً إلى الأحساء والقطيف للحصول على تعزيزات نظراً لأن جيشه صار في حالة مزرية جداً ، ولذا قد تَحْتَلُّ المحادثات الودية مع البريطانيين الدرجة الأولى في الأهمية في هذه الفترة .

أعرب سعادته عن أسفه لعدم سير الأمور بشكل ينسجم مع خططه ، الأمر الذي قد يحول دون إمكانية التقائه مع رغبات النبيل الأعظم الحاكم العام ، إذ ربما كان سعادته في منتهى السرور لو اطَّلع على تلك الأفكار في وقت أبكر فيتعرف بذلك على آراء الحكومة البريطانية . لكنه اعتبر هذه الاقتراحات ذات أهمية كبيرة بحيث تحتاج إلى استشارة معالي نائب ملك مصر ، لأن سعادته يكره أن يصيغ أي جواب للرسائل دون تعليمات مسبقة منه .

دفعتني لهفتي إلى تجنب الزيادة في التأخر لأن أعبر عن أملي في أن يعيد سعادته النظر في الموضوع ويحاول تجنب التأجيل الذي سينشأ عن ترقب جواب من القاهرة إذا كان يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، لكن سعادته لم يقبل التماساتي فوجدت نفسي مرغماً على قبول موضوع أخذ رأي القاهرة . وإن هذا لهو الأمر الذي ذُكِر لي أني سأواجهه عندما أقوم بمحادثات مع الباشا من قبل أن أعاني محنة دخول إقليم نجد .

طلب مني سعادته أن أوجه رسالة إلى السيد صولط موضحاً له فيها الآراء التي أدليت بها لسعادته وأرفقها بالرسائل التي سيرسلها إلى معالي محمد علي باشا ليدلي برأيه حولها ، أو يتبادل بعض المشاورات مع السيد صولط كما وضعت بين

يديه دقائق ما ورد في الاجتماع الذي حظيت به مع سعادته وطالباً منه استخدام نفوذه للإسراع برحيلي إلى الهند .

وبما أن ميناء جدة يتميز بإمكانية تهيء أفضل فرصة لتأمين العبور إلى مخا فقد طلبت من سعادته أن يسمح لي بمرافقته في طريقه إلى مكة ، حيث أنطلق من هناك إلى جدة وأترقب عودته من الحج هناك فوافق على ذلك ، لكنه غيّر اتجاه مسيري في آخر لحظة إلى ينبع محتجاً بالإزعاج الذي ربما ينجم عن إرسال عدد قليل من الفرسان من أجل المرحلتين اللتين تبدآن من النقطة التي يفترق عندها طريق جدة عن طريق مكة . وذكر سعادته أنه مصمم على العودة إلى ينبع حيث سيشرفني بمقابلة أخرى بعد أن يرتب جوابه هناك . لذلك وجدت نفسي مرغماً على المسير مع الحامية التي كانت تقوم بحراسة حريمه إلى مدينة (ينبع) التي سيُرسلنَ منها إلى السويس . كانت إقامتي في هذا المكان المزري تعيسة جداً بسبب إصابتي بحمى حادّة وليس بحوزتي وأنا في هذه الحالة البائسة دواء ولا مساعدة طبية . عاد رسول سعادته من القاهرة في التاسع عشر من تشرين الأول وفي جعبته النبأ البغيض عن تغيب السيد صولط عن القاهرة ، لكنه من ناحية أخرى يحمل رسائل من معالي محمد علي باشا إلى سعادة إبراهيم باشا الذي كان قد أقام في جدة فترة من الزمن ، لذلك قررت أن أبحر في أول زورق أتمكن من الحصول عليه للتوجه إلى جدة ، وقد وصلت إليها على زورق مكشوف في غضون أربعة أيام .

وعلى الرغم من أني وصلت في ضُحى اليوم السابع والعشرين فإني لم أستطع أن أحصل على أية وسيلة للراحة والنوم والطعام على الشاطئ حتى مساء اليوم التالي . وكانت اهتمامات سعادته كلها منصرفة إلى التحقيق في شؤون حكومة باشا جدة فعانيت صعوبة كبيرة لتدبير مقابلة معه فأعلمني أنه سيتوفر لديه فراغ فيما بعد ليناقشني بموضوع الجواب . فجازفت وأكدت على سعادته أن يذكر لي اسم

أحد وزرائه أو ضباطه بحيث أتمكن من الاتصال به عن طريقه ، لكنه لم يُوْلِ هذا الطلب أي اهتمام .

وفي المقابلة الثانية التي جرت بعد مرور أيام كثيرة عبّر سعادته عن أسفه تجاه التأخير الذي عزاه إلى عدم تمكنه من الحصول على كاتب يستطيع أن ينسخ رسالة بالعربية ، ثم ذكر أنه سيأمر بالبحث عن كاتب مرة أخرى لكتابة رسالة يعبر فيها عن أسفه لعدم القيام بهذه الاتصالات في وقت مبكر ليتمكن من الانضواء تحت آراء الحكومة البريطانية .

عبَّر سعادته عن رغبته في إرسال حصان عربي وفرس ، وطلب مني أن أتعهدهما وأكون واسطة تقديمها للنبيل الأعظم الحاكم العام ، وقد وافقت على ذلك بلا شك ، ثم عبر عن عزمه على منحي سمة تقدير واحترام قائلاً : إنه سيرسل أيضاً حصاناً لائقاً يحظى بقبولي ، فما كان مني إلا أن وجهت شكري وامتناني لسعادته ، ثم أخبرني أنه أمر بتجهيز زورق لينقلني إلى مُخا .

وقد رأيت من الضروري أن أتعرف على جواب سعادته فطلبت منه أن يكرمني بنسخة عنه من أجل تبليغه في حال حصول أي حادث للرسائل ولكي أتمكن من صياغة ترجمة له ، فعبر عن موافقته على هذا الطلب .

وفي الرابع عشر من تشرين الثاني وصلتني نسخة عن الرسالة يطلب مني معها أن أعيدها بعد دراستها وأن أرسل له لقب وعنوان النبيل الأعظم الحاكم العام ، فأذعنت إلى ذلك وأرسلت له نسخة من رسالة كانت في حوزتي . تحوي اللقب الذي يشكل (أشرف الأشراف) جزءاً منه ، وقد ظهرَت بسبب هذا اللقب معارضات خطيرة لكونه لقباً يختص به الرسول محمد[1] فقط . فطلبت من الشخص المرسَل أن يلفت نظر المعارضين إلى أنه يمكن أن يُستبدل بلقب (أمجد

---

(1) ﷺ .

الأمجاد) بسهولة . محّصَ سعادته هذا الموضوع بحماسٍ شديد عوضاً عن أن ينظر إليه بإحساس طيب ، مع أن لقب عباس ميرزا يماثله تقريباً ، وكذلك لقب نواب أشرف . وتستعمل مختلف صيغ هذه السلالة بأشكال متعددة لتعبر عن النبل والاستعلاء في النظام السائد لكتابة الرسائل في منطقة الشرق بكاملها . فما يوجد في اللغة العربية من هذه الألقاب يوجد أيضاً في اللغة الفارسية . ناقش سعادته ومستشاروه الأمر وقد هيمن الإحساس الديني على مفاهيمهم ، لكنه تمّ تحاشي ما من شأنه أن يثير الاعتراضات التافهة باقتراح لقب يفيد المعنى نفسه .

كانت زيارة ثلاثة أو أربعة من سائسي خيل سعادته الذين أتوني يطلبون عطاء آخر تلميح وصلني فيما يتعلق بالخيل التي سبق لسعادته أن أمر بتحميلها على الزورق المزمع إرسالي به إلى مخا . وقد تعمد سعادته ألا يُكسبني الشرف أو يجاملني في أن يفسح لي مجال رؤية الخيل التي طلب مني أن أكون واسطة تقديمها ، لكني لم أنبس ببنت شفة تعليقاً على هذا التصرف .

أحضر أحد أقارب سعادته إلى مسكني قِطعاً من جهاز حصان لتكون ملحقاتٍ للخيل المعدة للحاكم العام ، وقد أرسلها الخازن محلولة ومكشوفة . تتألف هذه القطع من عِذار وطوقٍ صدري وحِلسٍ عليها طلاء من الذهب والفضة بالإضافة إلى زوجٍ من ركاب فضي . ولا يستطيع الناظر إلى الحِلسِ أن يُغمض عينيه عن حالته البالية ومظهره الممزق ، وهذا يوحي بلا شك إلى أنه عاد على سعادته بنفع كبير في مناسبات كثيرة مضت . ثم إني لم أتوقع أن إدلائي برأيي في موضوع سبق لي أن استشرت به سيعرضني إلى خطر ارتكاب ذنب يخالف مبادئ الأدب عند الأتراك . وما أظن أن تصرفاتهم هذه يسوغها الجهل المطبق الذي يهيمن عليهم ، فقد طلبت من حامل الملحقات أن يعود إلى الوزير بصحبة رجلٍ سيحمل له رسالة بصدد هذا الموضوع ليعلمه « أني أرى تأجيل قبول جهازِ السرج إلى أن تُفسح لي فرصة لإجراء نقاش معه ، لذلك طلبت أن أعلم متى وأين

سأتشرف بزيارته » . وعندما عاد الرسول إلى سعادتـه أمره بتوصيل القطع إلى الخازن ريثما يُجري بعض النقاشات مع الوزير . أما من جهتي فإنـه لم تسنح لي فرصة مناقشة الموضوع مع وزيره لأنـه لم يعلِمني عن وقت مناسب يمكنـه أن يستقبلني فيه .

عندئـذ استـدعي حكيم باشي طبيب معاليـه الـذي كان يعمل كمترجم لكي يطلعهم على الـدوافع أو الخلفيـات التي تكمن من وراء اعتراضي . فـأطلعت ذلـك الرجل على تلك الظروف وطلبت منه أن يبلغ سعادتـه استعـدادي لأن أخـدمـه . فـأقـدم الإيضاحـات إليـه شخصيـاً ، لكن معـاليـه فضل أن تكـون عن طريـق المترجم ، فتقـدمت بمـا يلي : « إن الجُلَّ ليس من المُتمِمات الضروريـة ونظراً لعدم التمكن من الحصـول على جُـلٍّ جـديـد أو في حـالـة شبـه جيـدة فـإن من الأليـق الاستغناء عنه » . وفوضت المترجم في حالة احتياج سعادتـه إلى إيضـاحـات أكثر أن يقدم له رأيي ، « بأن القِطع التي سبق أن كانت قيد الاستعمال لا يمكن أن تعتبر هـديـة مناسبـة لرجـل نبيـل يشغـل ذلـك المنصب الرفيـع في ظـل الحكـومـة البريطانية ، كالذي يشغله النبيل هاستينغز الآن » .

أمر سعادته حكيم باشي بأن ينقل إلي الرسالة الشفهية التـاليـة : « إنـه نظراً لكوني قد قدمت اعتراضاً بصـدد موضوع تجهيزات الحصـان فـإن سعـادتـه قـد أمر بـإنزال الخيـول من الـزورق ، وقرر إلغـاء الإجـابـة على الرسـائـل ، لـذلـك أمر بإتلافها ، وإنه يأمرني بالرحيل غداً في الزورق الـذي أُعـد لنقلي إلى مخـا ، وإنـه سيوجه رسالة إلى الحاكم العـام لـدى وصولـه إلى القـاهرة رادّاً معهـا السيف الـذي أهدي إليه » .

لم يبق سوى جواب واحد يمكن أن يقدم لهذه الرسالـة : « كنت قبلت تجهيز الزورق لو كانت الظروف على غير هذا الحـال ، فينبغي عليَّ الآن أن أدبّر مركباً

على حسابي الخاص لينقلني إلى المقصد الذي أفضله لنفسي ، وفي التوقيت الذي يتناسب مع مصلحتي » .

وفي صباح اليوم السابع عشر من تشرين الثاني أبحر سعادته من جدة متوجهاً إلى قُصير ، وهي ظاهرة تبدو مخالفة لما رتبه معي من قبل حيث كان يبغي العودة إلى ينبع ، وهو المكان الذي لو انتظرته فيه لتجنبت معاناة الشعور بالخزي من جراء مشاهدة التغير الغريب الذي طرأ على تصرفات سعادته منذ اللحظة التي اكتشف فيها أن هدف مهمتي لا يمكن أن يتحول إلى مصلحته الخاصة .

ولقد كان من سوء طالعي أن وقَعَتِ القرعة علي للتعرف على الملامح القيادية في شخصية إبراهيم باشا من خلال ملاحظاتي الشخصية التي ينبغي علي أن أضيف إليها أن الواقع التاريخي العام للحملة الأخيرة التي عُهد بها إلى تدبيره يعرض سلسلة لأبشع الأعمال الوحشية والهمجية التي ارتكبت لتدنس العقيدة التي تتسم بأعلى درجات القداسة في تعاليمها وتوجيهاتها . كان يرتكب تلك الوحشيات في بعض الأحيان بهدف إثراء نفسه بنهبه للقبائل نفسها التي كانت قد أسهمت في تحقيق نجاحاته ، وكان في حالات أخرى يهدف إلى وضع يده على ثروات أعدائه المقهورين لمجرد أنهم حجبوا أنفسهم عن الأنظار في لحظة غضبته . فبعد تضليله لأولئك البائسين تعيسي الحظ بأعدل الوعود إذ بهم يقعون ضحايا تصرفاته الجشعة وتعطشه الذي لا يرتوي إلى سفك دماء البشر .

لي الشرف أن أُعلم مجلسكم الموقر أني قد ذكرت للسيد صولط دقائق هذه الأحداث ، يدفعني إلى ذلك أمل في أن يلقي معالي نائب الملك نظرة على سلوك ابنه وقائده من خلال الأضواء التي يستحق أن ينظر بها إليه ، فلعل نفسه تميل إلى التعبير عن عدم رضاه باحتجاجات ينبغي أن تثيرها تلك السلسلة من التصرفات . لذلك سأتأخر في إقامتي بجدة إلى وقت أتوقع فيه أن أتلقى جواباً

من مصر أو أسمع عن وصول مركب من الهند ، لكن الاحتمال الأخير ينـدر توقعـه في هذا الفصل .

جدة ، ١٨ تشرين الثاني

(نوفمبر) ١٨١٩

٢٣ نيسان (أبريل) ٦٨

وثائق معاصرة لتلك الفترة

ماذكره المؤرخ ميخائيل الدمشقي في كتاب حوادث الشام ولبنان :

ثم إنه في شهر ذي الحجة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٦م) وردت أخبار برجوع الحج والباشا إلى المزيريب هرباً من عبد الوهاب[1] الذي تسلط على الحجاز وجمع غفير تبعوه (وشاع) القول أنه من حين وصل الباشا لتلك الأماكن قام عليه الأهالي ومنعوه من الدخول إلى بلادهم ودعواهم أنه أخذها الوهابي[1] . وما كان أحد يتحرك لمرافقته حتى أن الوهابي أرسل علما للباشا إن كنت تريد تحج لا بأس ولكن بشرط تسلمني السنجق والحمل وسلاح العسكر وأنا أخفرك للشام . وأما ماارتضيت فأطردك .

وكان كيخية الوالدة[2] مع الباشا . فعمل الباشا ديوان بحضوره والصراة أمين[3] وأشهر لهما أنه يحارب الوهابي فمنعناه وأشار إليه أن يرجع للشام وهما يعطيان جواباً للسلطان وأخذ منهما سنداً بذلك ورجع للشام بغير حج بسرعة كلية .

وبقي هناك جانب من الحجاج منهم فُقدوا بالطريق ومنهم تاهوا وقاسوا الأهوال من التعب والعطش حتى وصلوا للشام ومنهم حجوا برضى الوهابي ورافقهم جماعة وهابية إلى أراضي الشام .

---

(١) الإمام محمد عبد الوهاب .

(٢) (يريد والدة السلطان) أي مساعدها .

(٣) الصرة أمين هو ناظر المال .

وحين وصول الباشا للشام صار ضوجة (ضجة) واضطراب بين الإسلام . أخبرنا رجل عمدة كان بالحج أنه لما حضر الشريف الكبير إلى خيمة الوزير ومعه رجل من أتباع الوهابي صار يحكي الشريف عن سطوة الوهابي واقتداره وأنه غير ممكن يخلي الحج يمشي بهذه الطريق وصار يتلاوم على دولة العثملي (العثمانية) وأنْ ماعاد لها تدبير وتركتونا لهذه الحدود حتى خرجت البلاد والمقام وأن هذا ماعاد منه رجاء بإصلاحه وكان الديوان كيخية الوالدة فجاوب الشريف بكلام ركيك فقام إليه الشريف ومسكه من لحيته وقال له : كل الغضب منك لأنني حينما توجهت لإسلامبول منذ خمس سنين ونزلت في بيتك وتكلمت معك كثيراً بهذا الخصوص وترجيتك تجمعني بالسلطان وأنت تحادف (تماطل) واستقمت عندك ستة شهور وما كان يمكن تدعني أملك أربي ورجعت خائباً . ثم حلف يميناً لولا الخواطر قتلتك مكانك . وأظهر غضبه وتكلم بالديوان : إننا نحن والوهابية عليكم . وقام مع أرفاقه مغضباً وبعد ذهابهم التفت كيخية الوالدة وخلافه إلى الباشا وحسنوا له الرحيل لئلا يجد شيئاً ردياً . فحالا قاموا بسرعة وجدوا بالسير ركضاً . القول (يقال) إنهم أخذوا القناقين بقناق[1] والذي فكروا فيه تم . لأن الشريف برجوعه إلى مكة ندم على ترك الجماعة فجمع عسكراً وجاء عليهم فما وجدهم فركضوا في أثرهم فما حصلوهم وهكذا سلموا منهم على أهون حال .

ثم بعد حضور الباشا طمع به أهل الشام والمتسلم نزل عن وظيفته . فبعد أيام نزل حرامية على بيت الباشا وتحسب[2] جداً لربما قصدوا به ضرراً . فحصل شلش واحتساب كبير وثاني يوم جاب معمارية ونجارين ورفع الحيطان والطبلات وبهذا الصنيع طمعت به الناس والبلد صارت فالتة كلياً . وأما عبد الرزاق فإنه استقام بالقلعة ماطلع منها أبداً . والباب مفتوح وعليه حراس . فبعد أيام قليلة

---

(١) (القناق بالتركية المرحلة وسير اليوم) .

(٢) (الخوف والحذر) .

شاع الخبر بعزله من ولاية الشام وتولي كنج يوسف الدالي باش المذكور .

وكانت ولاية عبد الله باشا سنتين وهي الأخيرة من أحكامه . وفي زمان حكمه وقع حيط البرج بالقلعة بالطرف وظهر البير الذي وضع فيه عبد الرحمن المرادي ورفاقه . وهذا البير بمنزلة جب تحت الأرض بحيط السور وهو واسع وله نافذة تسمى زغلول على السور يدخل منها الضوء فراح الناس لهذا المكان يتفرجون عليه فوجدوا المفتي متكي بثيابه وبلي وجهه . إنما أمره ظاهره . والدفتردار ملقى على قفاه وابن سبح نظروه ناحية الطاقة مطبوباً على وجهه . حال محزن . وكان محمد عقيل قبرهم أحياء . فأعرض أقرباء عبد الرحمن أفندي المفتي لعبد الله باشا أنهم ينقلون جسمه الى تربتهم في بيته بسوق ساروجا فما ارتضى الباشا أنهم ينقلوا جسمه وقال : إن هذا الحال مستغرب ويصير منه شلش . ثم طلب المعمار باشي وأمره أن يبني بوجه السرعة حيط البرج ويرجعه كما كان وتم ذلك حالاً وبقي كل شيء بحاله ومضى الأمر .

(تولي يوسف باشا) في شهر صفر سنة ألف ومايتين واثنين وعشرين (١٨٠٧ م) ورد العلم من الدولة بولاية المذكور . وبوقته كان في حوران فراح المبشرون لهناك وبالحال حضر للشام . وعبد الله باشا لزم بيته وراح سلم على يوسف باشا وقدم له المذكور الإكرام اللائق لكونه ولي نعمته .

ثم بعده جاء أمر بقيام عبد الله باشا إلى أدنه . فقبل ذهابه أعطى إلى يوسف باشا المال الذي له عنده وحيث ماوجد عنده غرش يكفيه فاستد منه طقومه وغيرها . وبوقته انحاش (قبض على) درويش آغا ابن آغا كتخداه عبد الله باشا . سجنه (يوسف باشا) بالقلعة وتهدده بالعذاب وأخذ منه مبلغ مال وخيل وطقم . والناس حصلوا في وجل وخوف من الباشا لأنه ضيقهم حين كان متسلم فكيف الآن . ولبس (وسمى) كتخداه الشرجي حسن آغا تمر وهذا عبد

الإنكجارية[1] واستكنت الوجاقات[2] لأن الخوف دخل على الجميع . وقتل بعضاً من المحبوسين الحرامية وكل من أذنب من جديد والذي يقع ليس له شفيع ولا رفيع .

اعلم أن هذا الباشا أصله كردي شراه ملا إسمعيل وأخيراً فاق على سيده وخدم عند عبد الله باشا وصار دالي باش[3] وضمن ضيعاً وأراضي وجمع أموالاً غزيرة وأنشأ بيتاً معتبراً بالشام ومن رخاوة الحكم طمع بالناس وتظاهر بالقوة والاقتدار وجعل له معرفة من أعيان الدولة في إسلامبول بواسطة رجل حمصي يدعى عبود البحري كاتب عند عبد الله باشا . ففي مرور كيخية الوالدة للشام بقصد الحج نزل في بيته وقدم له إكراماً كلياً . وفي غيبته بالحج كان متسلماً فصار يرسل كتابات لأعيان الدولة وترجى منصب الشام . ومن كونه في مشروب الدولة استند على عبور المذكور حيث أن المذكور يفهم جيداً إنشاء الكتابات ومختبر حال الدولة بسبب خدمته عند الوزير سنين . فاستوت الطبخة وانكتم السر حتى حضور الحج . وبالأخص أن الدولة كرهت عبد الله باشا من مزاياه وعدم ملاحظته بتدبير الأحكام . والأبلغ في عزلته رجوعه خائباً من الحج . وبعد مجيء كيخية الوالدة وتوجهه إلى إسلامبول سعى في ولاية يوسف باشا باجتهاد وأفهمهم عن شطارته ومعاركته بالحروب وأنه يمكنه محاربة الوهابي وينتصر عليه فأرسلوا له المنصب .

---

(١) أي رئيس الإنكجارية .

(٢) الوجاق النسق من الجند والمقاطعة والناحية .

(٣) أي زعيم قومه .

ملحق (١)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : دفتر رقم (١) معية تركي .

رقمها في وحدة الحفظ : ٥

تاريخها ٨ شوال ١٢٢٢ هـ ـ ٩ سبتمبر ١٨٠٧ م .

موضوعها : موسى باشا يحث محمد علي ، على حرب الدولة السعودية .

ـ ترجمة ـ

ختم	**من موسى باشا (القائمقام سابقاً**
رب سهل أمور	**أي القائم مقام السلطان : النائب عنه)**
موسى كل آن	**إلى محمد علي**

حضرة صاحب السعادة والإنسانية ، والرجولة والشجاعة ، وذوي الجود والكرم والمحبة والمودة أخي الأعز الأكرم .

لقد ورد إلى محبكم الصادق ، هذا خطاب سعادتكم ، الذي تكرمتم بإرساله فاطلعنا عليه وأحطنا بفاده الكريم : ومزاياه السامية ، التي جعلتنا نشعر بسرور كبير ، وبإكبار جليل ، نحو شخصكم الكريم ، إذ علمنا أنه قد اتجهت نيتكم الصادقة إلى معالجة مشكلة الوهابيين ، بعد دخولكم مصر مباشرة ، حيث تريدون أن تتفرغوا هناك تفرغاً تاماً لإعداد العتاد الحربي ، ووسائل القتال اللازمة لمقاتلة

الوهابيين وأنه حدث عندكم أن بعض الجنود تـذمروا ، من تـأخر صرف رواتبهم ، فأخـذوا يشتكون ويرفعون أصواتهم بـالشكوى أمـام إخوانهم الاخرين ، الـذين لم يتـذمروا مثلهم ليستفزوهم حتى ينضموا إليهم ، وأنـه لـولا المعاملـة الحـازمـة التي أدركتم بهـا شكـوى هـؤلاء ولـولا التصرف الحسن الـذي تصرفتم بـه لإسكاتهم ، وإخضاعهم للطاعة ، لاستفحلت الفتنة وعمت الجيش كله ، وأنه قد عادت الحالـة في الجيش إلى سيرتهـا الأولى ، كأنـه لم يقـع فيـه أي شيء بفضـل تلـك المعـاملـة الحازمة ، وبذلك وعليـه فبم أن هـذين الخبرين العظيمين السـارين اللـذين أدخلا السرور الكثير في قلبنا ، قـد أثبتـا أن سعـادتكم جـديرون بـأن نـدعو لكم بـالنصر والتوفيق ، في تمشيـة أموركم ويوفقكم فيهـا على الـدوام آمين ، ومـا دمنـا في صـدد الإعجاب بما تنوون أن تقوموا به بشأن مشكلة الحجاز ، وأيضاً في سبيل استحسان ماقمتم به لإخماد الفتنـة ، التي كادت أن تقع في الجيش ، فبإنـا نطلب كـذلـك من ذاتكم السامية ذات النفوذ والجاه الحائزة إعجاب العالم بذكائها وتجاريبهـا الموفقـة ، وبإحسانها معالجة الأمور وتصريف الشؤون إحسـانـاً تـامـاً ، والغيورة على شرف الوطن ، والعاملة لحمايته من اعتداء المعتدين وإهانـة المهينين ، أن تكون طريقـة إجرائها في تمشية أمور البلاد وتصريف شؤونهـا من بعـد الآن كـذلـك بـالطريقـة المثلى وببذل الجهد والهمة حتى تكلل هذه الإجراءات بالنجاح ، وختاماً ، فها نحن أولاء قد حررنا لكم هـذا الخطـاب المعبر عن ودنـا الخـالص الصـادق وأرسلنـاه إلى

يستخلص من هذه الوثيقة

- مماطلة محمد علي للدولة العثمانيـة وتقـديمه للأعـذار عن عـدم قـدرتـه على دخول الحرب ضـد الدولة السعودية .

- قلق الدولة من اتساع نفوذ الدولـة السعوديـة وسيطرتهـا على الحجـاز واعتبـار استيلاء هـذه القـوة العربيـة على الحجـاز يعتبر مـشكلـة خطيرة فنقـول « مشكلـة الـوهـابيين » « مشكلـة الحجاز » .

سعادتكم لتحيطوا بما فيه ولتبلغكم به أن الذي ننتظره أن تفعلوه كذلك من بعد الآن ، أن تقدموا إقداماً تاماً على قطع دابر الوهابيين هؤلاء ، وإزالة (...) إزالة تامة ، وأيضاً على تصريف شؤونكم الأخرى التي ستكلفون أن تقوموا بها ، تصريف يتفق وشيمة التروي ودرس الأمور وتمحيصها قبل الشروع في تنفيذها ، التي أنتم متسمون بها ، والتي عهدناها فيكم حتى الآن ، فعند وصول الخطاب إلى سيادتكم إن شاء الله تعالى واطلاعكم عليه ننتظر أن تتكرموا ببذل همتكم في العمل بما جاء فيه .

ترجمة حسين حسني إبراهيم

ملحق (٢)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : دفتر (١) معية تركي ، ص ٦ .

رقمها في وحدة الحفظ : ٤ .

تاريخها : أواخر ذي الحجة ١٢٢٢ هـ ـ فبراير ١٨٠٨ م .

موضوعها : اعتذار محمد علي عن عدم قيامه بحرب الدولة السعودية وشرحه للظروف التي أدت إلى اعتذاره .

صورة العريضة المحتوية على : إنه وإن لم يمكن الذهاب إلى الحجاز في هذه السنة المباركة بناء على بعض المحاذير فستكون حركة ولي النعم في السنة الآتية بمنه تعالى .

أحيل إلى عهدة عبدكم ، تصفية الحرمين ، (....) ، بموجب الهمايونية التي هي بالشوكة مقرونة ، فسمعا وطاعة ، وليس لي جواب غير مؤدى « سمعنا » ، ومن الجلي أني عبدكم ، عبد الدولة العلية ومملوكها ، تصدر الحكم في حق هذا العبد كيفما تختار وتريد ، بيد أن وقعة الحرمين هذه ليست من المواد التي تخرج إلى حيز الوجود ، بمثل هذه الأدنى وحده بل هي مادة جسيمة ، تحتاج إلى إمداد السلطان ملجأ العالم ، بإرسال مبلغ عشرة آلاف كيسة نقدية ، والمهمات الوافية ، وحيث أني أصبحت مثقل الكاهل بديون كثيرة سواء كانت من جهة ، أن بعض أراضي مصر بقيت شراقي غير مرتوية ، من قلة الفيض في ماء النيل الذي هو الحياة للأقاليم المصرية ، في هذه السنة المباركة ، أو من جهة فتح الاسكندرية أو

من جهة مبالغ كثيرة تعهدت بها من باقي ديون سلفي خورشيد أحمد باشا ، ومن عدم وصول بارة واحدة إلى يدي من حاصلات الصعيد ، من أجل أن أقاليم الصعيد بيد المماليك ، وأن الدولة الهمايونية بناء على انشغالها بالحرب ، الحالة هذه أصبحت الأقاليم مطامح - أنظار جميع دول النصارى ، فأقرب الاحتمال وأجدره بالملاحظة ، احتمال أن يتسلط أعداء الدين على السواحل المصرية فيما إذا أرسلت العساكر الموجودين بمعية عبدكم إلى الحجاز لم يمكن زحفي وسفري في هذه السنة إلى ذلك الصوب المبارك ، بسبب هذه الموانع ، فإلى السنة الآتية أتخلص بإذن الله تعالى من ديوني ، التي استغرقتني ، وتفرغ مادة الحرب الهمايونية في قالب فعقب اندفاع هذين المانعين القويين ، لا جرم أتوجه نحو الجانب المذكور بالنفس بترتيبات قوية ، وتداركات وافية جهد طاقة هذا العاجز ، متوكلاً على الله مع الاستعداد بإمداد السلطان وقوته ، وتحت رعاية حضرة السلطان وظله الظليل ، فالله سبحانه المسؤول ، أم يجعل توفيقاته العلية والهمة القلبية السلطانية ، مرافقة لهذا العبد العاجز ، فها هي الموانع التي حالت دون عزمي على السفر في هذه السنة حسبما ذكرت بوجوهها ، وأنا من الآن جار على ترتيب ثلاثة أو أربعة آلاف من العساكر ، وعلى استعداد إرسالهم إلى جدة ، وتلك الحوالى بطريق البويس بحراً بستوفي الذخائر والمهمات وكامل للعدة والأدوات . وإن لم أتمكن من السفر لمجرد تلك المحاذير المسرودة .

هذه الترجمة طبق أصلها التركي

(محمد زهدي)

أواخر ذي الحجة سنة ١٢٢٢ هـ - تقريباً فبراير ١٨٠٨ م .

ملحق (٣)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : دفتر (١) معية تركي ، ص ٩ .

رقمها في وحدة الحفظ : (٧) .

تاريخها : ١١ محرم ١٢٢٣ هـ ـ ٩ مارس ١٨٠٨ م .

موضوعها : محمد علي يظهر عجزه عن القيام بحرب الدولة السعودية بمفرده ، وتخوفه من استغلال القوى الخارجية لفرصة غيابه عن مصر والاستيلاء عليها .

صورة القائمة[1] المحررة من طرف ولي النعم المشعرة بطلب تحرير من الصدر الأعظم ، يؤمن على عدم وقوع تسلط على مصر من طرف دول النصارى ، حين الذهاب إلى الحجاز ، حسب لزوم الاحتراز منهم أيضاً ، وطلب سند التعهد لفتح الحجاز .

سر عبدكم كمال السرور ، ما حضر به عبدكم صاحب السعادة عبد الكريم آغا من أغوات القصر السلطاني (مابين همايون) من الخطوط الشريفة ، والعطايا السنية الملوكية ، ومن الظاهر المستبين أني أفدي برأسي وروحي في سبيل المرضاة العلية ، مواظباً على الدعوات الخيرية ، لمولانا السلطان ، صاحب الشوكة ،

---

(١) القائمة : نوع من المحررات يكتب على ورق مستطيل في اصطلاح ذلك العهد كما يستفاد من القاموس التركي للعلامة شمس الدين سامي بك . وفي أقرب الموارد « القائمة : الورقة المكتوبة » .

مادمت في الحياة ـ أحسن الله تعالى بالتوفيق والسلامة آمين ـ وقد وقع التفضل بتفويض تصفية الحرمين الشريفين من يد (...) لعهدة هذا العبد بالإرادة السلطانية ، وفي أمركم العالي الخاص الوارد في هذه المرة مع عبيدكم موظفي البريد المزدوج ، قد بسط وبين تقرير مصطفى أفندي ، كتخدا داعيكم صاحب السماحة ، عارف بك أفندي ، نجل خليل حميد باشا ، وأحاط عبدكم علماً بما حواه من طلب سند فيه للتعهد بهذه الخدمة الدينية ، مختوم عليه من جانب عبدكم ، وبما احتوى عليه من التكفل والتعهد من قبل الجانب العالي النصاب ، بإسعاف جميع مسؤولات هذا العاجز في هذا الشأن ، كما هو مستغن عن البيان ، وحصل أيضاً الاطلاع على ماتضمنته الإرادة العلية السلطانية ، فسمعنا وأطعنا والله يعلم ، وسادتنا أولياء النعم لا يخفى عليهم أيضاً ، أن عبدكم عبد طائع ومملوك خاضع ، لسلطاني ومولاي صاحب القدرة والمهابة ، فعلى تقرير الكتخدا المومى إليه ، يؤمل أن تقترن كافة المصالح السلطانية بالنظام ، والانتظام ، وها هو قد دخل تحت الطاعة نصف طائفة المماليك ، وأما النصف الآخر فعلى وشك المتابعة والمطاوعة في هذه الأيام ، وأصبح اندفاع غوائلهم جميعاً بالقوة القريبة من الفعل ، وأتخلص من ديوني إن شاء الله تعالى بفتح إقليم الصعيد ، تحت ظلال رعاية السلطان وكلاءته ، لكن مثل هذا العدو القوي (...) الذي استولى على إقليم الحجاز من عشرين سنة ، وزاد تمكناً واستقراراً سنة فسنة ، ودام على ضبط ولايات باستمرار لاتندفع أضراره بزحف عبدكم بجيشه من طرف مصر فقط إلى مكة والمدينة اندفاعاً كلياً ، بل يلزم لذلك أن يجرد جيش من طرف الشام ، وعكا ، وبغداد ، فإذا وقع زحفنا هكذا إلى مكة والمدينة ، وقمنا بحملة واحدة بمخابرة بعضنا مع بعض ، يصبح تنظيم المصلحة وإنتاجها أسهل ، باعتبار جميع الوجوه ، ولا يكون دفع (...) المرقوم وإزالته من مكة والمدينة فقط ، بل من موطنه الأصلي أيضاً ، كما هو واضح جلي ، على أنه بالنظر إلى عدم انعقاد المصالحة مع دول النصارى ، لحد الآن ، وكون إقليم مصر مطمح أنظار جميعهم ،

لاتكفي العساكر الموجودة بمعية هذا الخادم المطيع لمصر ، والزحف بجيش جسيم على (...) في آن واحد ، فإذا حصل التفضل بإصدار أمر عال يؤمن على أن المذكورين لا يتسلطون ، في هذا الباب ، بحيث يوجب طمأنينة بال عبدكم ، مع إرسال مايحتاج إليه من الأشياء اللازمة ، وأزحف إلى جانب الإقليم المبارك في السنة الآتية ، وأسعى جهد الطاقة وأجتهد اجتهاد المستميت قولاً وفعلاً وقلباً وقالباً ، في إزالة العدو المذكور ، وأدعو الله عز وجل ، أن يوفق عبدكم ، لتتميم هذه المصلحة الخيرية أيضاً وإنجازها بإمداد روحانية رسول الله ﷺ ، وبقوة يمن طالع مولاي السلطان إن شاء الله تعالى . وقد حررت هذه العريضة من خادمكم المطيع بياناً لذلك ورفعت إلى حضور دولتكم صحبة الآغا المومى إليه عند إيابه وعودته ، وإن كان من الجلي المستبين أن ماأحاذره سوى الديون التي استغرقتني لأجل تسخير قلعة الإسكندرية ، هو ملاحظة تسلط دول النصارى على إقليم باب الحرمين والاحتراز منه ، فعند تشرفنا بوصول عريضتنا بإذن الله تعالى إلى المقام العالي ، ولدى انعقاد المصالحة وورود مايحتاج إليه من الأشياء المذكورة المسرودة في الدفتر ، أزحف مع الجيش بالنفس في السنة الآتية ، وحينما أحيط علماً بمبلغ جهدي وغيرتي وإصراري في شأن هذه المصلحة الخيرية ، وبأفكاري وأذكاري في ليلي ونهاري من تقرير عبدكم عبد الكريم المومى إليه .

في ١١ محرم سنة ١٢٢٣ هـ - ٩ مارس ١٨٠٨ م .

هذه الترجمة أصلها التركي

(محمد زهدي الكوثري)

ملحق (٤)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : دفتر (١) معية تركي ، ص ١٢ ـ ١٣ .

رقمها في وحدة الحفظ : (٨) .

تاريخها : ١١ محرم ١٢٢٣ هـ ـ ٩ مارس ١٨٠٨ م .

موضوعها : طلبات محمد علي ، من الدولة العثمانية ، اللازمة لتجهيز الحملة .

صورة القائمة الموضوعة على الدفتر المقيد في الذيل :

إن الأشياء المذكورة ، المسطورة في الدفتر المقدم إلى موطئ أقدام الدولة الأبدية المدة ، مطوياً داخل عريضة هذا الخادم المطيع ، ضرورية الورود من الدولة العلية ، على كل حال ، كما تقضي بذلك الحاجة ، لأنها على تقدير إجراء ابتياعها من هنا ، يكون ابتياع كل ذراع من الجوخ بخمسة وعشرين قرشاً اليوم ، بسبب أسفار الدول الحربية الجارية ولا تكاد توجد أصلاً الأشياء المذكورة في الدفتر من الأجناس وغيرها ، على تقدير عدم إجراء المصالحة معهم من الآن فصاعداً ، أما ماأحتاج إلى تجهيزه من المصروفات من هنا ، فما يوجد بمعية خادمكم المطيع من العساكر البالغ عددهم عشرة آلاف جندي ، لأجل الحركة ، والقيام على (...) ، حيث أن ما ينوف على النصف منهم فرسان خيالة ، يزيد عدد المستخدمين السواس والجمالين وعكا[1] الجيش وسقاتهم على ثلاثين ألف شخص ، وأجرة مصروفات ستة آلاف جمل ، لنقل مايحتاج إليه من المؤن

---

(١) هكذا في الأصل (عبد الرحيم) .

لطعـامهم اليومي ، لكل يوم ، وثمن مـأتى أردب من الغلال ، لستـة أشهر في المحل المبـارك ، وثمن أربعمائـة ألف أردب من الغـلال لسنـة بـالمحـل المـذكـور ، وأجرة مهـاري ، لنقلهـا براً إلى مرفـأي القصير والسـويس ، ومصروفـات السفن أيضـاً إرسالها إلى ينبع وجدة ، والعطايـا الضخمـة لأغوات الـداخل والخـارج ، وسـائر الرجال الأميرية ، وعلوفات عساكرنا ، ومعيناتهم على حساب مائـة وخمسين ألف خرج[1] ، ومصروفات عمارة خمسة قلاع ، لوضع الذخـائر فيهـا ، إلى أن تصل من مصر إلى الحجاز ، والصرر والعطايا على المعتاد القديم لطائفة العربـان الواقعـة في الطريق ، ولأهالي مكة والمدينة ، ولحضرة شريف مكـة ، والصرر فوق المعتـاد ، لجلب قلوب العربان ، بإعطائها على حسب الاقتضاء أحياناً والحـاصل أن إعطـاء هذه المصروفات يحتاج إلى خمسة وثلاثين ألف كيسة نقـديـة ، أو إلى أربعين ألف كيسة نقدية ، وتصرف هذه المبالغ خدمة لـديننـا ودولتنـا ، بنـاء على أنهـا تكون سبباً لإنجاز المصلحة الخيرية ، ومع ذلك قد بقيت الأقـاليم شراقي من قلـة المـاء في هذه السنة المباركة .

---

(١) الخرج : يوازي عشر التذكرة من العينات . كان مصطلحاً عليه قبل ربط العسـاكر بـالرواتب (المترجم : محمد زهدي الكوثري) .

ملحق (١٤)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : دفتر (١) معية تركي ، ص ١٧٢ .

رقمها في وحدة الحفظ : (٧٢) .

تاريخها :غرة رمضان ١٢٢٦ هـ(*) ـ ١٩ سبتمبر ١٨١١ م .

موضوعها : الإشعار عن سفر جملة طوسون .

صورة القائمة المحررة إشعاراً عن خبر حركة مولانا صاحب الدولة طوسون أحمد باشا من بركة الحج مع جيشه .

وكان أنهى سابقاً إلى الباب العالي ، وعرض إركاب العساكر في ثلاث وستين سفينة ، وإرسالهم بحراً إلى الحجاز ، تحت قيادة الأغوات ، رؤساء البوابين (الحجاب)(**) المستخدمين بمعية هذا الخادم المطيع : بترتيبهم على قسمين ، مع التنبيه لقائدي هذين القسمين ، بإيصال القسم الأول منها توآ إلى مرفأ ينبع ، وإمرار القسم الآخر بمرفأي مويلح والوجه (وش) ، وإبقاء المقدار الكافي من العساكر والذخائر فيها ، ثم الذهاب بالباقي إلى ينبع أيضاً ، وبسائر ما يلزم من التعليمات وإن ولدي عبدكم الحاج طوسون أحمد باشا . يرحل إلى جهة مأموريته

(*) في الأصل غرة رمضان سنة ١٢٢٨ وصوابه سنة ١٢٢٦ كما يظهر من المحررات السابقة واللاحقة (المترجم) .

(**) يعني الحائزين لرتبة رياسة البوابين (المترجم) .

مع جيشه ،عقب انتهاء تجهيز ما رتب من الزاد والذخيرة للمحلين المدعوين نخيلة والعقبة ، والواقعين في الطريق المستقيم براً .

فها هو قد أرسل عبدكم الباشا المومى إليه أيضاً ، يوم الخميس غرة شهر رمضان الشريف الحالي براً إلى الجهة الباهرة السعادة ، بترحيله من بركة الحج تام العدد مستكمل التجهيزات ، ومعه من العساكر المنتخبين ثلاثة آلاف فارس من أصحاب السيوف والأسنة ، فالله سبحانه مَنّ عليهم بالتوفيق والسلامة . وأوحى للقائد العام على هؤلاء العساكر (سر عسكر) عبدكم الباشا المومى إليه ، باتخاذ طور يستلزمه ما يتخذ من التدبير والحركة ، حسبما تقضي به المصلحة لدى وصول جيشه إلى حوالي ينبع في عهد قريب إن شاء الله تعالى ، واجتماع الجيوش البحرية والبرية هناك ، كما وقع الإيماء إلى ذلك في عريضتي السابقة ، وزود أيضاً حضرات مفتي المذاهب الأربعة ونجل المحروقي الذين هم بمعية الباشا المومى إليه ، مأمورين بالسعي في استجلاب قلوب قبائل العربان والعشائر الموجودين بإقليم الحجاز ، بما يلزم تزويدهم من التعليمات ، وحيث أن الجيوش المذكورة في غاية من التمام والكمال والمتانة من جميع النواحي ، كما لو كان وقع الزحف من الشام وبغداد ، ماشاء الله ، ثم ماشاء الله ، ندعو الله خير الحافظين أن يحفظهم من إصابة العين ، وسوء النظر ، ويمن عليهم بتوفيقاته الجليلة آمين .

فيا مولاي عالي الهمم ، إني حيث أؤمل وآمل من عنايات حضرة واهب العطايا ، موقناً من غير أدنى اشتباه ، أن نوفق إن شاء الله تعالى ، إلى استجلاب الدعوات الخيرية لسلطنة حضرة ملك الملوك ، ولدوام جاه ولي النعم ، وجلاله في هذه السنة المباركة ، من الحجاج ذوي الابتهاج ، حال اصطفافهم قياماً بجبل عرفات ، معدن المغفرة والبركات ، وقع تحرير هذه العريضة عبدكم الشاكر على نعمكم ، والمثني عليكم ، وتقديمها في هذه المرة أيضاً إلى تراب أقدام حضرة المتفضل

بإسعاف مقاصد الراجين ، تبشيراً بذلك ، وطلباً لـدعواتكم السنيـة ، والتفضل بما أحتاج إليه من توجيهاتكم السنية المستوجبـة للتوفيق في حق هـذا الخـادم عنـدمـا أحاط علم حضرة عالي الهمم بمنه تعالى بكيفية الحال .. » .

في غرة رمضان ١٢٢٦ هـ ـ ١٩ سبتمبر ١٨١١ م .

هذه الترجمة طبق أصلها التركي

محمد زهدي

ملحق (٢٢)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : محفظة (١٦) بحراً براً .

رقمها في وحدة الحفظ : (١٢٢) .

تاريخها : بدون تاريخ .

موضوعها : العريضة العربية العبارة ، المقدمة من طرف عبد الله ابن سعود ، إلى طرف الدولة العلية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل للداء العضال دواء ، وحسم وألغى نيات الاعداء السيئة بالصلح والصلاح اللذين كانا أول مانع من الوقوع في المهالك المهلكة ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وأصفيائه محمد خاتم أنبيائه ، الذي بلغ أحسن أنبائه وعلى آله وأصحابه والتابعين وبعد :

فباني أطوف حول كعبة آمال العبيد التي هي أعتاب دولة قطب دائرة الوجود ، وروح جسد العالم الموجود ، وملاذ الحاضر والبادي ، ومحط رحال آمال الرائح والغادي ، علم الأعلام ، إنسان عين أعيان الأنام ، من نام في ظل عدله كل خائف ، ولجأ إلى حماه كل عاقل عارف ، ذي الأخلاق التي هي أرق من نسيم الصبا ، مع الهيبة التي تحل من أجلها الحبا سلطان البرين ، وخاقان البحرين ، الذي برز بطلعته طالع السعود ، السلطان بن السلطان السيد السلطان محمود

الغازي ، وأقدم عريضتي هذه المشتملة على الضراعة ، وهي إنه لما كان داعيكم هـذا من المسلمين الـذين لا ينفكـون عن أداء شروط الإسـلام ، التي هي إعـلان كلمـة الشهـادة ، وإقـام الصـلاة ، وإيتـاء الـزكاة ، وصيـام رمضـان ، وحـج بيت الله الحرام ، ومنع الظلمـة من الإضرار بـالنـاس ، وكف أيـديهم ، والحث والحض على تـأديـة الـواجبـات التي هي حقـوق الله تعـالى ، ومفروضـاتـه فـوفقـاً لـلأوامر الشـاهـانيـة ، نمنع الظـالم المخيف ، ونضع يـد الإسعـاف والمعـونـة في يـد المظلـوم والضعيف ، ونرد النفوس الأمـارة عن اتبـاع أهوائهـا ، ونسوقهـا ونقتـادهـا ، إلى المنهج الشرعي الشريف ، ولـذلـك فقـد حسـد حضرة الشريف داعيكم هـذا ، من عـدوانـه لـه ، ورمـاه بسهـام الافتراء ، وجمـع وحشـد عسـاكره بمظـاهرة البـدو والحضريين لقتالنا ، ولكن لما كان قتاله لنا ظلمـاً وافتراءً ، وقتـالنـا دفعـاً للشرور والبلوى ، عـاد مخـذولاً بصفـة خـاسرة ، ومع ذلـك صرت أحـج كل عـام كسـائر المسلمين ، ومع كـوني لم أحـدث حـدثـاً في الحرمين المحترمين ، تشبث المشـار إليـه بأذيال الخدعة والحيلة ، وادعى بأن الحجاج الواردين من قبل الدولـة العليـة ، لم يكن لهم غرض إلا السعي في الفســاد ، وقتـل النفـوس في الحرمين الشريفين ، وخـدع والـدي وأغراه بزخرف الأقوال ، لمنع الحجـاج وإرجـاعهم ، وحجز عنـده العرائض ، التي قدمها والدي إلى الأعتاب العلية ، عن هذا الخصوص ، بحجـة أنـه سيرسلهـا بواسطتـه ، وكتب عرائض أخرى مـزورة على لسـان والـدي ، مخـالفـة للعرائض الأولى ، وقدمها إلى الباب العالي ، كما تحقق ذلك وتبين فيما بعـد ـ وإنـه وإن كان رأى ثمرة سوء أفعاله ، تصـديقـاً لقولـه تعـالى ﴿ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ، ولكننا لم نتدخل في شؤون البنادر الموجودة تحت يده ، ولم نجز الفسـاد الذي سعى فيه بين رعايـا الـدولـة العليـة ، وإنما وافقنـاه على إرجـاعـه حجـاج المسلمين برأيـه الخـاص ، مجـاراة لـه ، ومن الواضح أننـا لا نجرؤ على منـع حجـاج المسلمين أصلاً ، لكونهم مستظلين بظل سطوة حمايتكم الشاهانية ، ولما كان حجـاج المسلمين رحمة عامة لكافة البلاد والعباد ، وروافض الأعجام طـامـة وأي طـامـة ،

فالمشهور عنا أننا لانتدخل ، ولا نتعرض بأي وجه كان ، لمرور حجاج روافض الأعجام ، وعبورهم في كل عام ، من حوالينا ، وعلى العموم فإن كل مانسب إلى داعيكم هذا ، من أمور الطغيان والخوارج كلها ناشئ عن خدعة الشريف المشار إليه ، ودسيسته ، وقد كتم ، وأذكر مابذلنا له من الحسنات ، وحرض الناس علينا ، ودعاهم إلى قتالنا بدون علمنا بذلك ، وفي النهاية جنّد الجند ووصل الأمر إلى مثابة إهلاك الحرث في أرض الغور والنجد ، وقد شمر حضرة صاحب الدولة الوزير الحاج محمد علي باشا والي مصر الحالي ، الموصوف بالجلادة عن ساعد الاهتمام والإقدام ، وأحال سيف الحرب والانتقام على العربان المحتشدين بالحرمين الشريفين ، وفي سائر الأقطار الحجازية فأرسل نجله المحترم ، والي جدة الوزير المكرم ، صاحب الدولة طوسون أحمد باشا ، مع الجيش الخديوي المظفر ، الذي سقى الأعداء سم العدم ، إلى موضع يسمى القصيم ، فلما وصل الوزير المشار إليه إلى الموضع المذكور ، ونصب فيه الخيام ، واتخذه مقراً للحرب والجدال ، وعُدّ داعي هذا من ضمن الذين عصوا الدولة العلية ، وأوقد نار الحرب ضدنا ، أوضحنا لدولته كيفية أحوالنا ، وعرضنا اعتقادنا الصحيح ، إلى حضرة والده العالي المشار إليه ، والتمسنا الأمان من ذاته العلية ، صيانة لروح داعيكم هذا ، وأرواح قومنا وقبيلتنا ، وسائر من بجوارنا على أن نعلن الإطاعة للدولة العلية من الآن ونتبرأ من الذين اجتمعوا على تفريق الجماعة ، ورغبت في الصلح والصلاح ، وبادرت بها بحسب ما يجب على ذمة إخلاصي الذي تقتضيه حقوق الرعية ، وقدمت عريضتي هذه التي هي أشهر من المثل السائر . مصدقاً لصداقتي على أن لاأنفك عن قيد الإطاعة . وأن أعد من رجالكم القائمين بجميع خدمات الدولة العلية ، فهي برهان قاطع يشهد بأني قائم بالدعوات في الأعياد والمحافل ، وعلى المنابر بدوام عمركم ودولتكم ، وحينما يحاط علم مراحمكم بما ذكر أن تتفضلوا بالسماح والتجاوز عن جرائم داعيكم ـ هذا وذلاته السابقة واللاحقة ، ومحوها بالصفح الجميل عملاً بقوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ . وذلك بمقتضى حلمكم

ومرحمتكم وشفقتكم اللتين هما ظل ظليل لأمن كل خائف وأمانه ، وهم شوكتكم وصلابتكم الملوكيتين القويتين اللتين هما فاحتان لجلامد الصم ، والأمر والإرادة لحضرة من له الأمر .

ختم دائري ، الواثق بالله المعبود عبد الله بن سعود ، تحية عبد الله بن سعود .

ملحق (٢٣)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : محفظة (٤) بحرأ برأ .

رقمها في وحدة الحفظ : (٣٣) .

تاريخها : بدون تاريخ .

موضوعها : رسالة عربية الأصل ، من عبد الله بن سعود ، إلى محمد علي باشا .

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد علي باشا ،

نحمدك اللهم على مامنيت به من الإصلاح ، بالصلح الحاقن لدماء المسلمين عن السفك بالسلاح ، وحميت به حمى الدولة الإسلامية ، عن الوقوع في إشراك البلية ، وكففت به أكف الأمة المحمدية ، عن بلوغ العدو فيها غاية الأمنية ، ونصلي ونسلم على أشرف الرسل الهادي لأحسن السبل ، محمد أكرم أنبيائه ، وأفضل أصفيائه ، وعلى آله الكرام وأصحابه هداة الأنام ، ثم ينتهي لحضرة الجناب العالي الدائم في طلب المعالي ، عزيز عصره ، وبدر دهره بلغه الله من المعالي ماشاء ، ذو الهمة العلية ، والأخلاق المرضية ، حرسه من طوارق البلا ، وبلغه ماأراد ، من الرتب العلا ، وبعد : فغير خاف على جنابكم ، حقيقة ، مانحن عليه ، وما ندعو الناس إليه ، إننا جاهدنا الأعراب ، حتى أقاموا الصلاة وآتوا

(*) نرجح أن تاريخ هذه الرسالة عام ١٢٣١ هـ ـ ١٨١٥ م ، (المؤلف) .

الزكاة ، وألزمناهم صيام رمضان ، وحج بيت الله الحرام ، ومنعناهم عن ظلم العباد ، والسعي في الأرض بالفساد ، وعن قطع سبل المسلمين ، والتعرض لحجاج بيت الله الحرام من الوافدين ، فعند ذلك شكوا إلي ، والي مكة غالب ، ورمونا بالكذب والبهتان ، وخرجونا ، وبدعونا ، وقالوا فينا ما نحن منه براء ، فسيَّر علينا بأجناد وعدد وعدة فأعجزه الله وله الحمد والمنة ، فقاتلناه دفعاً لشره ، ومقابلة لفعله القبيح ، ومكره فرده الله بغيظه ، لم ينل خيراً واستولينا على الحرمين الشريفين ، وجدة وينبع ، فلما تمكنا من أوطانه فعلنا معه كل جميل ، وأقريناه على ما كان تحت يده من البلدان ، ووجهنا مدخول البنادر إليه ، وأكرمناه غاية الإكرام ، توقيراً للنسب الشريف ، وتعظيماً للبلد الحرام ، ثم بعد ذلك قام وقعد ، وأكثر التقلب واجتهد ، وبالغ عند أبي رحمه الله في رد الحجاج القادمين من جهتكم ، وزعم أنهم إن قدموا مكة شرفها الله سفكوا فيها الدماء ، واستحلوا حرمتها ، وأكثر القول فيهم ، حتى قال : إنهم أهل غدر وخيانة فظن أبي ذلك نصيحة منه ، فمنع الحجاج خوف الفساد والفتن ، وكتب للدولة إذ ذاك كتباً مضمونها أننا لم نمنع الحجاج القادمين من تلك الجهات ، إلا لأجل ذلك ، فإن جانا من الدولة خبر تعتمده أن الحجاج القادمين يحجون البيت الحرام ، ويزورون المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام من غير أن يحدثوا حدثاً تستباح به حرمة الحرمين الشريفين ، فنحن نحميهم عن جميع من تحت يدنا من جميع حاضر وباد ، حتى يحجوا ويرجعوا إلى أوطانهم ، ثم إن الشريف طلب من أبي رحمه الله أن يتولى إرسال تلك الكتب التي هذا مضمونها ، إلى الدولة فأجابه لكونه أعرف منا بتلك الجهة ، ثم إننا تحققنا أن ذلك مكر منه بنا ، لأنه أظهر للدولة عنا غير ذلك ، وصار يكتب لهم على لسان أبي ما يورث العداوة والإحن بيننا وبين الدولة من الكذب والبهتان ، ويمهر تلك الكتب التي زورها بمهر قد نقشه باسم سعود ، ويحبس ما كتبه أبي عنده ، وقصده بذلك إثارة الفتن ، واضطرام نار الحرب ، ونحن لا نشعر بشيء من مكره حتى ثار الحرب

بيننا وبينكم ، وأحاط به سوء فعله ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ـ فعلمنا أن مطلوب الدولة العلية صيانة المالك الإسلامية ، لا سيا الأقطار الحجازية ، ومن أعظمها صيانة الحرمين الشريفين ، والذب عن حماها الأحمى بلا ريب ولا مين ، والقيام للدولة على قدم السمع والطاعة والإقدام ، على إظهار المشعر بها ، حسب الاستطاعة ومنها الدعا بحضرة سلطان السلاطين نصره الله تعالى ، على المنابر ، وكف يد الأذى عن الوارد إلى المالك المحروسة والصادر ، فأطفأنا من نار الشر حريقاً ، وفتحنا إلى الصلح طريقاً ، ولم نزل نجتهد في إبرامه ، حتى انعقد بين الفريقين ، وبذلنا الوسع في حقن الدماء من الجانبين ، وصورة ماوقع عليه انعقاد الصلح من الشروط ، محرر في الوثيقة مضبوط ، فبوصولها إليكم تشرفون على إجمالها ، وتفصيلها ، ونرجو أنكم تستحسنون مواقع تأسيسها وتأصيلها ، وتشرفون على كتابنا المعروض على حضرة السلطان ولكم الأمر بعد الله في جميع هذا الشأن ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

عبد الله بن سعود

ختم دائري

الواثق بالله المعبود عبد الله بن سعود

ملحق (٢٤)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : محفظة (٤) بحراً براً .

رقمها في وحدة الحفظ : (٩) .

تاريخها : ٢٩ صفر دون ذكر سنة .

موضوعها : رسالة عربية الأصل ، من عبد الله بن سعود ، إلى محمد علي .

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد علي باشا :

حمداً لمن أحمى غراس المواصلة ، بوابل هنان المكاتبة والمراسلة ، وأماط به مادة المقاطعة والمفاصلة . والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف من أرسله وعلى آله وصحبه ، الذين بلغوا من صحبته ومحبته غاية المنزلة ، إلى من شرفت به الدولة المرعية والرتب العلية حتى صار ملهج لسانها ، فحل من عينها مكان إنسانها فريد مصره ، ووحيد قطره ، بعد التسليمات الوافرة ، والتحيات المتكاثرة ، ننهي إليكم أدام الله سبحانه سوابغ نعمه عليكم ، أنه قد وصل إلينا كتابكم وفهمنا ماتضمنه خطابكم ، فوقفنا على معانيه ، وعرفنا المصرح به ، والمشار إليه فيه ، وما ذكرتم من القبول ، لما انبرم من أمر الصلح إن كان ماقلنا حقاً ، وما حررناه محكماً وصدقاً ، فنحن بحمد الله للمكر والخديعة مجانبون ، وللصدق والوفاء بالعهد معاملون ، وليست الخديعة والمكر من شيم الكريم الحر ، والصدق قد تقرر من سيرتنا عند البعدا ، والفضل ماشهدت به الأعداء ، وليس

عندنا لكم إلا الصدق والوفاء ، فيما ظهر وخفي فلكم منا العهد والميثاق ، إننا لما جرى بيننا وبينكم ملتزمون ، ولأمر المعاقدة محققون ، فالواجب منكم مراعاة العهد بالتزام أحكام الحق ، وإيثار الرفق ، لما في ذلك من الصلاح الشامل ، والخير العاجل والآجل ومثلك وفقك الله ممن يستغني بإشارة التذكرة ، ويكتفي بلمحة التبصرة ، لما تأوي إليه من السياسة والتجربة ، وما أشرتم إليه من حروبنا السابقة مع أهل الحجاز وغيرهم ، فلم نقاتل أحداً منهم ابتداء ، بل هم بدءوا بالقتال بغياً وعدواناً ، فقاتلناهم دفعاً لشرهم ، فجعل الله لنا عليهم سلطاناً ، ولم نقابلهم بما جرى منهم إلا إحساناً ، فلما كانت لنا القدرة عليهم ، أمرناهم بإقامة شرائع الإسلام ، والتزام سائر الأحكام ، من عبادة الله وحده لاشريك له ، وإقامة الصلوات الخمس ، وصوم شهر رمضان ، وحج بيت الله الحرام ، فانحسم بذلك مواذ شرهم وفسادهم ، لأن أكثرهم مفسدون في الأرض مضيعون لما أمر به الله من الواجب والفرض ، بل أكثرهم للطرق قاطعون ، وجملتهم للعبث مفكرون ، يقولون ماقاله سلفهم الأولون ، ماهي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون ، فلما كانت لنا القدرة عليهم وجب علينا أن نحملهم على الشرع الشريف ، عملاً بقوله سبحانه : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض ، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ وبقوله ﷺ فيما صح عنه وثبت « من رأى منكراً فليغيره بيده فمن لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » ، ولأننا نعلم علماً قطعياً أن السلطان لا يرضى منهم بذلك ، ولا يأمر بدخولهم تلك المسالك ، وأما ماأشرتم إليه من اهتمامكم بالحرمين الشريفين وسعيكم في مصالحهما ، فهذا أمر قد تحققناه من سيرتكم ، وعرفناه من طريقتكم ، ونحن إن شاء الله نلتزم لكم بذلك ، فنكف عنهم الأذى مااستطعنا ، ونوصل من الأقوات إليهم ماقدرنا ، ونمنع حجاجكم من أرادهم بسوء ومكروه أو حام حماهم بأمر لاترضوه ، ولو كان الحرمان الشريفان من أعوانكم خالية ، ومن عسكركم صافية ، لم يأتهم منا

ماتكرهون ، ولم يقع منا ماتحذرون ، فنم من طرفنا قرير العين والقلب ، طيب الخاطر واللب ، فنحن إن شاء الله في طاعة الله ورسوله يداً واحدة ، على من سوانا معتصمون بحبل الله ، على من عادانا ، وفي الحقيقة ماتحت يدنا من الجيوش والأعوان ، عسكر لكم وفي خدمتكم ، بلا ديوان أن نسأل الله العظيم أن يجمعنا وإياكم على طاعته ، ويدخلنا دار كرامته ، ويعمر بالسؤدد ربعك ، ويوسع لحمل أثقال المعالي ذرعك ، وصلى الله وملائكته وأنبيائه ورسله على أشرف خلقه وخيرته من بريته ، محمد وعلى آله وصحبه تسليماً كثيراً .

حرر في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر (بدون ذكر سنة) .

ختم دائري

الواثق بالله المعبود عبد الله بن سعود ـ تحية عبد الله بن سعود .

ملحق (٢٠)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : محفظة (٥) بحراً براً .

رقمها في وحدة الحفظ : (١٨٦) .

تاريخها : ١٧ ربيع الأول ١٢٣٣ هـ ـ ٢٥ يناير ١٨١٨ م .

موضوعها : ترجمة الكتاب التركي المرسل من إبراهيم باشا إلى الجناب العالي مفصلاً لمعركة الشقراء ، ومبشراً بفتحها .

صاحب الدولة والرحمة ، مولاي ولي نعمتي :

أدعوا الله الذي لا يسأل عما يفعل ، أن يديم أيامكم ، ويطيل عمركم وإقبالكم ، وأن يجعل ظلكم السامي فيئاً دائماً ـ مؤيداً لمفرق عبدكم العديم الرياء ، موفقاً إياه إلى مافيه استدرار رضاكم المرضي من موافق الأعمال ، آمين .

وبعد ـ فيعرض عبدكم الدائم الولاء ، أنه بتاريخ إحدى عشر ربيع الأول الجاري ، قد حوصرت « قلعة الشقراء » ، وشرع في محاربة الوهابيين الذين في الأسوار ، وفي نحو العشرين برجاً ، المبنية جميعها حول الجوانب الأربعة للحدائق التي بخارج القلعة ، واستمر القتال بالمدافع والبنادق يوماً وليلة ، فهدم محل في السور ، ولم يتنفس الصبح إلا وقد أمر عبيدكم عساكر الموحدين . فخرجوا من متاريسهم منقضين على من كان في البروج ، وفي خلال الحدائق من الطائفة فمزقوهم وهزموهم بعناية الله تعالى ، ونفحات ولي النعم الطاهرة ، واستولوا على

أسـوارهم وبروجهم قـاتلين منهم عـدداً كبيراً ، ثم هجم على المتحصنين في السـور الآخر المنشأ تجاه نفس القلعة الأصلية التي بالمدينـة المـذكورة ، وفي عـدة الأبراج التي فيها ، فتم أيضاً بإذن الله تعـالى فتح هـذا السور ، وتسخير أبراجـه ، كما وضع سيف القتل والعقاب في عـدد من الرقـاب ، وعلى الفور قربت المدافع من جـدار القلعة ، بحيث صارت منه قيد ذراع ، واستمر القـذف والرمي ثلاثـة أيـام وثلاث ليال حتى تهدم شطر من السور ، وأسفر عن البيوت نفسها ظاهرة متكشفة ، فلما تقوضت منـازل وخربت ، وانصرم حبـل رجائهم في النجـاة ضجـوا بـالعـويـل والاستغاثة ، أن « الأمان ياإبراهيم » ارحم عيالنا ، واعف عما بـدا من تقصيرنـا ، هكذا التمسوا الأمان ، وجاء نفر من ذوي الكلمة المسموعة عن شيوخهم ، إلى مكان عبدكم فآمنتهم على شرط أن يقـدموا مـدافعهم الخمسـة التي في القلعـة ، وأن يسلموا كافـة الأسلحـة التي يحملهـا أربعمائـة مقـاتل من أعـوان عبـد الله ، الـذين جـاءوا لإمدادهم ، وعلى أن يعـاهـدوا أن يبيعوا لجنودي مـاهو عنـدهم من ميرة على هـذه الشروط ، منحوا الأمان فـأخـذ سلاحهم غنيمـة لعبيـدكم العسـاكر ، وأطلق سبيل أولئك الأعوان ، هذا ، وسيكون نهوضنا ومسيرنا على قلعة الدرعية ، بعد تـاريخ عريضتي هذه بعشرة أيام ، وإني قد سطرت عريضتي الفـائضـة بمفروض ثنـائي ، مضمناً إياها البشارة بهذه الفتوح العظيمة ، وبـاعثـاً بهـا مع عبـدكم « حسين آغـا » حاجتي (ياوري ـ جوقداري) إلى قدمي ولي النعم ، حتى إذا مـاحظت إن شـاء الله تعالى بسعد الوصول ، وتفضل ولي النعم الشامل العلم بالاطلاع عليهـا ، فـإنما الأمر يومئذ أمره والإرادة إرادته .

سيدي وولي نعمتي صاحب الدولة :

إن على مسافة خمس عشرة ساعة من « الدرعية » . إحدى عشرة قرية يطلق عليها اسم « وادي السـدير » ، وإن جميع شيوخ هـذه القرى ؛ قـد أوفـدوا رجـالهم إلى عبدكم طـالبين الأمـان ، مبـدين استعـدادهم للخضوع لخـادمكم ، والـدخول في

حوزة حكمه ، ومن ثم لا يكون القتال منظوراً في غير الدرعية ، غير أن فتح الدرعية وإحلال النظام فيها منوطاً بثلاثة أمور ، أولها : (النقود) وثانيها : (مقذوفات المدافع ، قبود بوار ألفي) وثالثها : (الجنود المشاة) ـ فمع أن لدى عبدكم مقذوفات كثيرة ، ومبالغ من النقود وافرة إلا أن استدامة ورودها وتواليه لمن مستحسن الأمور ، وأجلها خطراً ، لأن قاعدة الحرب معلومة حق العلم لدى مولاي صاحب الدولة ، فلقد سمع عبدكم أن من كان ظهره وخلفه متيناً كان ختام مصلحته أدنى إلى السهولة واليسر ، وكذلك أصبحت المقذوفات والنقود والجنود المشاة بمثابة القلب والقوة من عبدكم إذ لولا التعول على المدافع في معركة الشقراء المذكورة أيضاً لما كان شك في هلاك الكثير من الجنود المشاة وللزم المشي لاقتحام القلعة نفسها ، وهكذا اضطلعت المدافع بهذا العبء وحملته فكانت قتلانا وجرحانا في هجومنا الأول أربعين جندياً ، في حين قتل وأعدم من طائفة الوهابيين نحو مائة وخمسين ، هذا ، ولم يأت إلى خادمكم لغاية تاريخ عريضته ، أي من عبديكم « أحمد آغا أبو شنب » ، و « بهرام آغا » وهما رئيسا الجنود المشاة ـ اللذان أمرا واحداً بعد الآخر ، بالسفر من مصر ، مع أن هذا هو أوان استخدام المشاة ، فمتى أحاط شامل علمكم بهذه الحال ، فعسى أن تتفضلوا فتستجيبوا لمسؤول عبدكم العاجز ، بأن لا تقطعوا عنه النقود والمقذوفات ، وبأن توصوا رئيسي المشاة المندوبين للسفر بالإسراع في قدومهما إلي ، وعلى كل حال فالأمر أمركم والمشيئة مشيئتكم .

في ١٧ ربيع الأول ١٢٣٣ هـ ـ ٢٥ يناير ١٨١٨ م .

ختم

سلام على إبراهيم

ملحق (٢١)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة حفظها : محفظة (٥) بحراً براً .

رقمها في وحدة الحفظ : (١٨٧) .

تاريخها : ٢٥ جمادي الأولى ١٢٣٣ ـ ٢ أبريل ١٨١٨ م .

موضوعها : حرب الدرعية .

حضرة صاحب الدولة والرحمة والمروءة ، مولاي ولي نعمتي وسلطاني :

إن معروض عبدكم المستديم ، أنه قد تيسر لنا الوصول بمشيئة الله تعالى إلى الدرعية . بتاريخ غرة شهر جمادى الأولى هذا ، ونصبنا الخيام في مسافة ساعة ونصف ساعة من الدرعية ، وتحركنا من المحل المذكور أيضاً في اليوم الرابع من الشهر المذكور ، وفي أثناء وصولنا وحفر المتاريس (الخنادق) في موضع مقابل لمتاريس عبد الله بن سعود ، الواقعة بمسافة نصف ساعة من الدرعية ، إذ ابتدر بإطلاق مدافعه الثمانية أو العشرة بدون توقف وانقطاع ، ولكن مع دوام الحرب بالمدافع في اليوم المذكور ، أجرى اللازم أيضاً من جهة أخرى ، نحو إقامة المتاريس وتقوية الجبال يميناً ويساراً ، وبما أن الدرعية كائنة بين جبلين ، فوزع وقسم المذكور الوهابيين الذين يزيد عددهم على الثلاثة آلاف من الجبال ، وأطراف مضيق درعية ، وفي داخل الحدائق المختلفة ، وبقية أعوانه في داخل الأسوار والأبراج ، وقوى متاريسه تقوية جدية على وجه لا ينفذ فيها القذائف (المرميات) فبعد إقامتنا خمسة أيام على هذه الحالة وأعطاؤنا المتانة اللازمة إلى

متاريسنا وطوابي مدافعنا نحن أيضاً قد هجمنا على متاريس الوهابيين الواقعة في جهة الشمال ، وأخذناها من يدهم واضطرارهم إلى الفرار نحو متاريسهم الثانية ، ومع الاستمرار في القتال في المحل الذي أخذناه مقدار ساعتين ، قد عملنا متاريساً طوابياً للمدافع ، ومكثنا فيه بضع أيام ، وبعد تقوية المحل المذكور أيضاً ، قد هجم فرساننا من جهة وخدامكم عساكر المشاة من جهة أخرى على أتباعه الموجودين في جهة الجبل اليمني ، وأخرجوا من متاريسهم ، وقتل وأعدم مقدار مائة وخمسين منهم ، وجرح ما فوق المائتين ، وحيث أن بقية السيوف التجأت إلى المتاريس التي في ورائها القريبة من القلعة الأصلية المهدومة ، فوضع خدامكم جنود الموحدين في المحل المحتل ، وجرى أعمال الطوابي المتينة للمدافع أيضاً ، وأقمنا بضع أيام أعطينا في بحرها المتانة إلى المحلات اللازمة ، وهدمنا أحد أبراج قلعته وجزءاً من أسواره بالمدافع ، وقد نبهت على عبدكم « بهرام » بالهجوم على الأبراج المهدومة ، ونحن على وشك الدخول في الأبراج المذكورة والاستيلاء عليها بعون الله وعنايته ، وبهمة مولاي ولي النعم السامية ، إذ الوهابيين الموجودين في جهة شمالنا خرجوا من متاريسهم ، وهجموا على متاريسنا ولكن انهزموا بنصرة الله الملك المستعان ، وعندما رأيت عبدكم تشتتهم وانهزامهم ، قد أخرجت جميع خدامكم الفرسان والمشاة في متاريسنا الكائنة في اليمين والشمال ، وفي مضيق درعية ، وهجمنا على متاريسهم وطابية مدافعهم ودخلنا معهم في داخل الأسوار والأبراج مندمجاً لبعض ، واستولينا على المحلات الواقعة في مسافة مرمى مدفع إلى بلادهم الأصلية ، وغنمنا أربعة أعداد من المدافع الصفر (النحاس الأصفر) التي كانوا أخذوها في السنوات السابقة ، ومحونا أربعمائة نفر من الوهابيين ، وقويت أيضا المحلات التي استولت عليها ، وإنه صمم إرسال أحد خدامكم إلى أعتاب ولي النعم ، ببشارة فتح وتسخير درعية هذه ، إلا أنه اكتفى الآن برجاء عدم انشغال أفكاركم في هذه المسألة ، حيث أنها ستنتهي بدون شك طبق رغباتكم ، وإن عدد وهابيين الذين قتلوا وفروا في هذه الحروب يبلغ الألفين ، وحيث أن رجوع

عبدكم إلى المدينة المنورة بعد ختام هذه المسألة ، أو إقامتي في هذه الجهات ليست معلومة عندي ، فألتمس التكرم بإشعار ذلك لاتباع إرادتكم السامية التي ستصدر بهذا الشأن ، وإني لاأحتاج الآن إلى الذخائر والمهات من اللوازم الحربية ، ولاضيق لدينا بخصوص النقود أيضا ، ولكن لابد من إرسالها للزومها بعد الآن على كلتا حالتي الإقامة والعودة ، وقد توفي إلى رحمة الله تعالى عبدكم « أحمد آغا أبو شنب » من قواد ولي النعم ، في أثناء الحروب قبل اثني عشر يوما من تاريخ عريضة عبدكم هذه ليطيل المولى عز وجل عمر مولانا ولي النعم ٠٠ وإنه حضر أيضا عبدكم الحاج علي آغا الدرمللي (الدرامه لي) قبل ثلاثة أيام من التاريخ المذكور إلى طرف عبدكم ، وقد أطلعت عبدكم على مآل ومفهوم مكاتبتكم الكريمة السامية التي صار التكرم بإرسالها ، وحيث أن سروري وحبوري الذي تولد من حسن أنظار دولتكم ، ومحاسن آثار فخامتكم بلغ درجة الكمال ، فكررت أدعية دوام أيام عمركم ودولتكم التي هي فريضة ذمة عبدكم وقد حررت عريضة عبدكم هذه ببيان أنه صار إرسال ثلاثون عددا من أوراق المكاتبات البيض التي أمر بإبعاثها في مثل أوامركم العلية . وسياق الإفادات الأخرى وأرسلت وقدمت إلى أعتاب ولي النعم التي تقضي الحاجات بمعرفة عبدكم إبراهيم نجل شيخ الهلالية من قرى قصيم فبإن شاء الله تعالى لدى شرف الحصول والتفضل بإطلاع دولتكم على كيفية الأحوال والأخبار السارة ، فالأمر ، والفرمان يامولاي صاحب الدولة والرحمة وولي نعمتي .

٢٥ جمادى الأولى ١٢٣٣ هـ ـ ٢ أبريل ١٨١٨ م .

ختم

سلام على إبراهيم

وثيقة (١)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة الحفظ : محفظة (١٦) بحراً براً .

رقمها في وحدة الحفظ : (٥٧) .

تاريخها : بدون تاريخ .

موضوعها : تقرير عن أخبار منطقة نجد .

« صورة الحوادث « الأخبار » الواردة من زيله زاده ، عما يتعلق بأحوال الشرق . في شهر ربيع الأول ، نقل شيخ عتيبة ، محمد الأعرج بن مشاري المعمر ، أهله وعياله لقرية سدوس ، وانتقل هو إلى بلدة الرياض ، متظاهراً بأن ذلك لمصلحته ، وهناك أتفق مع أهل الدرعية ، ثم نصب الأعرج المذكور راية ، على بابه ، فأخذ الأهالي يتفادون ويجمعون عيالهم وأهليهم ، وينقلونها إلى الدرعية ، وبدأوا بزراعة أرضها ، وأرسل لأهل العارض ، ووشم والسدير ، الكتب وأتى بتركي بن عبد الله ، الذي هو وعياله في جهة الجنوب ، وولده وأخيه زيد وعمر بن عبد العزيز ، المشقوق المشقة « الأعلم والأفلح » وأولاده ، وجاء من أهل الجنوب مع تركي المذكور ، نحو مائة شخص وجاء من وادي الدواسر مع عمر المذكور ، ثلاثمائة حمل مابين حنطة وتمر ، وقهوة ، على سبيل المعاونة ، فلما سمع شيوخ « الأحساء » الشيخ محمد ، والشيخ ماجد ، آل عريفة[1] بذلك ، قاموا من الأحساء حتى إذا وصلوا إلى سهل تبانة على بعد أربع ساعات ، من الدرعية أرسلوا

---

(١) هكذا وصحتها « آل عريعر ».

إلى أهل الدرعية ، وغيرها من البلاد خطابات ، مع رجال مخصوصين ، يدعون المطيعين للدولة العلية ، للحضور عندهم ، والكلام معهم ، فلم يذهب من أهل الدرعية ، أحد لمواجهتهم ، ولا من أهل البلاد الأخرى ، غير اثنين من شيوخ الخرمة ، زقم بن زامل ، والشيخ كليب البجاوي ، فأرسلوا لأهل الدرعية كتباً ، ثاني مرة ، قالوا فيها : ياأهل الدرعية إنه صدر أمر سلطاني ، بضرب هذه البلدة ، وتخريبها ، وأن دولة أفندينا إبراهيم باشا ، سيجعلها قاعاً صفصفاً ، وسيجلي عنها أهلها ، ونحن لانحب ، أن تكونوا أنتم وبلادكم عرضة لذلك ، فأرسل إليهم أهل الدرعية درعين هدية ، وكتبوا لهم قائلين : نحن فرقة أخرى ، فلا تجيئوا عندنا ، وإذا أبيتم إلا المجيء ، تكون العاقبة وخيمة ، ونحن لانجيء عندكم ولا نقابلكم .

ثم بلغنا على الوجه المحقق ، أن شيوخ « الأحساء » ، حصدوا الكلأ الموجود في باب سمحان ، وأطراف عرقة[1] ، وأطعموه جمالهم ، وأغاروا على أهل عرقة ، فقتلوا منهم ثلاثين شخصاً ، ونهبوا قافلة المسيرة ، والمهمات القادمة من الرياض ، إلى الدرعية ، وقتلوا بضع أشخاص ، من أهل الدرعية ، وأتلفوا خمسة أو أربعة أشخاص ، في أثناء الوقعة من بني خالد ، ثم رجعوا إلى جهات الأحساء .

الكاتب : استعملت صيغة الجمع مع شيوخ : الأحساء ، مع أنهم إثنان باعتبار من معهم من الأتباع .

عودة إلى تتمة الكلام على شيخ عتيبة .

« سمعت أن الأعرج ، كان قبلاً دفن ، في الدرعية ، مدفعين صغيرين ، للاحتفاظ بها ، فلما زحف ابن عريعر شيخ « الأحساء » على الدرعية ،

(١) عرقة : هي الآن قرية ذات إمارة ، من إمارات الرياض ، المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ٩٥٨ .

استخرجها الأعرج المذكور ، واستعان بها على مقاومة بن عريعر ، والتفوق عليه ، وأن الموجود اليوم في الدرعية ، ألف ومائتا شخص ، وسمعنا أيضاً أن محمد بن مشاري : شيخ عتيبة الأعرج ، السالف الذكر ، بعدما استقر بالدرعية ، سمع أن مشاري بن مسعود ، الذي فر من مضيق « الجديدة » ، ذهب إلى جبال شمر ، وأقام فيها فأرسل له مراراً متعددة هجانة ، يدعوه إليه ، فقام مشاري بن سعود من جبال شمر ، حتى إذا وصل إلى قرية القصيبة[1] من قرى القصيم ، فلم يدخلها ، بل كتب إلى أهلها ، يستأذنهم بالسماح له بالدخول ، وإلا عاد على أدراجه ، فأجابوه مرحبين به ، فدخلها وأقام فيها ثلاثة أيام معززاً مكرماً ، هو ومن معه ، ثم رحل عنها إلى قرية « العيون »[2] ، فاستأذن أهلها ، فرحبوا به ، كما فعل أهل القصيبة ، ثم رحل عنها إلى قرية « بريدة »[3] ، فخرجوا لاستقباله ، بموكب حافل وأكرموه إكراماً ، فوق الحد ، وخلعوا عليه ، وعلى أتباعه الخلع النفيسة ، وأعطوه العطايا الكثيرة ، وبأثناء إقامته في قرية « بريدة » كتب إلى أهل القصيم ، وأهل نجد وغيرهم .

وحاصل القول أن جميع حضري أهل نجد ، التحقوا بمحمد بن مشاري « شيخ عتيبة » ، مشاري بن سعود ، ولكن شيخ « الخريمة » حمد آل مبارك ، وشيخ « ثرمدة »[4] ، سلطان بن عبد الله وشيخ الرياض ، ناصر ، وأهل

---

(١) القصيبة : هي القصيباء ، من قرى بريدة ، بمنطقة القصيم ، المعجم المختصر ، ق (٣) ، ص ١١٦٣ .
وراوية الأحداث في هذه الوثيقة تختلف عن رواية ابن بشر .

(٢) العيون : هي قرية عيون الجواء من قرى بريدة بمنطقة القصيم ، المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ١٠٣٢ .

(٣) بريدة : هي حالياً من أكبر مدن المملكة العربية السعودية ، ومقر إمارة بلاد القصيم ، المعجم المختصر ، ق (١) ، ص ٢٧٤ .

(٤) ثرمدة : بلدة في منطقة الوشم بمنطقة شقراء ، في إمارة الرياض ، المعجم المختصر ، ق (١) ، ص ٣٣٠ . وناصر بن حمد العائذي .

زلفى[1] ، لم يقابلوا محمد بن مشاري ، ولكن القوافل تـذهب وتجيء بين الخريمـة ، والدرعية وإنما جاء صالح بن غبيشر ، من أهل الدرعيـة ، إلى بريـدة .. وتعـاهـد مع مشاري بن سعود .

في المنفوحـة ، اتفق ابن سعيـد ، الـذي هو في « المنفـوحـة »[2] ، مـع أهلهـا وطردوا .. المنسوبين لقبيلـة المـزاريـع ، فـالتجـأ إلى شيخي « الأحسـاء » محمـد ، ماجد ، آل عريعر ، فلما كانا جهة الدرعية ، مـدا المزاريع[3] بـالقوة ، ليعودوا إلى المنفوحـة ، عنـدمـا كاد المزاريع يستولون عليهـا ، ويقيمـون فيهـا حتى قـام عرب السبيع الذين هم في قرية « حاير »[4] ، وبادروا لمعاونة عرب آل سعيـد ، فحضروا المزاريع ، في منزل ، وقتلوا منهم محمد بن سليمان بن مزروع ، وثمانية من أتباعه ، وأخرجوا الباقين بالأمـان ، وتسلم آل سعيـد « المنفوحـة » ، ويقـال أن نـاصر بن حمد ، شيخ الرياض ، قتل في هذه الوقعة .

أهل سدير : طرد المدعو ، غصاب ، شيخ الروضة القـديم . محمـد الأعور بن ماضي ، وسيد من أقاربه ، وقام هو وفهيد بشياخة الروضة[5] .

في بريدة : قام حفيد حجيلان هو ومحمد بن غانم ذينك الخبيثين اللـذين فرا من القطيف ، لجانب بن تامر من قبل ، بشياخة بريدة .

في قريـة دامق : فر شيخهـا السـابق ، سـالم الهزاع إلى « الشنـانـة »[6] فقـام

(1) زلفى : بلدة يتبعها عدد من القرى في إمارة من إمارات الريـاض ، المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ٦٨٥ .

(2) المنفوحة : قرية ذات إمارة من إمارات الرياض ، المعجم المختصر ، ق (٣) ، ص ١٤٣٢ .

(3) المزاريع : هم عشيرة دهام بن دواس المشهور وكانت إمارة منفوحة لهم سابقاً .

(4) حاير : قرية فيها مركز يتبعـه قرى في منطقـة إمـارة الريـاض ، المعجم المختصر ، ق (١) ، ص ٤٠٤ .

(5) الروضة : من قرى منطقة القصيم ، المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ٦٥٦ .

(6) الشنانة : من قرى الرس ، بمنطقة القصيم ، المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ٨١٠ ـ ٨١١ .

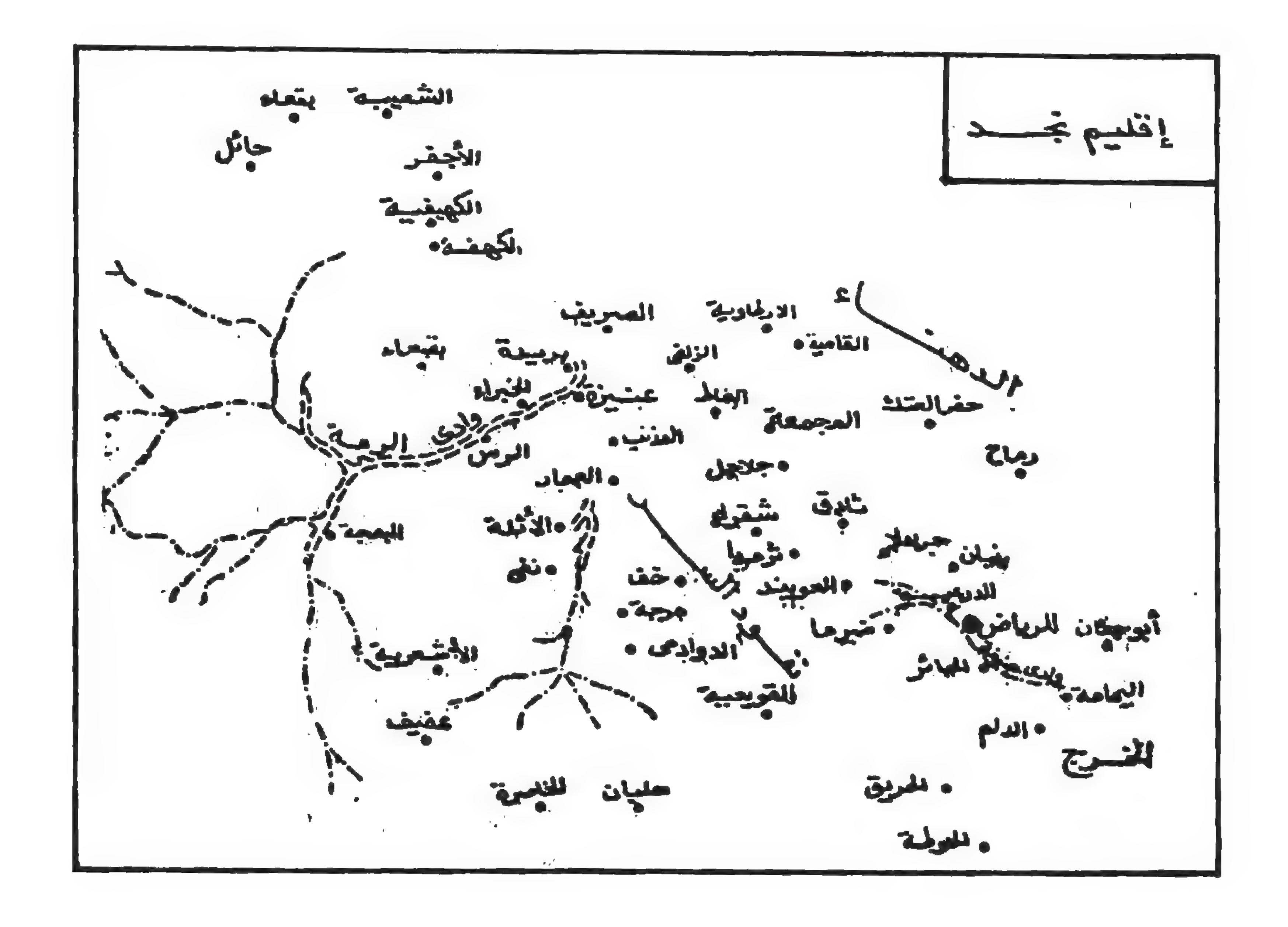
بالشياخة فيها قرناص وشارخ في عنيزة[1] فيها أربعة شيوخ ، ولكن لا أعرف أسماءهم غير أن اثنين منهم تعاهدا مع مشاري بن سعود .

هذه حقيقة الأخبار التي أخذت من عبد الله الجميعي ، شيخ عنيزة السابق ، سيدي .

---

(١) عنيزة : هي الآن بلدة ذات إمارة من إمارات منطقة القصيم يتبعها عدد من القرى . المعجم المختصر ، ق (٢) ، ص ١٠١٣ .

وحفيد حجيلان هو عبد الله بن حجيلان بن حمد قتله رشيد بن سليمان الحجيلاني صاحب بريدة لأن حجيلان قتل سابقاً سليمان الحجيلاني سنة ١١٩٦ هـ لاحظ تاريخ ابن بشر .



إقليم نجد
الشعيبة
حائل
الأجفر
الكهيفية
الصريف
الأرطاوية
الزلفي
بريدة
عنيزة
وادي الرمة
الرس
المذنب
الغاط
المجمعة
حفر العتك
رماح
جلاجل
شقراء
ثادق
ثرمدا
الدوادمي
القويعية
ضرما
الرياض
اليمامة
الدلم
الخرج
الحريق
الحوطة
عفيف
نفي
الأثلة

وثيقة (١)

مصدر الوثيقة : دار الوثائق القومية ـ القاهرة .

وحدة الحفظ : محفظة (٧) عابدين .

رقمها في وحدة الحفظ : (٢٠٩) .

تاريخها : ١٦ جمادى الآخرة ١٢٣٥ هـ / ٢١ مارس ١٨٢٠ م .

موضوعها : رسالة من علي باشا الصدر الأعظم ، تحذر ، محمد علي من أعمال الإنجليز التي قاموا بها ، في منطقة الخليج ، وتطلب منه عدم الاطمئنان لأفعالهم في اليمن[1] .

« حضرة صاحب السعادة ، والمكلة ، والمودة ، أخي العزيز :

« سبق أن أفاد للباب العالي ترجمان إنجلترا المقيم ، في الأستانة ، مأذوناً من طرف إنجلترا : أن جنرال إنجلترا الموجود ، في جهة الهند ، قد عقد النية ، على ترتيب عدة سفن حربية ، وتسييرها من جانب بمباي ، ومعها مقدار ما يكفي من العساكر البرية ، بالمخابرة مع العساكر ، الذين هم تحت إدارة نجلكم حضرة صاحب السعادة إبراهيم باشا ، والي جدة ، بقصد إدخال أهالي المحلات الواقعة في الجهات الشرقية ، من إقليم اليمن ، وأن الجنرال السالف الذكر ، قد بين الكيفية لنجلكم المشار إليه ، بمعرفة ضابط (أوفجيال) ، وحرر لصوب سعادتكم ، من طرف سلف مخلصكم تفصيل الوصايا اللازم إجراؤها في هذا الشأن ، وقد حرر في قائمتكم

(١) هذه الوثيقة تتعلق بالحملة البريطانية على رأس الخيمة عام ١٨٢٠ .

الواردة ، في هذه المرة ، ومكاتبتكم المرسلة ، أنه سبق إرسال الجواب اللازم ، عن التحرير السالف ذكره ، وأن الجنرال الإنجليزي الموجود في جهة الهند ، كان أرسل سنة خمس وعشرين ، ومائتين وألف ، عدة سفن ، وسيرها على أهالي القواسم ، (هكذا في الأصل) وكانت الغلبة في جانب الأهالي المذكورين ، في المحاربة التي جرت بينهم ، وبين الإنجليز ، ثم رتب الجنرال المذكور ، عساكر من طرف الهند ، وأرسلهم تكراره عليهم ، واتفق العساكر وسفائن الأسطول ، التي أرسلها مع إمام مسقط ، فدهموا الأهالي المذكورين ، وتغلبوا عليهم واحتلوا مواقعهم ، وإنه وإن سبق إرسال مكاتبة من طرف سعادتكم إلى إمام مسقط المومى إليه ، لأجل أن لا يرغب في الاتفاق مع الإنجليز ، لكن لم يرد لحد الآن جواب منه ، عن تلك المطالبة ، وذكرتم في قائمتكم المذكورة مطالعات سعادتكم وملاحظاتكم[1] .

وهذا الجنرال المدعو البركير[2] قد ورد إلى حوالي مسقط ، ومعه سفن إنجليزية ، وحاصر قلعة رأس الخيمة ، التي هي مسكن قراصنة زاكيم (هكذا) ، ومجمعهم ، واستولى عليها ، وكان شيخ زاكيم في أول الأمر ، لاكنه عاد ورجع إلى الجنرال المذكور ، وأقام الجنرال مقداراً من العساكر في البلدة المذكورة ، ثم أخذ يدور ويطوف ، ويتجول في سواحل بلاد العرب ، حتى استقر في جزيرة البحرين ، ومن هناك يقصد نحو القطيف ، الذي سبق ضبطه من قبل عساكر سعادتكم ، كما ذكر في ورق حوادث قدمه سفير فرانسة بالأستانة ، وقد وردت تحريرات ، تتعلق بالحوادث المذكورة ، من حضرة صاحب السعادة داود باشا ، والي بغداد أيضاً ، وحيث لم يرد لحد الآن جواب سعادتكم المتعلق بذلك ، الذي أشرتم إليه أولاً ، قد سلمت بعبدكم نجيب كتخداكم ، خلاصة تحريرات ، والي

---

(١) يشير بذلك إلى الحملة البريطانية على الساحل العماني ١٨١٩ م ، والتي انتهت بتوقيع معاهدة ١٨٢٠ م ، مع شيوخ الساحل العماني .

(٢) هو الجنرال وليم جرانت كير William grant keir.

بغداد ، مع صورة ترجمة ورق الحوادث المار ، بيانه ، المقدم من طرف سفير فرانسة ، لأجل الاستعلام ، عما عندكم من المعلومات ، في هذا الشأن ، وعقب ذلك ورد جوابكم المشيري المحرر ، في المرة الأولى ، المفيد أن إبراهيم باشا المشار إليه ، حينما كان في الدرعية ، أتى إليه ضابط من طرف الجنرال المذكور ، وأفاد عن ترتيب مقدار ، من العساكر من قبل الجنرال المذكور ، لأجل إدخال أهالي القواسم (هكذا في الأصل) ، تحت النظام ، ومنعهم من التعديات ، التي تجري منهم ، نحو سفن الإنجليز ، في تلك الجهات ، والتماسه ، موافقة عساكر المشار إليه ، على ذلك ماأفاده المشار إليه ، لصوب سعادتكم ، وإنكم حررتم إلى نجلكم المشار إليه ، أن يرد هذا الطلب ، بحكمة وتلطف ، حتى رد نجلكم المشار إليه ، هذا الطلب . وأعاد الضابط المذكور ، بصورة حكيمة متعللاً ، بأنه قد وعد له ، ولعساكره بالاستراحة ، بعد فتح الدرعية ، إزالة للأتعاب اللاحقة بالعساكر ، الذين هم بمعيته ، وأنه أرسل لصوب سعادتكم ، خطاب الجنرال المذكور إليه[1] المحرر بالإملاء ، الفارسي ، فأرسل إلينا ، وقد عرضنا جميع تلك المحررات للأعتاب السلطانية ، فأصبحت مشمولة بأنظار حضرة السلطان .

فعلى ذلك ، نفيدكم أن من المبرهن عند ذاتكم الأصفية ، أن أقوال الدول الإفرنجية ، وأفعالهم ، في كل وقت ، وإنما تدور حول أرباحهم ، وتجري وراء ترويج آمالهم ، فلا يجوز ائتمانهم في زمن من الأزمان ، فمن لوازم حكمة الحكومة ، عدم التغافل عن أعمالهم ، المنطوية ، على الخداع ، وليس قصد الإنجليز من ذلك ، غير إيجاد ذريعة ، لمد يد التسلط إلى تلك الجهات ، كما سبق إشعار ذلك ، لصوب سعادتكم ، من طرف سلف مخلصكم ، ويستفاد من مطالعة خلاصة مكاتبة حضرة والي بغداد ، وصورة ترجمة ورقة الحوادث المار ذكرها ، المقدمة من

---

(١) يشير بذلك إلى بعثة الكابتن سادلير Sadlier

طرف سفير فرانسة ، المرسلتين إلى صوب سعادتكم ، بواسطة كتخداكم بالباب العالي ، أن مرمى الإنجليز مقصدهم الفاسد ، هو جعل بعض المحلات في تلك الجهات ، في قبضة تصرفهم ، واستقرارهم فيها .

فجوابكم الواقع ، للجنرال المذكور ، في محله تماماً ، لكن حيث لا يبعد من الملاحظة ، أن الإنجليز لا يخلون من المضي ، على إبراز مقصدهم الكامن ، في دماغهم الفاسد ، من القوة إلى الفعل ، وتكرير الخداع ، ولو بالمراجعة إلى طريقة أخرى ، سيئة فيما إذا لم ينجحوا في ماكرتهم ، يجب في هذا الوقت ، كمال التبصر في كل حين ، والاهتمام التام بعدم الغفلة ، عن وسائلهم ، والإقدام على استكمال وسائل عدم تمكنهم من ضبط محل ، في تلك الجهات ، وقد جرى الأمر السلطاني أيضاً ، في هذا المجرى ، فالمطلوب العالي ، بمقتضى نفاذ نظركم ، وفطانتكم ، وكياستكم ، وتجريبكم عند اطلاعكم على مقاصدهم الفاسدة ، من خلاصة التحريرات المار ذكرها ، ومن صورة ترجمة ورقة الحوادث المذكورة ، أن تكون حركتكم بكل تبصر ، عن غير انخداع ، بملاعيب الجنرال المذكور أصلاً ، وأن تهتموا بعدم تمكنهم من ضبط بعض محلات من تلك الجهات ، وأن تلاحظوا هذه الشؤون من أطرافها ، مع استكمال أسباب المدافعة ، واستحضارها ، وإشعار الكيفية لهذا الطرف ، وقد حررت قائمة مودتنا هذه ، لبيان ذلك وأرسلت إلى نادي سعادتكم ، فالمأمول لدى وصولها ، إن شاء الله تعالى ، أن تبذلوا الهمة ، للعمل على الوجه المحرر » .

في ١٦ جمادى الثانية سنة ١٢٣٥ هـ / ٣١ مارس ١٨٢٠ م

الختم
سيد علي


صفحة فارغة

مسرد الموضوعات

منافذ بيع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

٢٥٧٧٥٠٠٠

ت : ٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤

٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦

مدخل (أ) - الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -

الجامعة الجديدة - الإسماعيلية

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا - المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى - توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصورة

٥ ش السكة الجديدة - المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير - الزقازيق

ت : ٠٥٥٢٣٦٢٧١٠ - ٠١٠٦٥٣٣٧٣٣٢

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب